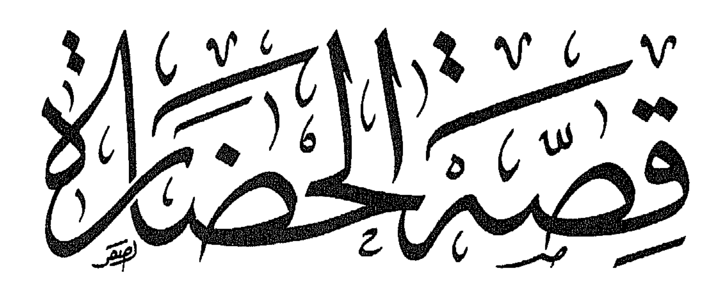

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
4
الصين
الشرق الأقصى



ول وايريل ديورانت

الشَّرقُ الأقصَى
الصِّين

ترجمة
محمّد بدران

الجزء الرّابع من المجلّد الأوّل







تونس
بيروت

فهرس

الشرق الأقصى

١ — الصين

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الرابع والعشرون : عصر الشعراء

الباب الخامس والعشرون : عصر الفنانين ١٤٨

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب السادس والشرون : الشعب والدولة

الموضوع الصفحة

فهرس الخرائط والأشكال



الشرق الأقصى

الكتاب الثالث

الشرق الأقصى

الصـــين

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً فى قرض الشعر ، والناس أحراراً فى تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً فى قول الحق ، والوزراء أحراراً فى إســداء النصح ، والفقراء أحراراً فى التذمر من الضرائب ، والطلبة أحراراً فى تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً فى مدح مهارتهم وفى السعى إلى العمل ، والشعب حراً فى أن يتحدث عن كل شىء ، والشيوخ أحراراً فى تخطئة كل شىء .

من خطبة ألقاها دوق چَوْ بين يدى الملك لى – وانج
حوالى عام ٨٤٥ ق . م(١)

تاريخ مسلسل للحضارة الصينية(*)

قبل الميلاد	
٢٨٥٢ – ٢٢٠٥	حكام أسطوريون
٢٨٥٢ – ٢٧٣٧	فوشى
٢٧٣٧ – ٢٦٩٧	شن نونج
٢٦٩٧ – ٢٥٩٧	هوانج دى
٢٣٥٦ – ٢٢٥٥	ياو
٢٢٥٥ – ٢٢٠٥	شون
٢٢٠٥ – ١٧٦٦	أسرة شياه
٢٢٠٥ – ٢١٩٧	يو
١٨١٨ – ١٧٦٦	چيه جوا
١٧٦٦ – ١١٢٣	أسرة شانج (وين)
١٧٦٦ – ١٧٥٣	تانج
١١٩٨ – ١١٩٤	ووبى – الإمبراطور الكافر
١١٥٤ – ١١٢٣	چوسين ، مثال الخبث
١١٢٢ – ٢٥٥	وو – وانج
١١٢٣	ون وانج (مؤلف كتاب التغيرات
١١١٥ – ١٠٧٨	تشنج وانج
١١١٥ – ١٠٧٩	چوجونج (مؤلف چو – لى ، أو شرائع چو)
٧٧٠ – ٢٥٥	عصر الإقطاع
٦٨٣ – ٦٤٠	جوانج چونج رئيس وزراء تشى
٦٠٤ – ٥١٧	لَو – دْزَه ؟
٥٥١ – ٤٧٨	كنفوشيوس
٥٠١	كونفوشيوس كبير

قضاة چونج – دُو

قبل الميلاد	
٤٩٨	كنفوشيوس نائب المشرف على الأشغال العامة فى دوقية لو
٤٩٧	كنفوشيوس وزير الجرائم
٤٩٦	استقالة كنفوشيوس
٤٩٦ – ٤٨٣	عهد تجوال كنفوشيوس
٤٥٠	الفيلسوف مو دى
٤٠٣ – ٢٢١	عهد الولايات المتنازعة
٣٩٦	الفيلسوف يتج چو
٣٧٢ – ٢٨٩	الفيلسوف منشيس
٣٧٠ (وُلد)	الفيلسوف چونج – دزه
٣٥٠ (توفى)	الشاعر تشو بنج
٣٠٥ (وُلد)	الفيلسوف شون – دزه
٢٣٣ (توفى)	هان فى (من كتاب المقالات)
٢٣٠ – ٢٢٢	استيلاء شى هونج دى على الصين وتوحيد أجزائها
٢٥٥ – ٢٠٦	أسرة لنشين
٢٢١ – ٢١١	شى هونج – دى . « الإمبراطور الأول »
٢٠٦ ق . م . – ب . م	أسرة هان
١٧٩ ق . م – ١٥٧ ق . م	ون – دى
١٤٥ ق . م (توفى)	المؤرخ زوماتشين
١٤٠ – ٨٧ ق . م	وو – دى (الإمبراطور المصلح)

(*) كل التواريخ التى قبل ٥٥١ ق . م تقريبية ، وكل التى قبل ١٨٠٠ ب . م غير موثوق بصحتها .

بعد الميلاد	
— ٢٥	وانج مانج — الإمبراطور الاشتراكى
٦٧	دخول البوذية فى الصين
حوالى ١٠٠	أول صانع معروف للورق فى الصين
٢٠٠ — ٤٠٠	غزو التتار الصين
٢٢١ — ٢٦٤	عهد الممالك الثلاث
٢٢١ — ٦١٨	الأسر الصغرى
٣٦٥ — ٤٢٧	الشاعر داو تشين
٣٦٤	النقاش كوكاى تشى
٤٩٠ — ٦٤٠	عصر النحت البوذى العظيم
٦١٨ — ٩٠٥	أسرة تانج
٦١٨ — ٦٢٧	جوّدزو
٦٢٧ — ٦٥٠	تاى دزونج
٦٥١ — ٧١٦	الرسام لى سو — شن
٦٩٩ — ٧٥٩	الرسام وانج واى
ولد حوالى ٧٠٠	الرسام وو داو — دزه
٧٠٥ — ٧٦٢	الشاعر لى پو
٧١٢ — ٧٧٠	الشاعر تو فو
٧١٣ — ٧٥٦	شوان دزونج (منج هوانج)
٧٥٥	فتنة أن لو — شان
٧٦٨ — ٨٢٤	هانج يو (كاتب المقالات)
٧٧٠	أقدم ماعرف من المطبوعات على القوالب (الكليشيهات)
٧٧٢ — ٨٤٦	الشاعر بوچيو — ى
٨٦٨	أقدم كتاب مطبوع باق إلى الآن
٩٠٧ — ٩٦٠	خمس «أسر صغيرة»
٩٣٢ — ٩٥٣	طبع الكتب الصينية القديمة على القوالب
٩٥٠	ظهور أوراق النقد لأول مرة
٩٦٠ — ١١٢٧	أسرة سونج الشمالية
٩٦٠ — ٩٧٦	تاى دزو

بعد الميلاد	
٩٠٧	أول دائرة معارف صينية عظيمة
١٠٦٩ — ١٠٧٦	حكم وانج آن — شى رئيس الوزراء الاشتراكى
١٠٤٠ — ١١٠٦	لى لونج — مين ، الرسام
١٠٤١	بى شنج يصنع حروفا متنقلة
١١٠٠	جوُوشى الرسام
١١٠١ — ١١٢٦	هواى دزونج الإمبراطور الفنان
١١٢٦	التتار ينهبون پيانلانج ؛ (كايفنج) عاصمة هواى دزونج ؛ نقل العاصمة إلى لينان (هانج تشاو)
١١٢٧ — ١١٧٩	أسرة زونج الجنوبية
١١٣٠ — ١٢٠٠	چوشى الفيلسوف
١١٦١	أول ما عرف من استخدام البارود فى الحروب
١١٦٢ — ١٢٢٧	چنكيز خان
١٢١٢	چنكيز خان يغزو الصين
١٢٦٠ — ١٣٦٨	أسرة يوان (مغولية)
١٢٦٩ — ١٢٩٥	كوبلاى خان
١٢٦٩	ماركو پولو ، يغادر البندقية فى رحلته إلى الصين
١٢٩٥	ماركو پولو ، يعود إلى البندقية
١٣٦٨ — ١٦٤٤	أسرة منج
١٣٦٨ — ١٣٩٩	تاى دزو
١٤٠٣ — ١٤٢٥	تشنج درو (يونج لو)
١٥١٧	البرتغاليون فى كانتون
١٥٧١	استيلاء الأسبان على جزائر الفلبين

بعد الميلاد

١٥٧٣ — ١٦٢٠	شن دزونج (وان لى)
١٦٣٧	التجار الإنجليز فى كانتون
١٦٤٤ — ١٩١٢	أسرة تشح (المانشو)
١٦٦٢ — ١٧٢٢	كانج شى
١٧٣٦ — ١٧٩٦	تشين لونج
١٧٩٥	تحريم تجارة الأفيون للمرة الأولى
١٨٠٠	تحريم تجارة الأفيون للمرة الثانية
١٨٢٣ — ١٩٠١	لى هنج — تشانج السياسى
١٨٣٤ — ١٩٠٨	تزوشى (الإمبراطورة الأرملة)
١٨٣٩ — ١٨٤٢	« حرب الأفيون » الأولى
١٨٥٠ — ١٨٦٤	فتنة تاى — پنج
١٨٥٦ — ١٨٦٠	« حرب الأفيون » الثانية
١٨٥٨ — ١٨٦٠	الروسيا تستولى على أراضى صينية شمال نهر عامور
١٨٦٠	فرنسا تستولى على الهند الصينية
١٨٦٦ — ١٩٢٥	صون يات — صن
١٨٧٥ — ١٩٠٨	كوانج شو
١٨٩٤	الحرب الصينية اليابانية
١٨٩٨	ألمانيا تستولى على كياو تشاو ، والولايات

بعد الميلاد

	المتحدة تستولى على جزائر الفلپين
١٨٩٨	مراسيم كوانج شو الإصلاحية
١٩٠٠	ثورة الملاكمين (البكسر)
١٩٠٥	إلغاء نظام الامتحان لطالبى المناصب الحكومية
١٩١١	الثورة الطبية
١٩١٢	(يناير — مارس) صون يات — صن الرئيس المؤقت للجمهورية الصينية
١٩١٢ — ١٩١٦	الرئيس يوان شى — كاى
١٩١٤	اليابان تستولى على كياو تشاو
١٩١٥	« المطالب الواحدة والعشرون »
١٩٢٠	الپاى هوا (اللغة الدارجة) التى تستعمل فى المدارس الصينية ، ذروة « المد الجديد »
١٩٢٦	تسيانج كاى تشك وبردين ، يخضعان شمالى الصين
١٩٢٢	الحركة المقاومة للشيوعية
١٩٣١	اليابانيون يحتلون منشوريا

الباب الثالث والعشرون
عصر الفلاسفة

الفصل الأول
نشأة الفلسفة

١ — قدر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملا من الأعمال المجيدة التي تمت في عصر الاستنارة(*) وقد قال فيهم ديدرو : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأى بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة »[1] . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو في أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم »[2]. وهذا الإجلال الذي ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كثب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غايته . انظر إلى ما قاله الكونت كيسرلنج Count Keyserling في خاتمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفعاً وأبرعها تصويراً :

(*) يطلق الأوربيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذي سادته النزعة الفلسفية الفرنسية في القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . (المترجم)

لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأسانت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر فىّ كل يوم أكثر من الذى قبله ... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وإن أولئك السادة(*) لهم طراز سام من البشر ... وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى ... إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! ... وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ... ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم »[٣]

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن (ما عدا نفراً قليلا فى الوقت الحاضر) مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج[٤] . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبى » فى وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى ، وكان لا بد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين فى معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة(**) . والصينيون كمعظم شعوب الأرض « يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعا »[٧] . ولعلهم محقون فى زعمهم هذا رغم ما فى بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم فى العلوم ، وكدحهم فى المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقولهم الملأى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جمودهم وقسوتهم وفقرهم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحروبهم

(*) يقصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم فى تشنج — داو .

(**) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز **Dr. Giles** فى ترجمة بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى **Gems of Chinese Literature** قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أنار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛
واليوم امتد نفوذها ليهدى موطناً بربريا

المدمرة ، ومذابحهم وهزائمهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدنيةً من أقدم المدنيات القائمة فى العالم وأغناها : فمن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمدنياً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة ورومة والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوربا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية الصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغرافى — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا الروسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوربا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تقل عن أوربا فى اتساع رقعتها وتعداد عامرها .

وقد كان يكتنفها فى معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال ، وصحراء من أوسع صحارى العالم .

لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة كانت هى السبب فى حظها النسبى من السلامة والدوام ، والركود وعدم التغيير ، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها من الأمم . ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين ، بل سموها تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » — أو چونج — جوُو « الدولة الوسطى » أو چونج — هوا — جوو « الدولة الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثورة چونج — هوا — مين — چوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »(٨) . والحق أن الأزهار اليانعة كثيرة فيها ، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها إياها الشمس الساطعة ، والسحب السابحة ، وشعاب الجبال الوعرة ، والأنهار العظيمة ، والأغوار العميقة ، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة . ويجرى فى قسمها الجنوبى الخصيب نهر يانج — دزه(*) الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل ، وفى الشمال ينحدر الهوانج هو ، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً سهولا من اللويس ، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن فى خليج بتشيلى ، وكان من قبل يصبه فى البحر الأصفر ، ولعله سيعود فى الغد فيصبه فى هذا البحر مرة أخرى . على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتى نهر الراى وغيره من المجارى الواسعة ، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام ، وتصد عنها الهمج المحيطين بها ، وتنظف الأرض من الحسك والعُلَّيق ، وتطهرها من الحشرات المهلكة والرواسب الأكالة القارضة كأملاح البوناسا وغيرها ؛ وتجفف المناقع ، وتقاوم الجفاف والفيضان ، وما يطرأ على مجارى الأنهار

(*) هو الذى يسمى عادة يبج — تسى ، ويبلغ اتساعه عند منعهاى ثلاثة أميال كاملة . (المترجم)

من تحوُّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك ، وتجرى الماء فى صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء فى آلاف القنوات ، ونقيم يوما بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرًى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الآجال التى يكد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التى يدمرونها فى سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أى جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا «إنسان بيكين»(*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة فى بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه فى تلك البلاد أن منغوليا كان يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التى كانت أوربا تستخدمها فى العصر الحجرى الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا فى سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجدبت واستحالت إلى صحراء جوبى الحالية : وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام من مثيلتها فى عصر ماقبل التاريخ فى مصر وسومر . ويُشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث ، فى شكله وتسنينه ، المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية فى هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية(**) ، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها نرجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقلّ أن يوجد له فى غير الصين نظير[١٥] .

(*) النطق الصحيح لهذا الإسم هو بيپنج وقد نستعمله أحياناً . (المترجم)

(**) المعروفة بالسرغو

على أن طول هذه العهود يجب ألا يغشى أبصارنا فنبالغ فى تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصينى نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن حزف هونان المنتمى إلى العصر الحجرى الحديث لايكاد يفترق فى شىء عن خزف أنو والسوس(١١) . والجنس « المغولى » الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبى الروسيا (السكوذيين ؟) ووسط آسية(١٢) .

فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوروبا بأ كلها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هى موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً فى العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

٣ — القرون العابرة المجهولة

قصة الخلق عند الصينيين — بداية الثقافة — الخمر وعصر الأكل — الأباطرة الأفاضل — ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل مايقع فيها ، وكثيراً مما لا يقع : على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق. م ، ورأينا أكثرهم تقى وصلاحاً يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب فى هذه الأيام . ومن أقوالهم فى هذا أن « بان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ ق . م بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحبا ، وأضحى صوته رعداً ، وصارت عروقه أنهاراً ، واستحال لحمه أرضاً ، وشعره نبتاً وشجراً ، وعظمه معادن ، وعرقه مطراً ؛ أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين (١٣) . وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب .

وتقول الأساطير الصينية إن للملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل « بان كو » خلائق متحضرين . وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس « كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة ، ويعرفون أمهاتهم ، ولكنهم لا يعرفون اباءهم » — ولا يرى استرندبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير مقصور على الأقدمين أو على الصينيين . ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشي في عام ٢٨٥٢ ق . م بالتحديد ، فعلّم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج ، والموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشباك ، وتأنيس الحيوان ، وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه سن نونج ، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة ، واخترع المحراث الخشبي ، وأقام الأسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص النبات العلاجية ، هذا ما تقوله الأساطير التي تعلى الأشخاص أكثر مما تعلى الأفكار ، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال . ثم حكم إمبراطور محارب قوي يدعى هوانج — دى لم يطل عهده أكثر من مائة عام ؛ فجاء إلى الصين بالمغنطيس والعجلات ، ووظف المؤرخين الرسميين ، وشاد أول أبنية من الآجر في الصين ، وأقام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد توزيع الأرض على الأهلين . وحكم يَوْ قرناً آخر ، وبلغ من صلاح حكمه أن كنفوشيوس ، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له بلا ريب عهداً « حديثاً » فاسداً ، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وانحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذى لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » يضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلاً يضربونه إذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ، ولوحاً يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم چونج — جُوُ ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحيما خيِّرا كالسماء ، حكيما بصيراً كالآلهة ، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس الساطعة . وكان غنياً فى غير زهو ، عظيما فى غير ترف ، وكان يلبس قلنسوة صفراء ، ومئزراً قاتم اللون ، ويركب عربة حمراء تجرها جياد بيض . وكانت طنف أسقف بيته غير مشذبة ، وألواحه غير مسحجة ، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التى يصنع منها خبزه ، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناوله بملعقة من الخشب . ولم يكن يتحلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المألوف من الأشياء أو الغريب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزنا للأشياء النادرة الغريبة ، يستمع لأغانى الغزل ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس فى الصيف رداء بسيطاً من القطن ، ويلف جسمه فى الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى مَن حكم جونج — جْوُ ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلا ، وأطولهم عمراً ، وأحبهم إلى قلوب الشعب [١٤] .

وكان شون آخر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا فى البر البنوى ، كما كان هو البطل الذى جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذى أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التى جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذى كانوا يربون به . وتقول الروايات الصينية إن شون فى آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذى تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »[١٥] . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر فى أيامه وقدم للإمبراطور ، ولكن يو صبَّه على الأرض وقال متنبئاً : « سيأتى اليوم الذى يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشىء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومى ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغيَّر يو المبدأ الذى كان متبعاً من قبله فى وراثه الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً فى أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشِّيتية (أى المتحضرة) ، فكان ذلك سبباً فى أن يتعاقب على حكم الصين العباقرة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلِّى نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتو ميتة هنيئة بالقفز فى بحيرة من النبيذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك فى هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسى الذى ورد ذكره فى السجلات القديمة فقالو إنه قد حدث فى عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن الثقاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين[١٦] . وقد وجدت على بعض العظام التى كشفت فى

هونان أسماء حكام تعزوهم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأوانى البرنزية الموغلة فى القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذى يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — يى أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأمر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيسا من الجلد وملأه دما ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما فى التاريخ نفسه — إن وو — يى أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان چوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصى الطعام حبيثاً آثماً إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول فى يى كان » — وزيره . وكانت تاكى زوجة چو مضرب المثل فى الفجور والقسوة ، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات الرقص الخليع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين فى حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية فى النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا فى الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم فى النار[١٧] .

وقضت على عهد چوسين مؤامرة دبرها الثوار فى داخل البلاد ، وغارة من ولاية چو الغربية ، ورفع المغيرون على العرش أسرة چو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى فى بلاد الصين . وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانوهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاما يكادون يكونون مستقلين فى

الولايات الكثيرة التى قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذى كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذى كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبى والفلسفى فى بلاد الصين . وتزاوج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجيا لأولى حضارات الشرق الأقصى فى الأزمنة التاريخية .

٤ — الحضارة الصينية الاولى

عصر الاقطاع فى الصين — وزير مدبر — النضال بين العادات والقوانين — الثقافة والفوضى — أغانى الحب فى «كتاب الأغانى»

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التى وهبت الصين بعدئذ ما استمتعت به من نظام سياسى قرابة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التى قامت فى الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الزراع ضعافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات فى وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكوّن كل منها فى العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعى واحد(١٨) . ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها فى بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذى يعرف الآن بإقليم هونان وماجاوره من أقاليم شانسى ، وشَنْسى ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشى التى وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التى أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به فى جميع بلاد العالم إلا فيها هى نفسها .

وكان السياسى العبقرى الذى وضع لولاية تشى نظامها هو جوان چونج

مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه فى نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان فى إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر فى آخر الأمر وأسر جوان وعيّنه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أو بالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح « لكى يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »[19] . وأصبحت تشى فى أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة — «إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان چونج لظللنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال[*][20]

وفى بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التى امتاز بها الصينيون المهذبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيتا چنج وتشين (فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

(*) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظل الصينيون همجاً ، فقد كان من عادات الهمج فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال(٢١) .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراى فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقالوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرموديوس أو أرستجيتون (*) يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هـذا النظام فى الچو — لى ، أو « دستور چو » وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى چو جونج عم دوق چو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلمح فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة چو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثـل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من النواحى الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م .(المترجم)

الأشغال العامة » . ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى فى أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المألوف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقيين والقتلة السفاحين والسرارى والفلاسفة . وقلما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرةُ الجياع الذين لم ينقطعوا يوما ما عن الضغط على حدودها[٢٣] ، حتى أضحت الحرب أولا ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر منهما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون[٢٤] ، وعمت البلاد الفوضى ، ويئس الحكماء من إصلاح الأمور .

وظلت الحياة تتعثر فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاّح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعلّمون الأهلين زرع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات[٢٥] . وكانت التجارة الداخلية

رائجة فى المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يغزلونه بأيديهم ، وينتقلون فى عربات مختلفه الأنواع ، أو فى قوارب تسير فى الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسى والنضد ، ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوانى من الخزف المنقوش(٢٦) . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم فى بلاد اليونان أيام صولون Solon أو فى روما أيام نوما Numa .

وسرت فى الحياة الذهنية فى الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطوية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء فى تاريخ الصين الذهنى . فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفى آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلّمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول .

وسندرس فى الفصول التالية حال الفن واللغة فى أكمل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذى نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يجملانه أكثر عصور الفكر الصينى ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقى منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت فى الشى — چنج ، أى « كتاب الأغانى » وقيلت فى فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل فى أيام أسرة شانج إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل فى زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القارئ أمثلة من نواح الجنود الذين انتزعوا من بيوتهم فى غير الأوقات المناسبة ؛ ليلقى بهم فى مخالب المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

ألاما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير فى الفضاء
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو الملتف الكثيف !
أما نحن الدائمو الكدح فى خدمة الملك ،
فإنا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز
ترى على أى شىء يعتمد آباؤنا ؟
حدثينى أيتها السماء النائية الزرقاء !
متى ينتهى هذا كله ؟ ..
وهل فى الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟
وهل بقى فى البلاد رجل لم ينتزع من بين ذراعى زوجته ؟
رحمة بنا نحن الجنود : —
ألسنا نحن أيضاً آدميين ؟[٢٧]

وفى القصائد كثير من أغانى الحب المختلفة النغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع فى إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس فى آذاننا من خلال القرون البائدة ، التى كانت تبدو عهوداً نموذجية لكنفوشيوس ، وكأنما هى تقول أن لا شىء يماثل التمرد والعصيان فى قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبى
أن تغادر قريتى الصغيرة
وألا تهشم أغصان صفصافى ؛
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزننى
بل لأنى أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبى .
والحب يناديني بعواطفه المقهورة : —
« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »
أتوسل إليك يا حبيبى
ألا تتسلق جدار بيتى
أو تحطم أغصان توتى
وليس ذلك لأنى أخشى سقوطها
بل لأنى أخشى أن يثير سقوطها غضب أخى .
والحب يناديني بعواطفه المقهورة :—
« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »
أتوسل إليك ياحبيبى ،
ألا تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل ؛
وليس هذا لأنى أعنى بهذه أو تلك
بل لأنى أرهب حديث المدينة ،
وإذا ما سار المحبون على هواهم

فماذا يقول عنهم جيرانهم ؟[٢٨]

وثمة قصيدة أخرى هى أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ، وهى تدل على أن العواطف البشرية قديمة موغلة فى القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتى

وتحيط بى الأزهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء وأنا قلقة البال

وتحرك شىء بين الحشائش الذابلة

فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،

وإذا جندب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال

فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبى

فاستراح واطرح عنه حمله[٢٩]

٥ — الفلاسفة قبل كنفوشيوس

« كتاب التغيرات » — « اليانج والين » — عصر الاستنارة الصينية
تنج شى سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس يعيب الجنس البشرى أن تشوفه كان فى كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه . وها هو ذا يو — دزه فى عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة القصيرة التى تعد من جوامع الكلم ، والتى طالما رددها الناس من قبله ، ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس فى حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الأحزان »[٣٠]

ألا ما أسعد الإنسان الذى لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم فى الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها فى الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد فى الأدب الصينى كله كتاب ذو شأن فى علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التى يبدأ بها تاريخ التفكير الصينى المدون ، وهى الوثيقة المعروفة باسم إى — چنج ، أو « كتاب التغيرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسى أسرة چو فى سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذى عاش قبله بزمن طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطورى اخترع « الجوات » الثمانى أو التثاليث الرمزية التى ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين

وكذلك يمثل اليانج فى هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابى الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبى المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد خلّد ون يانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط فى الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكمن فى هذه الأربع والستين شَيْپِنْجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلا رمزيا فى التثليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين فى الكون وهما عنصرا الذكورة والأنوثة أى اليانج والين . وكان

الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، ويعدّونه أعظم تراثهم الأدبى ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما علق عليه من الحواشى ، وكان يفضله عن كل ما عداه من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها فى دراسته[٣١].

ولا يتفق هذا السِّفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهى الروح الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد فى الصين فلاسفة فى أبعد الأزمان التى وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لَوْ — دْزَه ، لايعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين ، كما شهدا فى الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية .

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلك للرقىّ ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما فى علوم الدين من إبهام وغموض ، وما فى الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المُثُل العليا والكمال المطلق . وقد أُعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة فى مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف صينى متمرد بحجة أنه « كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال ؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس »[٣٢] .
ويصدق زوما — تشين هـــذه القصة ، ولـــكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها[٣٣] ؛ ونحن نرجو ألا تـــكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شى الذى أعدمه دوق جنج فى شباب كنفوشيوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعــلم النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسبيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها »[٣٤] . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأياً ويثبت عكسه فى غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا فى المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس . . ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التى كان يقيم فيها تنج فى نهر واى ، وأخرج رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتيل مبلغاً كبيراً من المال نظير إخراجها من النهر . وذهبت أسرة القتيل إلى تنج تستشيره فى الأمر ، فأجابها السوفسطائى بقوله : « تريثوا فلن تؤدى المال المطلوب أسرة غير أسرتكم » ، وعملت أسرة القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة فى حوزته فجاء هو أيضاً إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتيل إذ قال له : « تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك »[٣٥]

ووضع تنج شى قانوناً للعقوبات تبين أنه أرقى مما تطبقه حكومة جنج . ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعاً بالنشرات التى كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها فى الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه[٣٦] .

٦ — المعلم القديم

لو — دزه — « الدّو » — رجال الفكر فى الحكومة — سخف القوانين — مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار القانون المسيحى — صورة الرجل الحكيم — التقاء لو — دزه وكنفوشيوس

كان لو — دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، أكثر حكمة من تفج شي ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك فى أنه عمر طويلا وإن لم نكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصينى زوماتشين أن لو — دزه عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله فى أمانة مكتبة چو الملكية ، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل فى الريف . « فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شي : إنك إذن تنشد العزلة ، وأنا أرجوك أن تكتب لى كتاباً . فكتب له لو — دزه كتاباً من جزأين فى الدّو و الدّى يشتمل على خمسة آلاف كلمة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات »[٣٧] .

لكن الروايات والأقاصيص ، التى لا تخفى عليها خافية ، تقول إنه عاش سبعة وثمانين عاما . ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له .

فأما لو — دزه ، فوصف معناه « المعلم القديم » وأما اسمه الحقيقى فهو ، كما تقول الرواية ، لى — أى البرقوقة .

والكتاب الذى يعزى إليه مشكوك فيه شكًّا أثار كثيراً من الجدل العلمى حول أصله(*) ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو — ده — چنج — أي « كتاب الطريقة والفضيلة » — هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدّوية التي

(*) ويرى الأستاذ چيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب . م . وقد اختلسه مؤلفه من هان فى[٣٨] الناقد وكاتب المقالات . أما الدكتور لج Dr Legge فيرى أن تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) فى أقوال چوانج — دزه وأقوال زوماتشين يدل على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسبة الدو — دى — چچ إلى مؤلفه .

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتى كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتى صارت فيما بعد ديناً تمتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — چنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التى احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب فى تاريخ الفكر الإنسانى .

ومعنى لفظ الدّو هو الطريقة : وهى أحياناً طريقة الطبيعة ، وأحياناً الطريقة الدّوية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفى لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو فى الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحى لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ فى الطبيعة . وليس العلم فى رأى صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شىء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفى ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقى الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم فى العمل بما فى الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجعلوهم سذجاً جهلاء ... والصعوبة التى يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يتسكل

بها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة[٤٠]

وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها[٤١] . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيما على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المخترعات التى لا تفيد إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتنمحى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

«إن كثرة النواهى والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد عدد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل ؛ وسأجعل الناس فيها ، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له ، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه) ؛ ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها ؛ ومع أن لهم ثياباً منتفخة وأسلحه حادة ، فإنهم لا يجدون مايدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية ، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة(*) .

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة ، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة ، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة ، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب ، فإنى لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم»[٤٢] .

تُرى ما هى هذه الطبيعة التى يرغب لَوْ — دزه ، فى أن يتخذها مرشداً له وهادياً ؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقاً محدداً واضح المعالم ، كما فعل روسو من بعده فى عباراته الطنانة الرنانة التى يطلق عليها الناس اسم « التفكير الحديث » ؛ فالطبيعة فى نظره هى النشاط التلقائى ، وانسياب الحوادث العادية المألوفة ، وهى النظام العظيم الذى تتبعه الفصول وتتبعه السماء ؛ وهى الدَّو أو الطريقة الممثلة المجسمة فى كل مجرى وكل صخرة وكل نجم ؛ وهى قانون الأشياء العادل الذى لا يحفل بالأشخاص ، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا فى حكمة وسلام . وقانون الأشياء هذا هو الدَّو أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدَّو أو طريقة الحياة . ويرى

(*) طريقة فى نقل الأفكار سابقة على الكتابة . ولفظ أجعل هنا بعيد بعض البعد عن الأسلوب الوذى .

لَوْ — دزه ، أن الدَّوين فى واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة فى تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الكون . وفى هذا الدَّو الكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التى يقول بها اسپنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيجل Hegel الشاملة »[٤٣]

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» ففقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب ، والموظفين المرتشين . والمصلحين المغترين . وسرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولعلنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شىء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة[٤٤] .

والجمود الذى هو نوع من التعطل الفلسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء الطبيعى هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يُفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما ينال بالعمل ، وفى هذا يحدثنا لو — ذره حديثاً لا يكاد يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الإساءة الإحسان . أنا خَيّر للأخيار ، وخَيّر أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . وألين الأشياء فى العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها ... وليس فى العالم شىء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شىء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية[٤٥](*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم . وقبل أن نرسم للقارئ هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

(*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأنثى تغلب الذكر على الدوام بسكونها »[٤٦] .

لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالى فى نظر الصينيين هو التقى العابد ، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ ، الذى يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً فى العالم . ذلك أن السكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدوّ والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذى يعرف (الطريقة) لا يتحدث عنها ؛ والذى يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذى (يعرفها) يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه »[٤٧]، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره[*] فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شىء نسبى ، وأن الحكمة شىء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفى ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سناه ولألائه ويوائم بين سناه وقتام (غيره)»[٤٩] ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التى هى غريزة طبيعية فى الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذى يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

« ليس لشىء عندى قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبى خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شىء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل ... ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو فى غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الأذى وبالنبل أو الانحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء »[٥٠] .

(*) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأنه يعيش فى هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة[٤٨] .

ولسنا نرى حاجة لبيان ما فى هذه الآراء من اتفاق مع آراء جان جاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُبَّا فى قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التى تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور فى فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس فى كل جيل يملّون ما فى حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك فى أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيِّع سهل على لسان كل باحث فى الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعقلة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلّ أن يكون وضيعاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق المؤلم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذى اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثلها فى هذا كمثل الصناعة سواء بسواء .

على أن فى هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ نيران عواطفنا فى الخمود نرى فيها غيرَ قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذى ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمناً ما فى عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شىء من البسالة أو من الحكمة ، مللنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مُثل عُليا تناقص عديدها . فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى

الغابات مع چان چاك ومع لو — دزه وأمثالها ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضاً واطمئناناً من مكيڤلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشرور ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدّو — دى — چنج .

وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محنق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لويانج حاضرة چو ليستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ(*) ويقال إن لو — دزه أجابه إجابة فظة غامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً ، ولم يبق إلا ألفاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبريائك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك »[٦١] .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشيوس أحسّ من فوره بسداد هذه النصيحة ، ولم ير فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر :

« إنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبَح السمك ، ويجرى الحيوان ؛

(*) ويروى زومان تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة . وإنا ليدهشنا حقاً أن نجد لو — دزة فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهام . غير أن هناك تنيناً مهولا — ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو فى أجواز الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين »[٦٣] . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً .

الفصل الثاني

كنفوشيوس

١ — الحكيم يبحث عن دولة

مولده وشبابه — زواجه وطلاق زوجته — تلاميذه وطرائقه — مظهره وأخلاقه — السيدة والنمر — تعريف الحكومة الصالحة — كنفوشيوس فى منصبه — سنو التحوال — سلوى الشيخوخة

ولد كونج — فو — دْزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيو يسمونه فى عام ٥٥١ ق . م فى مدينة تشو — فو إحدى البلاد التى كانت تكوّن وقتئذ مملكة لو ، والتى تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية ، وهى التى لا تضارعها أقاصيص أخرى فى خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعى[٦٣] ، وكيف كانت الهولات التى تحرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهى تلده فى أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم فى سعة البحر[٦٤]، وإنه ولد من أسرة هى أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دى ، وإن له أحفاداً كثيرين ، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور ، ولا تزال البلدة التى ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلا نسله — أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد ؛ ومن نسله وزير المالية فى الحكومة الصينية القائمة للآن فى نانكنج[٦٥](*) .

(*) وتنطق أيضاً « نانچنج . ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كونج فى السبعين من عمره حين ولد له ولده[٦٦] ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود فى طفولته تلك الرزانة التى هى من خصائص كبار السن ، والتى لازمته فى كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً[٦٧] . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نتشة فى أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثا : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم » (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »[٦٨] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلا قل أن يعبئوا به — وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »[٦٩] . « وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره . وإذا ماعرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى »(٧٠) ، ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه.وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن نصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »(٧١) .

ولم يكن له فى بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ماتواترت الإشاعات بأن وراء شفتى الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلا يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع فى آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة فى العالم .

وكان بعض الطلبة — وقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات سبعين طالبا — يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ فى بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِى بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم إلى العلم فأجابه : « لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يحب أن يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) ... لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له . . . وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له فى هذا الوقت (نظير) »(٧٢) . وكان الطلبة الكسالى يتحاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله : « ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شىء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء »(٧٣) .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداده وهو فى الطريق عن استعداده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلا ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يُشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يمترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات ... وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى مايسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه حكيما ناشئاً ؟ »(٧٤) .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه فى أثناء

تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة « ذى منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم ! عظيم ! »[٧٥].

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضـــع : « قد يوجد فى كَفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ، ولـكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلى »[٧٦]. وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولـكن (خُلق) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »[٧٧] « لو وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهراً بأعمال جليلة ، ولبلغت (الحـكومة) درجة الـكمال فى ثلاث سنين »[٧٨] . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »[٧٩] . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ »[٨٠] . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلّمه من الإمبراطورين العظيمين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولـكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« لست أبالى مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى؛ ولكننى أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفنى الناس »[٨١] .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً تبكى بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به نمر فى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى أبنائى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »[٨٢] .

وسئل كنفوشيوس بين يدى دوق تشى ، وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون

بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدًّا .:. ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا »[٨٤] . ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً فى الدولة .

وواتته الفرصة حين عيّن فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة فى أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شىء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد إلى صاحبه[٨٥] . ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاًّ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب »[٨٦]

إن فى هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرق من أن يعمر طويلا . وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : إن الولايات القريبة من « لو » دبّ فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبّر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشى بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالا .

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق ففغل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة) ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالا معيباً . وقال تزَه —لو لكنفوشيوس : « أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل » . واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره ، وغادر لو ، وبدأ عهدَ تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاما . وقال فيا بعد « إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر مايحب الجمال »(٨٧) . والحق أن من أغلاط الطبيعة التى لاتغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين .

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوبا عليهم فى وطنهم ، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم ، يلقون فى بعضها مجاملة وترحابا ، ويتعرضون فى بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى . وهاجمهم الرعاع مرتين ، وكادوا فى يوم من الأيام يموتون جوعاً ، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق « بالإنسان الراقى » . وعرض دوق وِى على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته ، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق(٨٨) .

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة فى يوم من الأيام تجوس خلال تشى إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة . وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تزَه — لو ، على سيره فى ركابه ، وقال له : « إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومنذا الذى يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال ؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذى يخرج من ولاية إلى ولاية ؟ »(٨٩) وفكر كنفوشيوس فى هذا اليوم طويلا ولكنه لم يفقد رجاءه فى أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم .

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفا إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. ولما سأل دوق شي تزه — لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: « لِمَ لم تجبه بأنه ليس إلا رجلا ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه »[٩٠] وكان يسلى نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: « لقد كنت في الخامسة عشرة من عمرى مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل »[٩١].

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغني في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق دكا،

وتتحطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ولما أقبل عليه تلميذه تزه — كونج قال له: « لن يقوم في البلاد ملك

ذكي أريب ؛ وليس في الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذني معلماً له . لقد تصرم أجلي وحان يومي »[٩٢] .

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . وواراه تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوي عليه قلوبهم من حب له وإجلال ، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكي الأبناء آباءهم . وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزه — كونج ، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً ، فبقي بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم[٩٣] .

٢ — الكتب الستة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف في الصين باسم « **الجنجات الخمسة** » أو « **كتب القانون الخمسة** » . وكان أول ما كتبه منها هو **اللي — جي** أو **سجل المراسم** ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة التي لا بد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعي والسلام .

ثم كتب بعدئذ ذيولا وتعليقات على كتاب **إلاي — جنج** أو **كتاب التغيرات** ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذي كان جد حريص على ألا يلج بابه في فلسفته . ثم اختار ورتب **الشي — جنج** أو **كتاب الأناشيد** ليشرح فيه كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك **التشو — شيو** أو **حوليات الربيع والخريف** ، وقد سجل فيه تسجيلا موجزاً خالياً من التنميق أهم ما وقع من الأحداث في « لو » موطنه الأصلي . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعاً أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات فجمع فى الشو—منج أى كتاب التاريخ أهم وأرق ما وجده فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التى تسمو بها الأخـلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الـكتب يرى أن وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلماً ومهذباً للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث المـاضى ما رآه ملهماً لتلاميذه لا مؤنساً لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخاً علميا نزيهاً لبلاد الصين فإنا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الـكريمة والإعجاب بالحـكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلا أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعله نحن(*) بماضينا الذى لا يعدل ماضى الصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أضحوا حكماء وقديسين ، ولما يمض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يُحَدّث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثلاً عليا للفضيلة والـكمال شأنهم فى هذا شأن يَوْ وشُون .

ويضيف الصينيون إلى هـذه المجلدات الخمسة أربع مخطوطات أو « كتب » (كتب الفلاسفة) يتكوّن منها كلها « التسعة الـكتب القديمة » . وأول هذه الـكتب وأهمها جميعاً كتاب لون يو أو الأحاديث والمحاورات المعروف عند

(*) يريد الأمريكيين (المترجم)

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه . وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريديه[٩٤] ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة[*] من الشو الثانى ، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم الداشوه أو التعليم الأكبر ويعزو جوشى الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى دزنج — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى كونج چى حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف[٩٥] . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب جونج يونج أو عقيدة الوسط وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه الشوءات هو كتاب منشيس الذى سنتحدث عنه توًّا . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آية فى الجمود والمحافظة على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

(*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . (المترجم)

٣ — لا أدرية كنفوشيوس

هتامة فى المنطق — الفلاسفة والصبيان — دستور الحكمة

فلنحاول أن نكون منصفين فى حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هى الفلسفة التى يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكى ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شىء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارئ أنه سيجد فى لا أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفيا — أى بناء منسقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتحيله أشبه بقصور نبوخذ ناصر (بختنصر) التى نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقى ، بل بتسليط عقله القوى تسليطا دائما على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئا عن المنطق ، ولكن كان فى وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التى يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة فى التفكير والتعبير ، وفى ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما »[٩٦] — وهو درس لا تذكره الفلسفة فى جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئا فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك فى حد ذاته معرفة »[٩٧] . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة فى التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذى ليس أميراً بحق والذى لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أبا ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير ويه فى انتظارك لكى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شىء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جواباً دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »(٩٨) .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة(٩٩) كان يرد على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية(١٠٠) ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين(١٠١) . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلا : « هل لدى الأموات علم بشىء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جوابا صريحا(١٠٢) . ولما سأله كىْ — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كىْ — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت »(١٠٣) . ولما سأله فارشي عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »(١٠٤) .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية »[١٠٥] وكان هذا التواضع الفلسفى يقلق بالهم ، وما من شك فى أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها . ويقص علينا صاحب كتاب — ليائزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو : « هل الشمس أقرب إلى الأرض فى الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو فى منتصف النهار حين تشتد حرارتها ؟ »[١٠٦] . وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية :

وقال مرة لأحد المقربين إليه : « أظنك يا تزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها فى ذاكرتهم ؟ » فأجابه تزه — كونج بقوله : « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً فى ظنى ! » فرد عليه الفيلسوف قائلا « لا ، إنى أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة »[١٠٧] وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة .

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاق قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى .

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة[١٠٨] .

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشيوس : « إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوِّموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقوّموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أى أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدّرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ؛ وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح .

ولتحافظ الدولة على الهدوء فى أرضها والعدالة فى جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك فى أن فى هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

٤ — طريقة الرجل الأعلى

سورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرُّقىّ الذاتى أساس الرُّقىّ الاجتماعى ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »[١٠٩] ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها ؛

وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شىء غير صحيح »(١١٠)

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحبا للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة »(١١١) . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى »(١١٢) « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل »(١١٣) « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامى إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه »(١١٤) .

« إن الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يذكر اسمه بعد موته »(١١٥) ؛ وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط فى أنه سيصيب هدفه ... والشىء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه »(١١٦) . وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط »(١١٧) فى كل شىء ؛ ذلك أن « الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التى تعرض له »[١١٨](*) « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقاً عاما ؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ »[١٢٠](**) وهو يستمسك أشد الاستمساك بالقاعدة الذهبية التى نص عليها هذا صراحة قبل هِلِل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة : « فقد سأل چونج — جونج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه :... الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك »[١٢٢] . وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائما يتكرر فى صيغة النفى ، وقد ذكر مرة فى كلمة واحدة . ذلك أن تِزه — چونج سأله مرة : أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته ؟ فأجابه المعلم : أليست هذه الكلمة هى المبادلة ؟ »[١٢٣] ، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لوَدْزَه وهو أن يقابل الشر بالخير ، فلما أن سأله أحد تلاميذه : « ما قولك فى المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان ؟ » أجاب بحدة لم يألفها تلاميذه منه : « وبأى شىء إذن تجزى الإحسان ؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة ، وليكن الإحسان جزاء الإحسان »[١٢٤] .

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التى تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هى العطف الفياض على الناس جميعاً . والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر فى أن يكون مثلهم ؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره »[١٢٤أ] . ذلك أنه قلما توجد أخطاء لا نشترك

(*) قارن هذا بما يقوله اسبنوزا : « إن عوامل خارجة عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة ، فنترنح ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب ، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا »[١١٩] .

(**) قارن هذا بقانون الأخلاق « القاطع الإلزامى » الذى يقول به كانت وهو « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التى تسير عليها فى أعمالك قانوناً عاماً شاملا »[١٢١] .

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالى أن يفترى عليه الناس أو يسلقوه بألسنة حداد [١٢٤ب] ، مجامل بشوش لجميع الناس ، ولـكنه لا يكيل المدح جزافا [١٢٥] ؛ لا يحقر من هم أقل منه ، ولا يسعى لـكسب رضاء من هم أعلى منه [١٢٦] ، وهو جاد فى سلوكه وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوقار فى تصرفاته معهم ؛ متريث فى أقواله ، حازم فى سلوكه ، يصدر فى أعماله عن قلبه ؛ غير متعجل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة السكاتة ؛ وهو جاد لأن لديه عملا يحرص على أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكتة [١٢٧] ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولـكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس جميعاً حتى مع ابنه [١٢٨] . ويجمع كنفوشيوس صفات رجله الأعلى الـكثير الشبه « برجل أرسطو ذى العقل الـكبير » فى هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها فى فكره . فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفى تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفى الأمور التى يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فـكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المـكاسب فـكر فى العدالة والاستقامة [١٢٩] .

٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب — الحكم بالقدوة — عدم تركز الثروة —
الموسيقى والأخلاق — الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء

الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى [١٣٠] .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شىء واحد وهو القانون الأخلاقى .

« فى وسع (الابن) وهو فى خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف ؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع (نصيحته) زاد احترامه لهما ، من غير أن يتخلى عن (قصده) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى فى مثل هذه الحال » [١٣١] . وفى هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التى تقرر حق الناس المقدس فى الثورة .

على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثورى النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه فى **كتاب الأغانى** : « قبل أن تفقد ملوك أسرة (شانج) (قلوب) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل ببيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائما الاحتفاظ به » [١٣٢] . والشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلا كان ذلك أو آجلا .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « (لا بد للحكومة) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربى ، ومن الثقة بحكامهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأى هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولا ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربى » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأجاب المعلم : « فلنتخلّ عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) فلا بقاء (للدولة) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدإ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كىْ كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلا : « ما قولك فى قتل مَن لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدى إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس أخياراً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهج فى حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبى الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كىْ كانج كيف يحمل الناس على أن يجلّوا (حاكمهم) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليرأسهم فى وقار — يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيما بهم يخلصوا له . وليقدّم الصالحين ويعلّم العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء »[١٣٤] .

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجّين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوجّ »[١٣٥] .

وتقول عقيدة الوسط : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه صالحة »[١٣٦].

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله فى جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة ؟[١٣٧] — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم ، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هـذه الغلات ، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة فى أوسع نطاق لأن « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته »[١٣٨] ، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن « التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات »[١٣٩]

ويشير كنفوشيوس بألا تدرس الموضوعات العليا لذوى المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين .

ومن أقواله فى هذا : « إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليما ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة ... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات ... أن توجه العناية إلى الموسيقى التى تعزف فى البلاد[*] ... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملهما الإنسان ... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام .

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها[**] . وآداب اللياقة هى التى تكون على الأقل

(*) قال دانيل أوكنل : « دعونى أكتب أغانى الأمة ، ولست أبالى بعد ذلك من يسن شرائعها » .

(**) قارن هذا بقول المرحوم شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا (المترجم)

المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا[١٤١] ، وهى تضفى على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك فى أن المرء ابن عادته . أما من الوجهة السياسية « فآداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس فى لمفاسد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدّمها حلّت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »[١٤٢] .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام فى جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أوضار الثورة وحقرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات[*] ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجيل — أمثال هـ . ج . ولز — من إنشاء حكومة عالمية (المترجم)

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع فى الأرض ، ولـكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولـكنهم لا يهدفون فى عملهم إلى منفعتهم الشخصيه .

وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذى أسميه التماثل الأعظم[١٤٣](*) .

٣ — أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية

العلماء الكنفوشيون — انتصارهم على القانونيين — عيوب الفلسفة الكنفوشية — جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولـكنه كان نجاحاً كاملا . لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الـكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها منشيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من

(*) ترى هل فيما وضعه الفلاسفة المحدثون مثل عليا للحكومات أرقى من هذا المثل (المترجم)

الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط رومة .

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسية ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هى فى بعض الأحيان .

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذى يضرب به الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرّض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام ، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوّقون فى ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رءوس الأموال ملكا عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هى التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد[١٤٤] .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كُتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد شي هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة في برامج تعليم الشبان الصينيين وفي الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمي . وناهض الكنفوشية في بعض الأحيان نفوذُ الدّوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكانتها السابقة وأعلت من شأنها .

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس في كل مدينة وقرية في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرِّب له فيها القوابين العلماء والموظفون . وفي عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت في اليابان نهضة فلسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدإ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفي عام — تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها في قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين ، وسرت فى دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً فى التفكير لا نظير لهما فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هى الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها . ولسنا نجد فى غير المسيحية والبوذية(*) ما نجده فى الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة .

ولسنا نجد فى هذه الأيام — كما لم يجد الأقدمون فى الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الأمرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التى تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقى وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية(**) .

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملا للروح . لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة . ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذى ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور .

(*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام ، وقد كان له من الأثر فى طباع العرب أعظم مما كان للكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر فى الأمم التى انتشرت بينها .
(المترجم)

(**) أو مبادئ الإسلام . (المترجم)

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشري، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن[١٤٥]، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقي إلا حبها للسلام.

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس، وأن نوجه إليه اللوم من أجله، إذ ليس في مقدور إنسان أياً كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضيء لنا بطريقة ما، وبفضل تفكيره طوال حياته، سبيل الفهم الصحيح. وقل أن نجد في العالم من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس. وإذا ما قرأنا تعاليمه، وتبينا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف في العالم وتبدل أحواله، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية في عالمنا الحاضر نفسه، إذا ما فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى، واشتركنا مع كونج چي حفيده الصالح التقي في هذا التسبيح الأعلى الذي كان بداية تأليه كنفوشيوس.

لقد نقل چونج — في عقائد يُووشون كأنهما كانا من آبائه، ونشر نظم وَن و وُو واتخذهما مثلين يحتذيهما وينسج على منوالهما. وكان في صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء. ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء. وهو يشبه السماء والأرض في أنه كان عماداً لكل شيء وعائلاً لكل شيء، يحجب نوره كل شيء، وتغطي ظلاله كل شيء. وهو أشبه بالفصول الأربعة في تتابعها وانتظام سيرها، وأشبه بالشمس والقمر في تتابع ضيائهما ...

فهو في شموله واتساع آفاقه كالسماء ، وفي عمق تفكيره ونشاطه كالهوة السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته في « المملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الهمجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفي كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلته السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، وفي كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت في صدره أنفاسها ، حبا صادقا لا تكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو والسماء صنوان »(١٤٦) .

الفصل الثالث

اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التي أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هوِ ادزه ؛ وچونج سون لوبانج يتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التي لا تقل في تباينها ودقتها عن قضايا زينون[١٤٧] . واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد في مدينة لوبانج ، كما كانوا يحتشدون في نفس هذا القرن في مدينتي بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون في عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التي جعلت أثينة وقتئذ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أي « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أي إنسان بأي شيء أرادوا إقناعه به[١٤٨] . فجاء إلى لوبانج منشيس الذي خلف كنفوشيوس في منصبه ، كما جاء إليها چونج — دزه أعظم أتباع لو — دزه ، وشِون — دزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، وموتى نبي الحب العالمي .

١ — مودى العيرى

منطيق قديم — مسيحي — وداعية سلام

قال منشيس عدو مودى « لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان في هذا خير لبني الإنسان[١٤٩] ؛ وقد نشأ مودى في بلدة لو التي نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيالى غير عملى ، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً . وكان من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر المجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلماما عاما ؟ افحص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما(١٥٠) .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير المجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مربح فى كلتا الحالين : فإذا كان آباؤنا الذين نقرب لهم القرابين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرابين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتاً لا حياة لهم ولا يشعرون بما نقرب إليهم فإن القرابين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما نقدمه للموتى من طعام وشراب(١٥١) .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يحب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم ، ولا يسفه عظماؤهم صغارهم ، ولا يخدع الماكرون منهم السذج »(١٥٢) . والأنانية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل فى التملك أو رغبة الإمبراطوريات فى الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويعاقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويغتصبها من أهلها ، فإنه يعد فى أعين أمته بطلا من الأبطال ومثلا أعلى للأجيال المقبلة[١٥٣] . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزعجت هذه العقيدة ولاة الأمور فى عصره[١٥٤] . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة فى مملكة چو همَّ بغزو دولة سونج ليجرب فى هذا الغزو سُلَّماً جديداً من سلالم الحصار اخترعه فى ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالميين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتزماً فتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن لقيتك لا أحب أن تكون لى ولو سلمت إلىَّ من غير مقاومة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحملنى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »[١٥٥] .

وكان العلماء من أتباع كنفوشيوس والساسة أتباع لوينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنان من مريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونج بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا فى سبيل هذه الدعوة حق الجهاد[١٥٧] . وعارض هان — أعظم النقاد فى عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة فى وسعنا أن نسميها نظرة نِتشية ، وكانت حجته فى معارضته أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » ألقيت

فى النار جميـع الآداب المودية كما ألقيت فيها جميـع الـكتب الـكنفوشية ؛ وقضى هذا الحريق على الدين الجديد وإن لم يقض على عقيـدة المعلم الأكبر وكتاباته .

٢ — يانج — جو ، أنانى

جيرى أبيقورى — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج — چو لا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانتوه[١٥٩] ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ، وهى أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينـكر وجود الله ، كما ينـكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا دمى لا حول لها ولا طول ، تحركها القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ، والتى وهبتها أسـلافها دون أن يكون لها فى ذلك خيار ، ورسمت لهـا أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها أو أن تبدلها غيرَها[١٦٠] .

فأما الحـكيم العاقل فيرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يتذمر ، ولـكنه لا يغتر بشىء من سخافات كنفوشيوس ومودى ، وما يقولانه عن الفضـيلة الفطرية والحب العالمى ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شراك ينصبه المـاكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالمى وهمٌ يتوهمه الأطفال الذين لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التى هى سنّة الحياة ، وأن حسن الأحدوثة ألعوبة لا يستطيع الحمقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار يقاسون فى الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً بالحياة من الأخيار[١٦١] ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق والحاكمين كما يقول كنفوشيوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

ان استبقوا المشترعين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم إن الأشرار قد يخلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يقلق عظامهم . ثم يدعونا يانج — چو إلى أن نفكر فى مصير الأخيار والأشرار ، فيقول(*) : إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وچو — جونج ، وكنفوشيوس كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن چياه ، وچو ، شرهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض فى جنوب نهر هو ، وإلى صنع آنية الفخار بجوار بحيرة لاى ، ولم يكن فى وسعه أن يستريح من عناء العمل لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهى والملابس المدفئة ، ولم يكن فى قلب أبويه شىء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ، كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بدًّا من أن ينزل عن الملك إلى يو . ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها بائساً منغصا ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده فى فلح الأرض ، وولد له طفل ولكنه لم يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضمر وغلظ جلد يديه وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش عاش فى بيت وطىء حقير ، وإن كان يلبس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات ميتة محزنة ، ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش معيشة نكدة حزينة كما عاش يو(*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

(*) فى وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا الكتاب وعن چياه وو (سن) بالاطلاع على صفحتى ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أمراء عصره . ثم قطعت الشجرة التى يستظل بها فى سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من ويه ، وحل به الضنك فى شانج وچو ، وحوصر فى شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانه ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بنى الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاخبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوما واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوعاً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هى الشىء الذى لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هى لجذع شجرة أو مَدَرة .

أما (چياه) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مدى قرون طويلة ؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفى لأن يزعزع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب الملذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث چو (شِنْ) ثروة طائلة تجمعت فى مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه فى قصوره فعل كل ما يشتهيه ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير فى آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبه كأبهج ما يقضى الناس نحبهم . ولم يكن فى الآدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة چو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان فى حياتهما بما شاءا من الملذات وأطلقا لشهواتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حمقاً

واستبداداً ، ولكنهما استمتعا باللذة وهى حقيقة لا تستطيع أن تهبها حسن الأحدوثة . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أثنوا عليهم ظلوا بهذا الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تهمهم أكثر مما تهم جذع شجرة أو مدرة[١٦٢] » .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً نظن أن الزمان وهو رجعى كالرجعيين من الآدميين قد أبقى لنا آراء أجل المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقين كلهم تقريباً فطواهم فى غمرة الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق فى فعلهِ هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها ما كانت لتعمر طويلا لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو . وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون الفرد مع زملائه أخذاً وعطاء ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذاهم ، ويتقيد بما فى المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد فى غير مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من يرى فى انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التى أدت إلى ما أصاب المجتمع الصينى من انحلال فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[١٦٣] . فلا عجب والحالة هذه أن يرفع منشيس، چنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج الشديد وبالتشهير بأبيقورية ينج چو وبمثالية مودى فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودي تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذاك . فأما المبدأ الذى يدعو إليه ينج فهو هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب المَلك . أما مبدأ مو فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو فى منزلة الحيوان الأعجم . فإذا لم يوضع لمبادئهما حد ، وإذا لم تَسُدْ مبادئ

كنفوشيوس ، فإنهما سيخدعان الناس بحديثهما المقلوب ، ويسدان فى وجوههم طريق الخير والصلاح .

« ولقد أزعجتنى تلك الأشياء وأرمضت قلبى ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكماء والأقدمين ، وأعارض ينج ومو ، وأطارد أقوالهما المنحطة ، حتى يتوارى هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجرءوا على الظهور . ولن يغير الحكماء من أقوالى هذه إذا ما عادوا إلى الظهور »(١٦٤) .

٣ — منشيس ، مستشار الأمراء

أم نموذجية — فيلسوف بين الملوك — هل الناس أخيار بالسليقة — الضريبة الفردية — منشيس والشيوعيون — باعث الكسب — حق الناس فى أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه فى بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطورى بتغييره إلى مانج — دزة أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج — فو — دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد علمنا بأم منشيس يبلغ من الدقة علمنا به هو نفسه ، ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأمهات بما قصوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبى يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته فى المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته فى المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار ؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط النُول ، فإذا سألها عن سبب هذا الإتلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبي طالباً مجدًّا ؛ ثم تزوج وقاوم في نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم في الآفاق ؛ وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم . ولم يشأ في أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أقنعته بالذهاب بخطبة حببتها إلى جميع رجال الصين ، ولعل واحداً منهم هو الذي وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل في أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أبويها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا ترملت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأما الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه عليّ القانون الذي أأتمر بأمره . فلِمَ إذن تشغل نفسك بي ؟ »[١٦٥] .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن اللهفة على التعليم جزء من اللهفة على الحكم ، ترتبط كلتاهما أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كفلتير يفضل الملكية المطلقة على الدمقراطية ، وحجته في هذا أن الدمقراطية تتطلب تعليم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكي المطلق فكل ما يطلب فيه أن يثقّف الفيلسوف رجلا واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكي ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله فى هذا المعنى : « أصلح ما فى عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قوّمت الأمير استقرت شئون الدولة »(١٦٦) . وسافر أولا إلى تشى وحاول أن يقوّم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب فخرى ، ولكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفاسفة ، فغادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد فى حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشى ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه فى هذه السنين الرغدة دفنها باحتفال عظيم وُجِّه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولكنه برر لهم هذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه لوالدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورَّط شوان فى حرب للفتح والتملك ، وساءه ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت فى غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أمير سونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصح . فقد قال واحد منهم : « إن لدىّ ناحية من نواحى الضعف ، وهى أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحى الضعف وهى أنى أحب الثروة »(١٦٧) .

واضطر منشيس آخر الأمر إلى أن يعتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضعفه فى تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه . وليس فى وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سفدج لاندر Walter Savage Lander(*) ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

(*) أديب إنجليزى عاش بين سنتى (١٧٧٥ — ١٨٦٤) .   (المترجم)

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا فى وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم[١٦٨] . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب منشيس من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلّها قدراً .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ فى هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شىء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو — دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذى يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم[١٦٩] ، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات ؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكا ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله فى هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالتكم أن تنشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث فى جميع موظفى مملكتكم الرغبة فى أن يكونوا فى بلاط جلالتكم ، وفى جميع الزراع الرغبة فى أن يفلحوا أرض جلالتكم ، وفى جميع التجار الرغبة فى أن يخزنو بضائعهم فى أسواق جلالتكم ، وفى جميع الرحّالة الأغراب الرغبة فى أن يسافروا فى طرق جلالتكم ، وفى جميع من يشعرون فى أنحاء مملكتكم بأن ظلماً قد وقع عليهم من حكامهم الرغبة فى أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتكم . وإذا ما اعتزموا أن يفعلوا هذا فمنذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيلهم ؟ » .

فقال الملك : « إننى غبى وليس فى وسعى أن أرقى إلى هذا الحد »[١٧٠] .

والحاكم الصالح فى رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

العمل شَرَكَ دنىء ينصب للإيقاع بالناس[١٧١] . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغى لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية[١٧٢] . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت[١٧٣] ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجمركية وأن تجعل التعليم عاماً وإجبارياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضاره وتقدمها ؛ « والقوانين الطيبة لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »[١٧٤] . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعجم بالشىء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عظماء الرجال »[١٧٥] .

وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستنير ، رموقفنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لمحافظته واستمساكه بالقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الهمجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصعاليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين »، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضووا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون[١٧٦] » . ولكنه ندد أيضاً بالفكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كانج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مربح . وفى هذا يقول:

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمروا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف (القتال) ، وسيجدون أعظم السرور فى (السعى وراء الكسب) . فنرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذى حبب إليهم ، والأبناء يخدمون آباءهم ، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم ، لهذا السبب عينه ، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء ، والأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ينسون كلهم بواعث الخير والصلاح ، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب المحبب إليهم العزيز عليهم . ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب »[١٧٧] .

وكان يعترف بحق الشعوب فى الثورة وينادى بهذا المبدأ فى حضرة الملوك . وكان يندد بالحرب ويراها جريمة ، ولشد ما صدم عقائد الأبطال فى أيامه حين كتب يقول : « من الناس من يقول إنى بارع فى تنظيم الجند ، وإنى ماهر فى إدارة المعارك . وأولئك هم كبار المجرمين »[١٧٨] .

وقال فى موضع آخر : « ليس ثمة حرب عادلة »[١٧٩] . وكان يندد بترف حاشية الملوك ، ويوجه أشد اللوم للملك الذى يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً[١٨٠] . ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع المجاعة أجابه منشيس بأنه ينبغى له أن يعتزل الملك[١٨١] . وكان يقول لتلاميذه : « إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة) ؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأناً »[١٨٢] . وإن من حق الناس أن يخلعوا حكامهم ، بل إن من حقهم أن يقتلوهم فى بعض الأحايين .

« وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس : « إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه ، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة ، وجب عليهم أن يخلعوه ... » .

ثم واصل منشيس حديثه قائلا : « إذا فرض أن القاضى الأكبر الذى يحكم فى الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاضعين له) فماذا تفعل به ؟ » .

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن في داخل حدود (مملكتك) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمنة ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفى چياه وضرب لملك « وُ» حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات »

وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل مليكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذى يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصا ؛ والذى يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والوغد فى عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشخص چو، ولكنى لم أسمع بقتل ملك »[١٨٣].

تلك عقيدة ما أجرأها ، ولقد كانت عاملا كبيراً فى تقرير المبدإ الذى يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذى يستثير عداوة الشعب يفقِد « حقه الإلهى » فى الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذى دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحى اسم منشيس من مكانه فى هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له فى هذا المعبد بأمر ملكى فى عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلا من أبطال الصين وثانى اثنين ذاع صيتهما فى جميع عهود تاريخها ، وكان لها أعظم الأثر فى فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشى(*) يرجع الفضل فى احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية فى الصين أكثر من ألفى عام .

(*) انظر بحث الفلسفة فى الفصل الأول من الباب الخامس عشر .

٤ — شون — دزه ، واقعى

النفس البشرية أمارة بالسوء — ضرورة القوانين

كان فى فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم مايستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا ينحدرون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التى يعيشون فى كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هى السبب فى شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائما آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد الفضائل ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدى إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين العموميين ، ويلوح أنه توفى فى عام ٢٣٥ ق . م وهو فى سن السبعين . ذلك هو شون — دزه الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانا متوحشين حين ولدا[١٨٤] . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أمارة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع[*] . فهى قد غرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ » اذ كانت أعمال الإنسان

(*) أى أن ما فى الإنسان من خير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظم التى يعيش فى كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدى إلى انتشار المنازعات والسرقات. وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من (طبيعة) الإنسان، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاء.

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين، وهذا يؤدى إلى حب الأصوات العذبة والمناظر الجميلة. ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام، وأن تنعدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرها المختلفة المنسقة. ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها، يؤديان حتماً إلى الخصام واللصوصية، وإلى مخالفة الواجبات التى تتفق مع الوضع الذى وجد فيه كل إنسان، وإلى الخلط بين كل المراتب والمميزات حتى تعم الهمجية. ولهذا كان لا بد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التى ينشأ عنها إنكار الذات، والخضوع للغير، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة، مما يؤدى إلى قيام الدولة، ذات الحكومة الصالحة .. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ماطبعت عليه النفس البشرية من شر، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا طبائع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم .. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذى يتفق مع العقل»(١٨٥).

ووصل شون — دزه فى بحوثه إلى ماوصل إليه ترجنيف وهو أن الطبيعة ليست معبداً يضم الصالحين، بل هى مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح؛ وهى تقدم المادة الغفل، التى يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها. وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم، إذا دربوا على الخير، قد يصلحون، بل إن فى وسعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين(١٨٦)

ولما كان شون — دزه شاعراً وحكيماً معاً فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن في هذا الشعر الركيك :

إنكم تمجدون الطبيعة وتتفكرون فيها ،
فلِمَ لا تسخرونها وتنظمونها ؟
إنكم تطيعون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،
فلِمَ لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،
فلِمَ لا تستجيبون إليها ببذل النشاط في أوانه ؟
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،
فلِمَ لا تكشفون عن كفاياتكم ؟
وتوجهونها الوجهة الصالحة ؟[١٨٧] .

٥ — جونج — دزه ، مثالى

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكومى — طريقة الطبيعة — حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكِل الأزرار — أثر الفلسفة الصينية فى أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛ بل قام فى ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه فى كل العصور . ومن المصادفات التى يمكننا أن نسميها مصادفات طبيعية أن كان الداعى إلى هذا الرجوع أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان جُوَنج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى أنها سيدته التى تتحفى به على الدوام مهما كان بغيه أو كانت سنه ، ومن أجل هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية مضافاً إليها مُلَحُ فلتير الهجائية . ومنذا الذى يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جدرة(*) كإبريق من الفخار »(١٨٨) ، وقصارى القول أن چوَنج أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف فى ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً فى مدينة خيُيآن . وزار قصور الملوك التى زارها منشيس ، ولكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقى لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يحب صاحبه كما يحب المعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رياسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يتراءى للكاتب من أحلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنسنى بوجودك ، لخير لى أن أسلى نفسى وأمتعها فى حفرة قذرة من أن أخضع للقواعد فى بلاط ملك من الملوك »(١٨٩) .

وبينا كان يصطاد السمك فى يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحملك عبء جميع ملكى » ، فأجابه چوَنج ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن فى خو صدفة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدفة فى معبد أسلافه ، وأنه يضعها فى سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدفتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها فى الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجر ذيلها من خلفها فى الوحل » ؛ فقال لهما چونج : « اذهبا فى سبيلكما ، وسأظل أجر ذيلى ورائى فى الوحل »(١٩٠) .

(*) الجدرة تضخم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التى أقرها مجمع اللغة العربية . (المترجم)

وكان احترامه للحكومات يعدل احترام سلفه الروحى يو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد مايتصف به الملوك والحكام من صفات اللصوص[١٩١] .
ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يرى نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها هى ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون مايشاءون من نظم حكمهم الذاتى . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل فى أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم »[١٩٢] ولم يكن ثمة حكومات فى العصر الذهبى الذى سبق عهد أقدم الملوك .

ولم يكن يو وشون خليقين بما حبتهما الصين وحباهما كنفوشيوس من تشريف وتعظيم ، بل كانا خليقين بأن يتهما بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم فى العالم : « لقد كان الناس فى عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفترقون عنهما فى شىء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأنى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظماء فيهم من غير العظماء ؟ »[١٩٣] .

ويرى چونج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد اولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد مايستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون فى الغابات (وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين فى رسمه) وأن يترك كيانه كله يتبع الدّو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذى لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لايتكلم إلا قليلا لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته فى أفكار ، بل كل ما فى الأمر أنه يمكن الشعور به فى الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التى كان يجرى عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدى إلى التعقيد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس فى مقدور أى إنسان

أن يعيش بين الآلات ويستمتع بالسلام[١٩٤] . وهو يأبى أن يكون له مِلك خاص ولا يجد للذهب نفعاً له فى حياته ؛ ويفعل ما فعله تَيْمُن[*] الأثينى فيترك الذهب مخبوءاً فى جوف التلال واللآلئ فى أعماق البحار . والذى يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة ، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة »[١٩٥][**] ، — على أنهما نغمتان من أنغام الطبيعة المتناسقة ، أو موجتان فى بحر واحد .

وكان الأساس الذى يقوم عليه تفكير چونج عين الأساس الذى يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطورى . وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لچونج أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس ، وكان فى جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شبهاً عجيباً بنظرة بوذا وأتباع أپانيشاد ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسبما يسجله المؤرخون . نعم إن چونج فيلسوف لا أدرى ، جبرى ، من القائلين بالحتمية ومن المتشائمين ، ولكن هذا لا يمنعه أن يكون قديساً متشككا ، ورجلا أسكرته الدَّرِّية ؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله فى القصة الآتية :

قال شبه الظل يوماً ما للظل[+] « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت فى مكانك ، تارة تجلس وتارة تقوم ، فلم هذا التذبذب فى القصد وعدم الاستقرار فيه ؟ » فأجابه الظل بقوله : « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذى يجعلنى أفعل ما أفعله ،

(*) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير فى إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم . اقرأ وصف هذه الشخصية فى كتابنا « قصص من شيكسبير » . (المترجم)

(**) ما أشبه هذا بقول حكيم المعرة :

وشبيه صوت النعى [illegible] س بصوت البشير فى كل ناد (المترجم)

(+) شبه الظل فى الخسوف هو الجزء النصف المضاء بين الظل وبين الضوء . ولعل چونج يقصد بالظل فى قصته جسم الإنسان الذى يستنطقه العقل المستنير بعض الاستنارة . (المترجم)

ولـكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذاك ؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى العقل معه ؛ ألا ينبغى لنا أن نقول إن هذه حال يرثى لهـا كثيراً ؟ ... إن ما يحدث فى الأشياء كلها من تغيير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع) ؛ ولـكننا لا نعرف منذا الذى يُسيِّر هذه الحركة فى طريقها على الدوام : وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا ؟ وأنى لنـا أن نعرف متى ينتهى ؟ إن كل ما فى وسعنا أن ننتظر هذه البداية والنهاية ، لا أكثر من هذا ولا أقل »[١٩٦] .

ويظن جونج أن هذه المشاكل إنمـا تنشأ من قصور تفـكيرنا أكثر ممـا تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها . فلا عجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تـكون هى جزيئات صغيرة منه ، لا عجب أن تنتهى هذه الجهود بالمتناقضات والقوانين المتعارضة . ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الـكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التطاول والاعتداد بالنفس ، لا نجيزها إلا لمـا فيها من تسلية وفكاهة ؛ لأن الفكاهة ، كالفلسفة ، هى النظر إلى الـكل بمصطلحات الجزء ، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر .

ويقول جونج — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء الغائية أو أى شيء عميق كنمو الطفل مثلا . « وليس الجدل إلا دليلا على عدم وضوح الرؤيا » ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدّو « فعليه أن يكبت علمه أشد الـكبت »[١٩٧] إن من واجبنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق ؛ وليس التعليم بنافع لنا فى هذا الفهم ، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة .

وما هو الدو الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود ؟ إنه شيء لا يمكن التعبير عنـه بالألفاظ ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملأى

بالمتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها المادى من نشأتها إلى كمالها ، والقانون الذى يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً منذ الأزل قبل أن توجد السماء والأرض »[١٩٨]

وفى هذه الوحدة العالمية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا فى نظرته إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح[*] ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أن العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل فى الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء »[٢٠٠] . وفى هذا الكل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة فذة لا تنتقل إلى صورة أخرى فى دورة التطور التى تسير على مهل :

« إن بذور (الأشياء) دقيقة ولا حصر لها . وهى تتكون على سطح الماء نسيجاً غشائيا . فإذا وصلت إلى حيث تلتقى الأرض والمياه اجتمعت وكونت (الحزاز الذى يكون) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هى الطلع ؛ فإذا غذاها السماد أضحت نبات عش الغراب . ومن جذور عش الغراب ينشأ الدود ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة البرقة ، وبعد ألف عام تصبح البرقة طائراً . . . ثم تتحد الينجشى مع خيزرانة فينشأ من اتحادها الخنج — تنج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة (التطور) العظيمة ، التى تخرج منها جميع الأشياء ، والتى تدخل فيها بعد موتها »[٢٠١] .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما فى نظرية دارون

(*) « كانت شى — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انعكست ملامحها فى الماء فرت منها الأسماك خائفة »[١٩٩] .

ولـكنها أيًا ما كان غموضها نظرية تطور .

« وفى هذه الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور آخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون فى سجل الخلود حقيقة إلا فى ظاهر أمرها — أو جزءا من الفوارق الخداعة التى تُغَشِّى بها مايا جميع الـكائنات[٢٠١] .

« رأيت أنا چوانج — دزه مرة فى منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها فى هذا المكان وذاك ، أنى فراشة حقًا من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئًا أكثر من تتبعى لخيالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها قط . ثم استيقظت على حين غفلة وها أنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت فى ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل[٢٠٢] » .

وليس الموت فى رأيه إلا تغيراً فى الصورة ، وقد يكون تغيراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إبسن Ibsen فيما بعد الصائغ الذى يصهرنا مرة أخرى فى أتون التغير والتطور :

« مرض تزه — لاى حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسه ، ووقف من حوله زوجه وأبناؤه يبكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلقوه فى حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاى : « إن صلة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتعجلان موتى وأعصى أنا أمرهما ، فإنى أعد حينئذ عاقًا شرسًا . هنالك « كتلة (الطبيعة) العظمى » التى تجعلنى أحمل هذا الجسم ، وأكافح فى هذه الحياة ، وتهد قواى فى سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بمولدى هو الذى يعنى بوفاتى . فها هو ذا صاهر يصهر المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه يناديه : « يجب أن أكون مويه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يعد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه فى يوم من الأيام قد تشكل فى صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من بيده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لا نكون فى مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا »[٢٠٣] .

ولما تصرم أجل چوانج نفسه أعد أتباعه له جنازة فخمة ، ولكنه نهاهم عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب لجنازتى معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتى وغطائى ، والشمس والقمر والنجوم شعائرى ، والخلائق كلها تشيعنى إلى قبرى ؟ » ولما عارض أتباعه فى هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم چوانج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للحدأ ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير الطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ »[٢٠٤]

وإذا كنا قد أطنبنا فى الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب فى هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرها تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أثمن تراث خلفته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن ليبنتز Leibntiz صاحب العقل العالمى الواسع ، قام من زمن بعيد (فى عام ١٦٩٧) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادى بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب كلتيهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بألفاظ ستظل محتفظة بقيمتها فى كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى فى الأرض من فساد طويل

العهد تكاد كلها تحملني على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها ... ذلك بأني أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضيا ... ليحكم أى الشعوب أفضل أخلاقا من سواها ، لما تردد فى الحكم للصين بالأسبقية فى هذا المضمار »[٢٠٥] . وقد طلب ليبنتز إلى بطرس الأكبر أن ينشئ طريقاً برياً للصين ، ودعا إلى إنشاء جمعيات فى مسكو وبرلين « لارتياد الصين وتبادل المدنيتين الصينية والأوربية »[٢٠٦] . وفى عام ١٧٢١ بذل كرستيان ولف Christian Wolff[*] مجهوداً آخر فى هذه السبيل ، وذلك بما ألقاه من محاضرات فى جامعة هال Halle « عن فلسفة الصينيين العلمية » ، واتهمه ولاة الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه ؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره[٢٠٧] .

وجاء عصر الاستنارة فى فرنسا فعنى بالفلسفة الصينية ، كما عنى بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية ، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية . ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه ، وچونج — دزه فى نظرية « التخلى » Laissez faire وترك الأمور تجرى فى مجراها ، وهى النظريه الاقتصادية التى يقولون بها ويدعون إليها[٢٠٨] . ولقد كان روسو يتحدث فى بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم[**] وإنا لنتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وچونج ، ولو أن كنفوشيوس

(*) فيلسوف وعالم رياضى ألمانى (١٦٧٩ — ١٧٥٤) .

(**) مثال ذلك . « أن الترف والفجور والاسترقاق كانت على الدوام سوط العذاب الذى يصب على الجهود الطموحة التى بذلناها لنخرج من الجهل السعيد الذى وضعتنا فيه الحكمة الأزلية » . ويرى الأستاذ إلبرت تومس Elbert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الآن) الذى نقل هذه العبارة من كتاب « أحاديث عن تقدم العلوم والفنون » (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ « الحكمة الأزلية » خير ترجمة « للدوية الأزلية » التى وردت على لسان لو — دزه[٢٠٩] .

ومنشيس قد وهبا ملكة الفكاهة لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين ڤلتير . وفى هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى المبادئ الخلقية التى لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »[٢١٠] . وقد كتب جيته فى عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم فى ليبزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكا فى دراسة الآداب الصينية[٢١١] .

ولعل هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفلتير وتولستوى .

الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة – انتحار تشوينج – شى هونج – دى يوحد الصين – السور الكبير – «إحراق الكتب» – إخفاق شى هونج – دى

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات بائساً ، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد ، ولأن الأمة التى حاول أن يوحّدها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادرة فى الفوضى والفساد والانقسام . ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم فى آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس .

وفى وسعنا أن نحكم على الجو الذى كان يسود « عهد الدول المتنازعة » من قصة تشوينج ، وهو رجل بدأ نجمه يلمع فى سماء الشعر ، حتى سما إلى مركز عظيم فى وظائف الدولة ، ثم ألفى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة ، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف ، وأخذ يفكر فى الحياةِ والموت إلى جانب غدير هادئ ، وسأل متنبئاً من المتنبئين :

« هل ينبغى لى أن أواصل السير فى طريق الحق والوفاء ، أو أسير فى ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل فى الحقول بالفأس والمجرف أو أسعى للرقى فى حاشية عظيم من العظماء ؟ هل أعرض نفسى للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والعظماء ؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كى أنال النجاح ؟ هل أكون نقى السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيماً ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهازاً للفرص ؟ »[1].

وتخلّص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه فى كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى فى يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذى ظلوا يبحثون فيه عن جثته فى كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذى وحّد الصين من أصل وضيع هو أدنأ الأصول التى استطاع المؤرخون الصينيون أن يخترعوها . فهم يقولون لنا إن شى هونج — دى كان ابناً غير شرعى لملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذى اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلة واحدة من كتاباته[2] (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبى الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شى اضطر والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسى الإمارة وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التى كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان فى عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى چو فى عام ٢٢٨ وعلى ويه فى عام ٢٢٥ ، وعلى تشو فى عام ٢٢٣ ، وعلى ين فى عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشى المهمة فى عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة فى التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شى هونج — دى ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذى يعدّه المؤرخون الصينيون عدوّهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين ، ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ، له قلب كقلب النمر أو الذئب »[٣] . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نتشة وبسمرك ، وعقد العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على عرشها كان أول عمل قام به أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التى كانت مقامة من قبل عند حدودها ، ووصلها كلها ببعضها ببعض . وقد وجد فى أعدائه المقيمين فى داخل البلاد مورداً سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذى يعد رمزاً لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ، وتتخلله فى عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء أقامه الإنسان فى جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه فلتير : « إن أهرام مصر إذا قيست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها »[٤] . وقد احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون إنه « أهلك جيلا من الناس ، وأنقذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد الهمج عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقلل من حدته . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا غرباً إلى أوربا ، ثم اجتاحوا بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة فى أيديهم لأن الصين أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شى هونج — دى ، وهو مغتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجه عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة التى قامت عليها الدولة الصينية فى المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشترع الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعتزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أمراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعيّنهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسّط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجَزّأ معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجمّل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب[٥] .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقدة ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليا سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريتهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو. فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم[٦] . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلا »[٧] . فرد عليهم

لى سيو رئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لاترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قمتم جلالتكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحاديثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الحبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى .

« ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا « مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء الشى — جنج ، والشو — جنج[*] ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاة الأمور لإحراقها[8] » .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجيء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع[9] . وإذ كانت

(**) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

الـكتب فى تلك الأيام تـكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الـكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الـكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا[١٠] . ولـكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الـكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإن كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالا طوالا يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره[١١] .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الـكتابة والخطابة أن أمسى شىَ فى شيوختة لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مرار أن يغتالوه ، ولـكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الـكثيرة ينام ليله[١٣] . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولـكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً مسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتمم لعشرة آلاف من نسله ، ولـكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبغضونه فإنه صار فى شيخوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك النتن حتى تختفي بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات قد دفن معه ليؤنسنه فى قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال على قبره ، وأنفق الكثير منها فى تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ، وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ، وأقيمت فى القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ، وأشعلت فيه شموع ضخمة لكى تضىء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته إلى أمد غير محدود . أما العمال الذى حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن[١٤]

الفصل الثاني

تجارب فى الأشتراكية

الفوضى والفقر – أسرة هان – إصلاحات وودى – ضريبة الدخل – مشروعات وانج مانج الاقتصادية – القضاء عليها – غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً فى أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس فى وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها فى يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادية وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكرى مغامر مرتزق يدعى جو — دزو ، وأسس أسرة هان التى ظلت تحكم البلاد أربعمائة عام كاملة ، تخللتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة[*] . وأعاد ون — دى (١٧٩ — ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى المرسوم الذى حرم به شى هونج — دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع العادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه[١٥] .

وكان وو — دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ — ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهى مدينة هونان فو الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجان وهى مدينة سيان فو الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، والهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة فى التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التى تعوّدنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب فى الاشتراكية ، فجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك ليمنع الأفراد «أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ، ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »[١٦] . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوماتشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئه ، ويعقدون القروض ، والذين يشترون ليكدسوا مايشترونه فى المدن ، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائى . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها فى جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهلين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها فى الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يمنعون من أن يجنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن فى جميع أنحاء الإمبراطورية »[١٧] . وكان دخل الأفراد كله يسجل فى سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبة مقدارها خمسة فى المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر فى أيدى الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لاحصر لها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول[١٨] (*)

(*) ويقول جرانت فى هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا الضرورات الماسة العاجلة ، ويحيل إلينا أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين، وراجت التجارة، وكثرت البضائع وتنوعت، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها[٢٠]. وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلأت خزائن الدولة بالأموال، وانتشر طلاب العلم فى كل مكان، وكثر الشعراء، وبدأ الخزف الصينى يتخذ منظراً جميلا جذاباً. وجمع فى المكتبة الإمبراطورية ١٣٣ر٣ مجلداً فى الأدب الصينى القديم، و ٧٠٥ر٢ فى الفلسفة، و ٣٨٨ر١ فى الشعر، و ٥٦٨ر٢ فى الرياضيات، و ٨٦٨ فى الطب، و ٧٩٠ فى فنون الحرب[٢١]. ولم يكن أحد يعين فى مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحاناً تضعه لهذا الغرض، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء. والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذى مر فى تلك الأيام.

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافاً إليها خبث بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة. فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجدب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه. وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية، التى أضحت فى اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء، وأشاروا بأن يغلى مخترع النظام الجديد فى الماء وهو حى، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التى كانت الحكومة تفرضها عليهم[١٢]. ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

= يمكن إلا فى استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوما بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه؛ وبدت له قديمة بالية. وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حدا يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه. ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشترعين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تعود لتجعل من بلادها دولة موحدة مندمجة منظمة »[١٩].

للموظفين ، وأصبحن عنصراً هاما فى موجة من الفساد انتشرت فى طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور (٢٣). وأخذ المزيفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا فى تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدى الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وو دى أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر فى بداية التاريخ المسيحى بعد أربعة وثمانين عاما من موت وودى ، وكان فى بادئ الأمر وصيا على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصينى الكامل المهذب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد (*) . وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكمل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالا من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإليهم يعزو أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج فى بداية حكمه انتشارُ الرق فى ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها ليمنع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل (٢٥) . واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمور .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التى انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الغلام فى السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهى أن أسرة وانج مانج قد سمته (٢٤) .

وحاول كما حاول وو دى أن يحمى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتحديد أثمان السلع . فكانت الدولة تشترى ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية وتبيعها إذا عزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة لكل مشروع إنتاجي[٣٦] .

لكن وانج لم يفكر فى خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل وبالنهار ليبتكر الخطط التى تزيد ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرم قلبه أن وجد الاضطراب الاجتماعى ينتشر فى البلاد فى أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية كالفيضان والجدب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التى قضت هذه المشروعات على مطامعها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار نقع الفتن فى البلاد يصلت سيفها الشعب فى الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القائمين بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينا كان وانج يكافح فيقلم أظفار هذه الفتن ، وقد ساءه كفر الشعب بفضله وجحوده بنعمته ، إذ أخذت الشعوب الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برابرة الشيونج — نو يجتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هيبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الغنية ثورة عامة اندلع لهيبها فى البلاد ، واستولت على شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألغت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش فى أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من الفوضى حكمت فى أثنائه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد فى أيامها إلى دويلات متعددة . وتدفق التتار على البلاد ولم يصدهم عنها السور الكبير ، واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التتار

سبباً فى اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً فى اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا فى غمار الفوضى التى عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفى وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة فى الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر آجلا وأقل عمقاً من الاضطراب الذى قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانتعشت انتعاشاً رائعاً يبهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة فى أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضّروهم ، وارتقوا هم وإياهم إلى أسمى ما بلغوه من المجد فى تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجـــد تانج

الأسرة المالكة الجديدة – خطة تاى دزونج فى تقليل الجرائم – عصر رخاء – « الإمبراطور النابه » رواية يانج – حوى – فى – ثورة آن لو – شان

تعزى نهضة الصين الـكبرى(*) فى العصر الذى سنتحدث عنه فى هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعث من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو تاى دزونج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو جودزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءة وعاد إلى شانجان عاصمة ملـكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعنت بمرآة من الشبهان فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السـير و . فلندر پيترى The Revolutions of Civilisation « دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم : « إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب »[٢٧] .

وزار الإمبراطور يوماً سجون شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض واكتفى منهم بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من سرور تاى دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسنّ من ذلك الوقت قانوناً يقضى بألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام . وجمّل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوربا ، وجاء إلى الصين عدد كبير من الرهبان البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال يوان چوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجان ليبشروا بالزردشتية والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعفى معابدهم من الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعانى آلام الفاقة والجهالة والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كنفوشيا بسيطا بعيداً عن التحيز والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا يثخنون أجسامهم بالجراح بالمدى والحراب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها بأنفسهم طائعين على نعش الإمبراطور المتوفى »[٢٨] .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعا ، فقد نعمت فى عهده بخمسين عاما من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها فى ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . ففصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانيها تمخر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هـــذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة[٢٩] . وبينما كان الحرير يباع فى أوربا بما يعادل وزنه ذهباً[٣٠] ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من الفراء فى القرن الثامن فى شانجان أكثر منها فى نيويورك فى القرن العشرين . وكان فى إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل[٣١] . وصاح لى پو فى إحدى الولائم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف فى المال ! أقداح من اليشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرصعة بالجواهر الخضراء ؟ »[٣٢] وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فُرش من اللؤلؤ[٣٣] .

وكأنما أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجاءة ، وأخذ يكرم بكل ما فى وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين فى هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل يحق شاعرا »[٣٤] . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . ويروى « سير چون مانڤيل »(*) Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغنى وينطق بالفكاهات »[٣٥] . وأمر أباطرة المانشو فى القرن الثامن عشر الميلادى أن يوضع سجل يحوى ماقاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسى كتب فى القرن الرابع عشر كتاباً فى الأسفار معظمها خيالى ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتانة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر ، كانت هى التى أبقى عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما فى دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد ؛ وفى هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال فى أن الصين كانت فى ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقيا ، وأحسنها حكما على ظهر الأرض »[٣٦] ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات[*] » .

وكان زينة هذا العصر كله منج هوانج — أى « الإمبراطور النابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاما تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلا اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد النائية ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وألغى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راضياً مسروراً عنت الشعراء والفنانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى فى حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكمثرى » ، وقد بدأ حكمه متقشفاً متزمتاً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، وضحى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يانج جوىْ — فىْ . وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشر سنين محظية لا بنه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

(*) من أقوال أرثر ويلى[٣٧] . راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار ، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيدة ، ذات أطوار شاذة متغطرسة وقحة ، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر فى وظائف مجزية سهلة فى بلاطه.

وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منهمكا فى ضروب اللهو والفساد.

وكان فى بلاط مانج رجل تتارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فى ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب حاكم إحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه فى فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوى — فى من بين يدى الملك وقتلوها أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والهزيمة ، وعاثت جحافل آن لو شان الهمجية فى المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير(*) . ويقال إن ستة وثلاثين مليونا من الأنفس قد قضى عليهم فى هذه الفتنة الصماء[٣٩] . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر فى الوصول

(*) وفى ذلك يقول آرثر ويلى Arthur Waley : « لما هزم التتار منج هوانج ونهبوا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتياح الترك فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر »[٣٨] .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو ـ شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قَتَل هذا القائدَ ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها فى عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطماً كسير القلب إلى عاصمته المخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفى هذه الفترة من المآسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصينى ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

الفصل الرابع

الملاك المنسى

قصة لى پو — شبابه وبسالته وحبه — على القارب الإمبراطورى — إنجيل الكرم — الحرب — تجوال لى پو — السجن — « الشعر الخالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضباً : « ماهذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقواد رجل واحد ينجينا من هذه الورطة ؟ قسما إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصينكم جميعاً عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون ويتضجرون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم . ثم تقدم الوزير هو چى — چانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعاياك أن يعلن لجلالتك أن فى بيته شاعراً جليل الشأن يدعى لى متبحراً فى أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شيء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للمثول بين يديه من فوره . ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبى الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا اللقب . فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرغمهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها رداً مروعاً ، ينم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً[٤٠](*) . وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — پوچنج ويسميه أهل الغرب ڤينوس(**) . ولهذا سمى الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — پو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طوالا ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقاة عشرة آلاف رجل »[٤١] (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبيذ الكروم
وأقداح الذهب
وفتاة حسناء من وو —
فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،
ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —
وحذائين من النسيج القرنفلى المشجر —

(*) وتلك قصة ظريفة لعلها من وضع لى — پو .
(**) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —
ولـكنها تغنى أغانى ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداف السلاحف .
ثم سكرت فى حجرى .
أى طفلتى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن[٤٢] !

ثم تزوج الشاعر ، ولـكن مكاسبه كانت ضئيلة ، فغادرت زوجته بيته وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبث فيها شوقه موجهة إليها ، أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —

أيتها الحسناء ، لقد كنت وأنت عندى أملأ البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحسناء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر
الذى خلفته وراءك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛
ولـكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،
أذرف الدمع — ويتلألأ رضاب الندى الأبيض على الـكلأ
الأخضر[٤٣] .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أيكة الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير عجلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة بأغانيهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثمائة ميل[٤٤] .

والتقى فى تجواله بدوفو الذى صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ، وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ، ويناما تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوقة بنفس الأنفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر مدينة شانجان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لى حبا حمله على أن يبيع ما عنده من الحلى الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى بو فقدم له ملء إبريق ،
يكتب لك مائة قصيدة
وهو يغفو فى حانة .
فى أحد شوارع مدينة شانجان ؛
وحتى إذا ناداه مولاه ،
فإنه لا يطأ بقدمه القارب الإمبراطورى .
بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .
أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويغمره بالهدايا جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الطاهرة . وأقام منج مرة مأدبة ملكية يوم عيد الفاونيا(*) فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى بو لينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملا لا يستطيع قرض الشعر . فألقى خدم القصر ماء باردا على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

يغنى ويصف ما بين الفاونيا وحبيبة يانج من تنافس فقال :

فى أثوابها جلال الغمام السابح ،
وفى وجهها سنا الزهرة الناضرة .
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلا
فوق قلة جبل الجواهر
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !
على أننى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،
وتتلألأ نقاط الندى الكبيرة ...
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له
والذى حملته إلى القلب أجنحة الربيع (٤٥) .

ترى منذا الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن الملكة أدخل فى روعها أن الشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ، فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — پو كيسا به نقود وصرفه . فأخذ الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان شرابهم على لسان الناس فى شانجان . وكان يرى رأى ليولنج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام خادمان يحمل أحدهما خمراً ويحمل الآخر مجرفا يستعين به على دفنه حيث يخر صريعاً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر » (٤٦) . وكأنما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزمت الفلسفة الصينية ، فأطلقوا لأنفسهم العنان . وفى ذلك يقول لى پو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنغسل بها

أرواحنا ونطهرها من الأحزان التى لازمتنا طوال حياتنا »[٤٧] . وهو يترنم
ببنت الحان ترنم عمر الخيام :

إن المجرى الدافق يصب ماءه فى البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحا أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الغدائر فى الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هى كلها فى بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك فى مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،
ولا نترك إبريق الخمر الذهبى
يقف بمفرده فى ضياء القمر ...
إنى لا أبغى سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أصحو قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
لجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطفى المصنوع من الفراء والذى يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وآمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبى
أحزان عشرة آلاف من الأعمار ![٤٩]

ترى ما هى هذه الأحزان ؟ أهى آلام من محب ازدرى حبه ؟ لا نظن هذا
لأن شعراء الصين لا يكثرون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملأ قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى مرارة المآسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو آن لو شــان بالاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفرار الإمبراطور وموت يانج ، وعودة منج هوانج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهــاية ! » ثم يأسو للنساء اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وها هى ذى فتاة يورتشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الغناء ، وعز الابتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بالباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيفه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

* * *

فى مشيتها الذهبية النمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان مراشان بريشتين بيضاوين ،
بين نسج العنكبوت وما تجمع من الغبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه للقلب من أحزان .
ثم تخرج السهمين وتحرقهما وتذرو رمادهما فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولــكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟[٤٩]

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التى وصفه بهـا دزو تشو بج — چى : « على ظهرك حقيبة ملأى بالـكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفى كمك خنجر وفى جيبك طائفة من القصائد »(٥٠) . وقد حبته رفيقته القديمة الطبيعة فى هذا التجوال الطويل بعزاء وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفى وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المدن قد أخذ عبئها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لِمَ أعيش بين الجبال الخضراء ؟
إنى أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روحى ساكنة صافية ؛
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملـكا للإنسان .
إن أشجار الخوخ مزدهرة والمـاء ينساب من تحتها(٥١) .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أبصرت ضياء القمر أمام مخدعى .
خلته الصقيع على الأرض .
ورفعت رأسى ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسى وفـكرت فى موطنى البعيد(٥٢) .

ولما تقدمت به السن وابيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التى قضى فيها أيام شبابه . وكم من مرة ، وهو يحيا فى العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التى كان يحياها فى مسقط رأسه وبين أهله :

فى أرض وو أوراق التوت خضراء ،
نام دود الحرير مرات ثلاثا .
وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتى ،
لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .
وليس فى وسعى أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر

إن ريح الجنوب إذا هبت أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .

وحملتها معها إلى حانتنا المعهودة .

وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،

بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق..

إنها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .

لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،

فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .

أى بنيتى الجميلة يا بنج — يانج ، إنى أراك واقفة .

بجوار شجرة الخوخ ، تنتزعين منها غصناً مزهراً ،

تقطفين الأزهار ، ولكنى لست معك —

ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !

وأنت يا ولدى الصغير پوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك

وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛

ولكن منذا الذى يربت على ظهرك هناك ؟

إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى

ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .

وها أنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض وأكتب عليها هذه الرسالة

وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر[٥٣]

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكاً يحنو عليه ويرد عنه غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لفج أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لفج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما قلمت أظفار فتنته ألقى لى پو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه خان دولته .

ثم توسط له جوُو دزيئى القائد الذى أخمد ثورة آن لو شان ، وطلب أن تفتدى حياة لى پو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . فخفف الإمبراطور عنه الحكم واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفو عام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر يتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول الأقاصيص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق صورة القمر .

وديوان شعره الرقيق الجميل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالا للشك فى أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاى الشامخة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض ملايين من نجوم السماء »[٥٤] .

لقد مات منج هوانج ، وماتت يانج وعفا ذكرهما ولكن لى پو لا يزال يغنى :

لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب المولان .

وجلس العازفون عند طرفها وبيدهم الناى من الغاب المحلى بالجواهر والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبى دن الخمر اللذيذة وغيد حسان يغنين

ونحن نطفو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لـكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيفه الأصفر ،
حراً كعريس البحر الذى تعقب النوارس(*) دون غرض يبتغيه ،
إنى الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلمى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد ! إن ألحان شو بنج(**) لشبيهة فى روعتها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال(٥٥)

(*) المرلان ضرب من الخشب الثمين وعريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل سمك و النورس طائر مائى . (المترجم)

(**) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصينى

النظم الطليق — « التصوير » — كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . — العاطفية — كمال الشكل

ليس فى وسعنا أن نحكم على الشعر الصينى بدراسة شعر لى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه فى غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال فى أن بعض الصفات الدقيقة التى يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى فى هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التى يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجرى من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبثان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النغمات — وما فيها من خفض ورفع — التى يترنم بها الشعر الصينى . وجملة القول أن نصف ما فى شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية فى لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل فى صقلها وعظيم فنها عن المزهرية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلا ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه فى هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأنا قد لا نجد فيها ما فى شعر ملتن وهومر من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولـكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر فى نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة فى بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعانى الـكثيرة فى أنغام قليلة . وإذ كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الـكتابة الصينية فى جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المـكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للـكتابة التصويرية ، وتنفر من المعنويات المجردة التى لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المرئيات . وإذ كانت المعنويات تـكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحت اللغة الصينية فى صورتها المـكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيحاء دقيق . وكذلك كان الشعر الصينى ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيحاء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الـكشف عن شىء خفى عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ، بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس فى وسع أحد غير الشرقى أن يستجيب لمـا يوعز به ويملأ الفراغ الذى يتركه . وفى هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »[٥٦][*] . فالشعر الصينى كالأخلاق الصينية والفن الصينى ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعمد إلى الاستعارة والمجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفى إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز فى القول وما يتقيد به من قيود . وقلما تراه فى صور روائية هائجة ، ولـكن فى مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(*) انظر وصف مكولى للشعر فى مقاله عن ملتن .   (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالنجوم تتحرك ولكنها لا تلتقى أبداً.
أما هذه العين فما أسعدها ، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك !
ألا ما أقصر أيام الشباب !
وإن لسامنا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال .
بل إن نصف من نعرفهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح .
ألاما أشد وقع هذا على نفسى.

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى ، وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال فتياناً وتحتفظ الدول بشبابها أبد الدهر . ونحن ندرك من هذا الشعر أن حضارة الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج ، وأن الشعراء فى هذا العهد — كالفنانين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات التليدة ، وأنهم كانوا يسخِّرون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من العيوب . ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلا فى غير بلاد الصين ، ولا نرى مايضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها ، ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار . ويقال لنا إن للشعر الذى كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيما فى تعليم كل شاب صينى ، وإن الإنسان لايجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب . فإذا صح هذا كان فى تاريخ لى پو ودوفو بعض ما نجيب به حين نسأل لِمَ يكاد كل صينى متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً ؟

الفصل السادس

دوفو

دواتشين — يو — چوى — قصائد لشفاء الملاريا — دوفو
ولى يو — رؤى الحرب — أيام الرخاء — الإبلاق — الموت

لى يو عند الصينيين شبيه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين عنزه من المغنين ، لايكاد يقلّ حبهم لهم عن حبهم للى يو ، فنهم داوتشين الشاعر الرواقى البسيط الذى اعتزل منصباً حكوميا ، لأنه على حد قوله لم يعد فى وسعه « أن يحنى فقرات ظهره نظير خمسة أرطال من الأرز فى كل يوم » أى أن يبتاع مرتبه بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة اشمئزازاً من حياة الوظيفة ذات النزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات ينشد فيها « طول السنين وعمق الخمور » ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلوى والبهجة ما صوره رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأقحوان تحت السياج الشرقى ،
ثم أسرح الطرف طويلا فى تلال الصيف البعيدة
وأملأ صدرى من هواء الجبال النقى عند مطلع الفجر ،
وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .
إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،
لكننا إذا شئنا التعبير عنها خانتنا الألفاظ فجاءة . . .
ألاما أسخف أن يمضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المطمورة
فى تراب الطرقات !
ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلا حبيساً فى قفص ؛

وهأنذا قد عدت

إذ لا بد للإنسان أن يعود

ليحيا حياته الطبيعية(٥٧)

أما پو — چوى فقد سلك مسلكا آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاصمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانج تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نفى فيها من بلده(٥٨) . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجماهير ، وبين الراحة والحياة الناشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلا وسطا غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، والميسر ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »(٥٩) . وكان مولعاً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم شيء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقمرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ پو : الغلطة الأبدية »(٦٠)(*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذى يقول فيه ارثر ويلى Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(*) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة خالدة إلى الحد الذى توصف به ، وهى أطول من أن تتسع لها هذه الصفحات .

الصينى من الإنجليز أن يقولوا إن لى تاى — پو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى »[٦١]

ونحن نسمع به لأول مرة فى شانجان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكوميا ، ولـكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت فى عضده ، رغم أنه أخفق فى مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحمى الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه[٦٢] . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسوّا . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه فى قريتهم النائية ، فأقام فى العاصمة وتبادل هو ولى پو الأغانى . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لى پو يقول :

أحب مولاى كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،

فنى الخريف وفى نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفى النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا فى أيام كان منج ليانج يحب جوى فى فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين فى بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصوّر الناحية الإنسانية من الحرب :

فى الليلة الماضية صدر أمر حكومى

بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .

وأمروا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة

أيتها الأم ! وأيها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !

إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .

وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .

وهل تعرفون أن فى شانتونج مائتى مقاطعة قد استحالت صحارى مجدبة ،

وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟

وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..

ولو أننى كنت أعرف ما هو مخبأ للأولاد من سوء المصير

لفضلت أن يكون أطفالى كلهم بنات ...

ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .

ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب فى الماضى البعيد مدفونة بجوار

البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهى بيضاء رهيبة تراها العين فوق الرمال ، .

هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جامات ،

وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت المريح الباردة ،

علت أصواتهم حتى علمتنى كيف تقتل المرء الأحزان ...

إن الطيور تتناغى فى أحلامها وهى تحلق فوق الماء

واليراعة تشع بضيائها فى غسق الليل .

فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟

إنى أتحسر خلال الليل فى غير طائل [٦٤]

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يطوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه زوجته وأبناؤه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه خورا كما يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان [٦٥] .

ثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر(*) . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروبا يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟
إن أمامى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .
وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحفى وكتبى
وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...
فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال
مشيت رويداً ، وتمنيت أن يغرق الجمال روحى
أحب أن ألمس ريش الطير .
وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .
وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،
بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،
ألا ما أحلى الجلوس على الكلأ ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى . . .
أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر
التى فى زرقة اليشب(٦٥) .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثارت الحرب حول الشاعر ، فأمسى وحيداً لا سند له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألفى نفسه

(*) ويصور رسم صينى شهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المغمى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدما ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان فى آخر أيامه شيخاً مهدماً بائساً وحيـداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم (٦٧) ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد فى وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لى بو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه فى البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فحج إلى جبل هونِ المقدس ليزور فيه معبداً ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحـكام قرأ شعره ، فآواه إلى منزله وأقام وليمة تكريماً له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفو قد رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويغنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولـكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات فى اليوم الثانى (٦٨) .

الفصل السابع

النـــثر

وفرة الآداب الصينية — الروايات العرامية — التاريخ
زوماتشين — المقالات — هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تانج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصينى ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقيقة ما كان فى هذا العصر من وفرة فى الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون الملكية الأدبية عاملا من العوامل التى ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية فى البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتابا تباع الواحدة منها بريال أمريكى ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصينى القديم كلها بريالين(٦٩) . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس فى وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم فى هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم فى سرعة وسهولة . ولذلك فإنا قلما نجد له ذكراً فى بلاد الصين قبل أن يدخلها المغول(٧٠)

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر فى تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يبالون بهذه الفروق ، ويتركون أغانى بو — جوى ولى بو فى غير تحرج ، ويفضلون عليها الروايات الغرامية التى لا حصر لها ، والتى يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التى تكتب بها المسرحيات . وهى تصور للصينيين فى وضوح ما فى ماضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل النادر منها ، روايات تاريخية ، وقلّ أن يوجد فيها ما هو واقعى النزعة ، وأقلّ منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفسانى أو الاجتماعى الذى يرقى « بإخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلم » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التى ألفها رهط من الكتاب فى القرن الرابع (*) .

ومن أكبر هذه الروايات حجما رواية « هونج لومون » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهى رواية فى أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو جاى جيى أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهى التى يجلها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سان جورجى يان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهى رواية منمقة الأسلوب فى ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٣٤١) فى وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز پيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وسمتها « كل الناس إخوة All Men are Brothers » وطبعت فى نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التى أعقبت سقوط أسرة هان(*)، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التى كانت منتشرة فى أوربا فى القرن الثامن عشر. وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا فى مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفكه اللطيف الذى تراه فى رواية تم جونز Tom Jones وبين القصص الشائق الذى نراه فى جل بلاس Gil Blas. وهى أصلح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون فى السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم.

والتاريخ أجل الآدب شأناً فى الصين، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازى من ظهر منهم فى الصين، وما من شك فى أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت فى التاريخ بقدرما كتبت الأمة الصينية. ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه، وأوجد فى الصين قدراً من الأدب التاريخى لا نرى له مثيلا فى طوله ولا فى ملله فى جميع بلاد العالم. وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ. فمنها أربعة وعشرون كتاباً فى «تواريخ الأسر» وهو تاريخ رسمى نشر فى عام ١٧٤٧ فى ٢١٩ مجلداً ضخماً[٧١]. وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة فى الصين مبتدئة بالشو — منج أو «كتاب التاريخ» الذى هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب، وبالدزو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت، وحوليات كتب الغاب التى وجدت فى قبر أحد ملوك ويه، حتى أخرج فى القرن الثانى قبل ميلاد

(*) وترجمها ش. هـ. بروت تيلر C. H. Brewtt-Taylor فى جزأين وطبعت فى شنغهاى سنة ١٩٢٥.

المسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخى الذى جمعه زوما تشين وبذل فى جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه فى منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذى بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذى كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملا . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هى : (١) حوليات الأباطرة ، (٢) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول فى المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرابين الإمبراطورية ؛ والمجارى المائية ، والاقتصاد السياسى (٤) حوليات أمراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذى تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت فى ٥٢٦,٠٠٠ متر صينى نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب فى صبر طويل[٧٢] .
ولما فرغ زوماتشين من وضع كتابه هذا الذى قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضف إليه إلا هذه المقدمة المتواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها إخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتكم عن محاولته الجريئة التى تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل فى لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاقها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه ومطمعه فى الحياة ، وإن ثوت عظامه فى الينابيع الصفراء »[٧٣] .

ولسنا نجد فى صفحات كتاب زوما تشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للعلة والمعلول كما نجدهما فى توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق فى لغة موسيقية كما نجد فى جِبُن Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع فى الصين من صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سميه زوما جوانج الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاما للصين ، نقول ظل هؤلاء المؤرخون يكدحون ليدوّنوا فى صدق وإخلاص حوادث أسرة حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضاعوا فى هذا العمل كل ما كان لهم من مال ، بل إنهم أضاعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم كلها فى سبيل الحقيقة لا يبغون عنها بديلا ، ولم يدخروا شيئا من هذه الجهود ينفقونه فى جمال الأسلوب ، ولعلهم كانوا فى عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ ينبغى أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضى يعتريها الغموض إذا وصلت إلينا فى زينة جِبُن أو فى مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن(*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفى وسعنا أن ننافس أية أمة من الأمم فى عدد المجلدات التى خصصت لتسجيل — وجمع — أتفه الأشياء .

أما المقالة الصينية فهى أجمل من التاريخ الصينى وأعظم منه بهجة . ذلك أن الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقة العنان . وأوسع كُتاب المقالات شهرة هان يو العظيم الذى يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالا بلغ من قدره أنهم يطلبون إلى من يقرؤها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسها .

وكان هان يو وضيع المولد ولكنه وصل إلى أرقى المراتب فى خدمة الدولة ، ولم يغضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

(*) يقصد أمريكا . (المترجم)

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرافة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشى الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لنقدم للقارئ مثلا من النثر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمينة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظما من عظام بوذا ؛ وأن جلالتكم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهياكل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتكم لاتفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسايرة منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا المجون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلأت جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاى بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتكم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : هاهو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوىّ الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتكم . ونتيجة هذا أن تتملك الشعب كله ، صغاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهياكل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتم عليهم جلالتكم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عاداتنا وتقاليدنا ، ونصبح مضغة فى أفواه الناس وهدفاً لسخريتهم على ظهر الأرض .

« ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجلل بالعار من أفعال الرقباء(*) ، يضرع إلى جلالتكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يجتث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالتكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثأر لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو فى هذه اللحظة يُشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته[٧٤] » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التخريف ، ذلك بأن العالم قد أوتى من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية فى هوانج — تونج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفى ، بل شرع يهذب الناس ويجعل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من نجاحه فى عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها فى هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حيثما مر »[٧٥] . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية فى هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذى يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيله ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هى أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يحتج قط على رضاء الإمبراطور تى دزونج عن انتشار البوذية فى الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلته الوضيعة فى الصين — منشؤه — المسرحية — النظارة — الممثلون — الموسيقى

ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساما جامعة مانعة ، لأن الصينيين لا يقرون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل فى الصين منزلة تتناسب مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه فى هذا شأن كثير من مقومات الحياة . من أجل ذلك لا نكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ، والممثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها فى إعداد أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة وما من شك فى أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين فى جميع الحضارات وبخاصة فى العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل الدينى الصامت المضحك الذى نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصينى ، فلقد كانت الطقوس الدينية فى عهد أسرة جو تشمل أنواعا من الرقص المصحوب بالخاصر . ويقال إن هذا الرقص قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذى فصل الرقص عن المراسم الدينية هو الذى نشأ منه التمثيل غير الدينى[٧٦] . وشجع منج هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثيراً من الفنون الأخرى ، وذلك بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة الكمثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاما قوميا معترفا به إلا فى عهد كوبلاى خان . ذلك أنه لما اختير كونج دوفو — وهو من سلالة كنفوشيوس — فى عام ١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماجن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا ببلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول(٧٧) .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طواراً فى حقل خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء .

وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدب ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانكنج الكبيرة أكثر من دارين(٧٦) ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها عادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمن التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد نحو ست ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمتها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاقى ، تعلّم الشعب شيئاً من تاريخه ، وتغرس

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها .

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث ، ولم يكن له مَخرج للممثلين ، فكان هؤلاء جميعا سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها ، يجلسون على المسرح طوال وقت التمثيل ، ويقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون ؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات ، ويقدمون لهم القطائل ليمسحوا بها وجوههم فى ليالى الصيف ؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلفت أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت ؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكى يسمعهم النظارة ، وكانوا فى أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولما حرم تشين لونج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا بد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمن النجاح . وكان لا بد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية ، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ، ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل ؛ وكانت حركات اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة ؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه ماى لانج — فانج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر .

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن فى أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه فى صفاتها مسرحيات العصور الوسطى فى أوربا ، ولكنها كاملة فى نوعها كمال الموسيقى البلسترينائية Palestrina أو الزجاج المصبوغ[٣٩] .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائما بذاته عند الصينيين بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزو منشأها كما كانت تعزو منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطورى فوشى . وقد احتوى اللى — چى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشيوس عدة رسائل فى الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو — چوان الذى كتب بعد مائة عام من أيام كنفوشيوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد ويه . وما أن حل عهد كوبج وو — دزه حتى كان السُّلَّم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقادم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقض مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضج بالشكوى من الأنغام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنعام الماضى المتفقة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق[٨٠] .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد الكلى فى الموسيقى إلى اثنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و « صورة الكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الناى والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الـكمان الأوسط والمزهر وغيرها ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من اليشب والعقيق[٨١] . وكانت النغمات التى تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغانى الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولـكن هذه النغمات هى التى أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلا نباتيا ، وهى التى جعلت كثيرا من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يو فى هذا : « لقد علم الحـكماء الإنسان الموسيقى لـكى يقشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »[٨٢] وكانوا يؤمنون بقول نتشه : « لولا الموسيقى لـكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .

الباب الخامس والعشرون

عصر الفنانين

الفصل الأول

النهضة فى عهد أسرة سونج

١ — اشتراكية وانج آن — شى

أسرة سونج – رئيس وزراء متطرف – طريقته فى علاج التعطل – تنظيم الصناعة – قوانين الأجور والأثمان – تأميم التجارة – مشروعات الدولة للتأمين من التعطل والفقر والشيخوخة – المناصب العامة بالامتحان هزيمة وانج آن – شى

لم تفق أسرة تانج من هزيمتها على يد آن لو — شان وثورته . فقد عجز الأباطرة الذين خلفوا منج هوانج عن إعادة سلطان الإمبراطور إلى سابق عهده فى أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، ثم انقضى عهد تلك الأسرة بعد مائة عام من وهن الشيخوخة ، وجاءت بعدها خمس أسر لم يطل عهدها مجتمعة أكثر من ثلاث وخمسين سنة ، ولكنها بلا استثناء بلغت من الضعف مابلغته من قصر الأجل . وكانت البلاد فى حاجة إلى يد قوية قاسية لتعيد إليها النظام شأن الدول كلها فى مثل هذه الأحوال . وهذا ما حدث فعلا ، فقد خرج جندى مقدام من غمار هذه الفوضى وأسس أسرة سونج واستولى على العرش وتسمى باسم تاى — دزو ، وأعاد الحكومة إلى ما كانت عليه من البيروقراطية فى أيام كنفوشيوس ، كما أعاد طريقة تقلد المناصب الحكومية بالامتحانات العامة ، وحاول أن يحل مشاكل استغلال الفقراء بوضع نظام للإشراف على حياة الأمة الاقتصادية لا يكاد يختلف

عن النظام الاشتراكى فى شيء ، ومستعيناً فى هذا الحل بمستشار إمبراطورى خاص يشرف على هذه الشئون .

ويعد وانج آن — شى (١٠٢١ — ١٠٨٦) من الشخصيات الفذة التى تبعث الحياة والروح فى تاريخ الصين الطويل ؛ وقد خلد التاريخ ذكره رغم هذا الطول ، وإن شخصيته لتبدو لنا ناصعة فذة رغم ما بين بلادنا وبلاده من تناء .

ذلك أن من مساوئ هذا التنائى أن يجعل انفصالنا الطويل عن مسرح الحوادث الأجنبية يطمس معالم الاختلاف فى الأماكن وفى أحوال الناس ، ويخفى ما بين الشخصيات الشديدة الاختلاف من فروق ، ويخلع عليها كلها غشاوة من وحدة المظهر والصفات تجعلها كلها كامدة كليلة . لكن وانج شذّ عن هذه القاعدة ، فقد كان حتى فى رأى أعدائه — وإن كثرتهم فى حد ذاتها لدليل على جلال شأنه — رجلا يختلف عن سائر الرجال ، وهب حياته لإقامة نظام صالح لحكم البلاد ، وعمل مخلصاً لرفاهية شعبه ، غير مبال بما يصيبه فى سبيل هذا العمل من نصب أو أذى ، لا يدخر فى ذلك جهداً ، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه أو بملبسه ، ولا يقلّ عن كبار العلماء فى أيامه علماً وبراعة فى الأسلوب ، يحارب فى شجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوى فى أيامه . وتشاء المصادفات أن يكون الشخص العظيم الوحيد الذى يشبهه فى تاريخ بلاده هو سميه وانج مانج الذى عاش قبله بنحو ألف عام — أى أن مجرى التاريخ الصاحب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذى أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادئ الاشتراكية .

وما كاد وانج آن — شى يتولى أكبر منصب فى مقدور الإمبراطور أن يوليه إياه ، حتى وضع ذلك المبدأ العام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد . ومن أقواله فى هذا : « يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف

الذى ترمى إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذلها الأغنياء ويطحنوها طحن الرحى »[١] . وقد بدأ عمله بإلغاء نظام السخرة الذى ظلت الحكومة الصينية تفرضه على الصينيين من أقدم العهود ، فكانت تأخذ الناس بمقتضاه من الحقول حين تكون أعمال الزرع أو الحصاد فى أشد الحاجة إليهم ؛ ومع هذا فإنه أقام أعمالا هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ...

ومن أعماله أنه أنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم ، وأقرضهم أموالا بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمدّ الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنحهم من الأموال ما يعينهم على بناء مساكنهم على شريطة أن يردوا هذه الأموال إلى الدولة من غلات أراضيهم . وأنشأ لجانا فى كل مركز من المراكز لتحديد أجور العمال وأثمان ضرورات الحياة . وأقد أمّم التجارة فكانت الحكومة تبتاع محصول كل إقليم من أقاليم البلاد ، وتخزن بعضه فى الإقليم ذاته اتقاء للطوارئ المحلية ، ثم تنقل ما بقى منه ليباع فى مستودعات أقامتها الدولة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إنه وضع نظاما لميزانية الدولة ، فعيّن لجنة للميزانية تعرض عليه مقترحاتها وما تقدره من النفقات لكل مصلحة حكومية ، وكانت الحكومة تتمسك بهذه التقديرات فى إدارة أعمال الدولة ، فاقتصدت بذلك كثيراً مما كان يتسرب قبل من الأموال إلى الجيوب الواسعة الخلفية التى تعترض طريق كل درهم حكومى . يضاف إلى هذا كله أنه خصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم والامتحانات العامة ، وابتكر ضروبا من الاختبارات ليعرف بها مقدار ما يعلمه الطلاب من الحقائق لا من الألفاظ ، ويستبدل بعناية الناس بالأسلوب الأدبى عنايتهم بتطبيق مبادئ كنفوشيوس على الواجبات العامة والأعمال اليومية . وقلّل من اهتمام المعلمين بالشكليات وبالحفظ عن ظهر قلب ، وقد أتى على البلاد حين من الدهر

ألقى فيه « التلاميذ أنفسهم » ، كما يقول أحد المؤرخين الصينيين ، « فى مدارس القرى بكتب البلاغة وأخذوا يدرسون الكتب المبسطة فى التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسى »[٢] .

ترى لم أخفقت هذه التجربة النبيلة ؟ لعل من الأسباب الأولى لإخفاقها أن فيها عناصر عملية أكثرمنها مثالية . وأولى هذه العناصر أنه وإن كان معظم الضرائب يجبى من الأغنياء — وذلك يتفق مع المبادئ الاشتراكية التى كان يسير عليها وانج آن — شى — ، فإن الدولة كانت تحصل على جزء من المال الذى كانت تحتاج إليه لمواجهة نفقاتها الكثيرة المتنوعة باستيلائها على جزء من محاصيل كل حقل من الحقول ، وسرعان ما انضم الفقراء إلى الأغنياء فى الشكوى من قدح الضرائب ، لأن الناس فى جميع الأوقات أكثر استعداداً للمطالبة بإلقاء الأعمال على كاهل الحكومة منهم لأداء ما يلزمها من الأموال للقيام بها .

يضاف إلى هذا أن وانج آن — شى أنقص الجيش العامل لأنه يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد ، ولكنه استعاض عنه بإصدار قانون عام يفرض على كل أسرة فيها من الذكور أكثر من فرد واحد أن تقدم من أبنائها جنديا فى وقت الحرب . وأهدى الرجل إلى كثير من الأسر خيلا وعلفاً لها ، ولكنه اشترط عليها أن تعنى بالخيل العناية الواجبة ، وأن تقدمها إلى الحكومة إذا احتاجت إليها فى الأعمال العسكرية . فلما أن تبين الناس أن الغزوات والثورات أخذت تزيد من مطالب الحكومة العسكرية فقدَ وانج آن — شى فى أسرع وقت مكانته بين الشعب وحبه إياه . وفوق هذا كله فإنه قد وجد من العسير عليه أن يعثر على الرجال الأشراف الأمناء ليعهد إليهم بالأعمال التى شرع فى تنفيذها ، وما لبث الفساد أن استشرى فى جميع نواحى الإدارة البيروقراطية الضخمة ، ووجدت الصين نفسها — كما وجدت نفسها أمم أخرى كثيرة من

بعد — مرغمة على أن تختار بين اثنتين كلتاهما شر من الأخرى ، فإما الانتهاب الفردى وإما الفساد الحكومى .

وقام المحافظون بزعامة أخى وانج نفسه والمؤرخ زوما كوانج يندون بهذه التجربة الحكومية ويظهرون فسادها ؛ ويقولون إن الفساد والعجز المتأصلين فى الطبيعة البشرية يجعلان إشراف الحكومة على الصناعات مستحيلا ، وإن خير النظم الحكومية هو النظام الذى يدع الأمور تجرى فى مجراها ، والذى يعتمد على الدوافع الاقتصادية الطبيعية التى تحمل الناس على إنتاج السلع وأداء الخدمات . واستخدم الأغنياء الذين آذاهم ما فرض على أموالهم من ضرائب باهظة واحتكار الحكومة للتجارة ، استخدم هؤلاء ما لهم من ثروة وقوة فى العمل على الحط من شأن النظم التى وضعها وانج آن — شى ومقاومة تنفيذها ، والقضاء عليها . وزاد ضغط هذه المعارضة المنظمة أحسن تنظيم على الإمبراطور . وحدث أن تعاقبت على البلاد عدة سنين من الجدب وفيضان الأنهار ، اختتمت بظهور مذنب فى السماء ، فلم ير ابن السماء نفسه بدًّا من إقصاء وانج عن منصبه ، وإلغاء القوانين التى أثارت غضب الشعب ، ورفع أعداء وانج إلى مناصب الحكم ، وعادت الأمور مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل(٣) .

٢ — إحياء العلوم

ازدياد عدد العلماء — الورق والحبر فى الصين — خطوات فى سبيل اختراع الطباعة — أقدم كتاب معروف — العملة الورقية — الحروف المتنقلة — مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات

لقد كانت حياة الشعب الصينى فى هذه الأثناء تجرى فى مجراها العادى خلال جميع ضروب التجارب والنظم الإدارية ، لا تضطرب ولا تؤثر فيها الحادثات التى كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه ، إلا بعد أن تمر وتنقضى بزمان طويل . لقد زال حكم آل سونج فى شمالى البلاد ولكنه عاد من جديد فى جنوبيها

وانتقلت العاصمة من پيان ليانج (وهى الآن كايفنج) إلى لين — آن (هانج تشاو الآن) .

وبدت مظاهر العز والنعمة فى العاصمة الجديدة كما كانت فى العاصمة القديمة ، وأقبل التجار من كل فج يبتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصينى . وضرب الإمبراطور هوى دزونج نفسه (١١٠١ - ٢٥) لشعبه أروع الأمثال فى پيان — ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكما ، فكان فى الوقت الذى يهاجم فيه البرابرة عاصمة ملكه يشتغل برسم الصور الفنية . وقد أنشأ مجمعاً للفن بعث النشاط فى الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يغدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكراها فى سجلات الحضارة الإنسانية .

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات ؛ وأنشئت فى البلاد دور الكتب التى بقى بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب ، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون .

وفى أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت فى حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً فى خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه فى أيام تلك الأسرة ، فأتم مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة ، وصُفت الحروف المفككة المفردة ، من المعادن المجموعة فى قوالب . وكان هذا الاختراع الصينى الخالص[٤] أعظم اختراع فى تاريخ الجنس البشرى بعد الكتابة .

وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاختراع العظيم هى كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون . ذلك أن الحرير غالى الثمن والغاب ثقيل ، وقد احتاج مودى ... إلى ثلاث

عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التى كانت أثمن ما يملك من متاع الدنيا .

وكان شى هوانج — دى يضطر إلى مراجعة مائة وعشرين رطلا من الوثائق الحكومية فى كل يوم[٥] . فلما كان عام ١٠٥ ب . م أبلغ رجل يدعى تساوى لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندى والخرق وشباك السمك . وعين الإمبراطور تساى لون هـذا فى منصب كبير ، ومنحه لقباً رفيعاً ، ولكنه تورط مع الإمبراطورة فى بعض الدسائس ، وافتضح أمره «فذهب إلى منزله ، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ثيابه ، وتجرع السم »[٦] . وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ؛ وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أورل اشتين Sir Aurel Stein فى طنف من السور الكبير ، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دونت فيها حوادث وقعت فيما بين عامى ٢١، ١٣٧ بعد الميلاد ، وأكبر الظن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التى دونت عليها . ولهذا فإن عهدها يرجع إلى حوالى عام ١٥٠ م أى بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذى أبلغ فيه تساى لون الإمبراطور نبأ اختراعه[٧] . وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد ، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع فى هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء . واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف ، ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر . ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هـذه الصناعة فى القرن الثامن الميلادى ، ثم أخذتها أوربا عن العرب فى القرن الثالث عشر ، كانت قد بلغت غاية الكمال .

وكان اختراع الحبر أيضاً فى بلاد الشرق . نعم إن المصريين قد صنعوا الورق

والحبر فى العهد الذى نستطيع أن نسميه أقدم العهود ، ولـكن الصين هى التى أخذت عنها أوربا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح . ولقد كان « الحبر الهندى » صينى الأصل . وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الاستعمال فى الصين من أيام أسرة هان . فلما ظهر الحبر الأسود فى القرن الرابع الميلادى أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة . وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة ، لأنه كان أصلح المواد للاستعمال فى القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الـكتابة به لا تـكاد تمحى مطلقاً فلقد وجدت أكداس من الورق فى آسية الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت ولـكن ما عليها من الـكتابة ظل واضحاً تستطاع قراءته[٩] .

وكان استخدام الأختام فى مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التى نشأت عنها الطباعة . ولا يزال اللفظ الصينى الذى يطلق على الطباعة هو نفسه الذى يطلق على الخاتم . وكانت الأختام الصينية تطبع فى بادىء الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه فى بلاد الشرق الأدنى ، ثم أخذوا فى القرن الخامس الميلادى يُنَدُّونها بالحبر . وفى هذه الأثناء كانت أمهات الـكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر فى القرن الثانى بعد الميلاد . وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالحبر . وفى القرن السادس نجد الدَّوِّيين يستعملون أختاما من الخشب لطبع الرقى السحرية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يجرون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات ، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود . وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت فى اليابان حوالى عام ٧٧٠ م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية ، فهى بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات فى بلاد آسية . وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الـكلشيهات) فى أيام أسرة تانج ، ولـكن يلوح

أنها قد تلفت أوفقدت فى أثناء الفوضى والقلاقل التى أعقبت عهد منج هوانج [١٠] .

وحدث فى عام ١٩٠٧ أن استطاع سير أورل اشتين أن يقنع الكهنة الدويين فى بلاد التركستان بأن يسمحوا له بفحص « كهوف الألف بوذا » التى فى تون — هوانج . فلما تم له ذلك عثر فى حجرة منها — يلوح أنها قد سد مدخلها حوالى عام ١٠٣٥ ولم تفتح بعدئذ إلا فى عام ١٩٠٠ — على ١١٣٠ إضمامة من الأوراق تشتمل كل منها على نحو اثنى عشر ملفاً مخطوطاً أو أكثر من اثنى عشر ، تتكون منها كلها مكتبة من خمسة عشر ألف كتاب ، مكتوب على الورق ، قد حفظت بعناية فبقيت فى حالة جيدة كأنها لم تكتب إلا قبل العثور عليها بيوم واحد . وهذه المخطوطات هى التى عثر من بينها على أقدم كتاب مطبوع فى العالم — كتاب « الحكم الماسية » — وهو ملف يختتم بالعبارة الآتية « طبعه فى (اليوم المقابل لليوم) الحادى عشر من شهر مايو سنة ٨٦٨ وانج — چيه ، ليوزع بغير ثمن تخليداً لذكرى والديه وإجلالا لهما » . ووجدت بين هذه المخطوطات ثلاثة كتب أخرى مطبوعة ، يدل واحد منها على تطور جديد فى شكل الكتب . ذلك أنه لم يكن ملفا ككتاب « الحكم الماسية » بل كان كتاباً صغيراً مطويا هو أول ما عرف من هذا النوع من الكتب التى لا يحصى عديدها .

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة فى بلاد الصين باعثاً دينياً ، كما كانت الحالة فى أوربا فى العصور الوسطى المتأخرة ، وكما هى الحال بين بعض الشعوب البدائية فى الوقت الحاضر . ذلك أن الأديان فى ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها من طريق العين ومن طريق الأذن معاً ، ولجعل صلواتها ورقاها وأقاصيصها فى متناول كل إنسان . وتكاد أوراق اللعب تعادل هذه المطبوعات الدينية فى قدم العهد — فقد ظهرت هذه الأوراق فى الصين فى عام ٩٦٩ أو قبل ذلك العام بقليل ، ثم انتقلت من الصين إلى أوربا فى أواخر القرن الرابع عشر [١٢] .

وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية ، وأول ما وصل إلينا من نبأ عن هذا العمل ما ورد فى رسالة صينية كتبت حوالى ٨٧٠ م فقد جاء فيها : « حدث وأنا فى سشوان أن فحصت فى حانوت وراق كتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبى »[١٣] . ويلوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدماً كبيراً فى الوقت الذى عثر فيه على هذا الخطاب . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولا فى الولايات الغربية مثل سشوان والتركستان ، وهى الولايات التى دفعها فى تيار المدنية المبشرون البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية . ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية فى أوائل القرن العاشر حين أقنع فنج — دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة . وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاما ، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً ، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصوراً على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحها . ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت فى البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً فى إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية فى عهد الملوك من أسرة سونج .

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب . وقد ظهرت هذه الأوراق أولا فى سشوان فى القرن العاشر الميلادى ثم أصبحت عملا هاما من أعمال الحكومة الصينية ؛ ولم يكد يمضى على اختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب فى التضخم المالى ، واتبعت بلاد الفرس فى عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة . وقد وصف ماركو پولو فى عام ١٢٩٧ فى دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه القصاصات من الورق . أما أوربا فلم تعرف النقود الورقية إلا فى عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها[١٤] .

كذلك كانت حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من اختراع الصينيين ، ولكن عدم وجود حروف هجائية محددة محصورة من جهة ، ووجود نحو ٤٠٠٠٠ من العلامات فى اللغة الصينية المكتوبة من جهة أخرى ، جعلا استعمال هذا الاختراع ترفاً يتعذر الانتفاع به فى بلاد الشرق الأقصى . وقد صنع بى شنج حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من الخزف فى عام ١٠٤١ م ، ولكن هذا الاختراع لم ينتفع به إلا قليلا . وفى عام ١٤٠٣ صنع أهل كوريا أول ما عرف فى التاريخ من حروف الطباعة المعدنية ؛ وكانت طريقة صنعها أن تحفر الحروف أولا على الخشب الصلب ، ثم تصنع لهذه النماذج قوالب من عجين الخزف تجفف فى الأفران ، ثم تصب فيها الحروف المعدنية بعدئذ . وسرعان ما استخدم تاى دزونج أعظم أباطرة كوريا هذا الاختراع لتستعين به الحكومة فى أعمالها ، وللاحتفاظ بالحضارة القائمة . ومن أقوال هذا المليك المستنير : « من شاء أن يحكم فعليه أن يكون ذا علم واسع بالقوانين وبالآداب القديمة ؛ ذلك بأنه إذا عرف هذه القوانين والآداب استطاع أن يكون عادلا مستقيما فى أعماله الخارجية وأمكنه أن يكون بينه وبين نفسه ذا خلق كريم ؛ وبهذا ينشر السلام والنظام فى البلاد . وإذ كانت بلادنا الشرقية تقع وراء البحار ، فإن الكتب التى تصلنا من بلاد الصين قليلة العدد ، وكثيراً ما تكون الكتب المطبوعة على القوالب ناقصة .

« هذا إلى أنه يتعذر طبع كل ما لدينا من الكتب كاملة . ولهذا آمر أن تصنع الحروف من البرنز ، وأن يطبع كل ما تستطيع يداى أن تصل إليه بلا استثناء حتى ينتقل ما تحتويه هذه الكتب إلى أحفادنا من بعدنا ، وتلك نعمة من أجل النعم التى تعود على البلاد إلى أبد الدهر . على أن نفقات هذا العمل الجليل لن تفرض ضرائب على الشعب ، بل سأتحملها أنا وأسرتى ومن يريد أن يُسهم فيها من الوزراء »[١٥]

وانتشرت حروف الطباعة المفردة المتنقلة من كوريا إلى اليابان ثم عادت بعدئذ إلى الصين ، ولكن يظهر أنها لم تعد إليها إلا بعد اختراع جوتنبرج Gutenberg الضئيل فى أوربا . واستمر الكوريون يستخدمون حروف الطباعة المتنقلة قرنين كاملين ثم عفا عليها الزمان . أما فى الصين فإن هذه الحروف لم تكن تستخدم إلا فى أوقات متفرقة ، حتى نقل التجار والمبشرون أساليب الطباعة الغربية إلى بلاد الشرق ، كمن يعيد هدية قديمة إلى مهديها . وظل الصينيون من أيام فنج دو إلى أيام لى هوج — چانج مستمسكين بطريق الطباعة على القوالب لأنهم كانوا يرونها أكثر الطرق ملاءمة للغتهم . واستطاعت المطابع الصينية رغم هذا القصور أن تغمر الشعب بما لا يحصى من الكتب ، فأصدرت فيما بين عامى ٩٩٤ ، ١٠٦٣ م مئات من المجلدات فى تواريخ الأسر الحاكمة ، كما أتمت فى عام ٩٧٢ إصدار قوانين الشريعة البوذية فى خمسة آلاف مجلد[١٦] . ذلك أن الكتاب وجدوا فى يدهم سلاحا لم يكن لهم به عهد من قبل ، وكثر عدد من يقرءون كتبهم فلم يعد مقصوراً على أعيان البلاد ، بل شمل الأعيان والطبقة الوسطى على السواء ، وشمل كذلك بعض أفراد الطبقة الدنيا نفسها . واصطبغ الأدب بصبغة أكثر دمقراطية وأكثر تباينا مما كان عليه من قبل . وجملة القول أن فن الطباعة بالقوالب كان من أسباب النهضة العلمية فى عهد أسرة سونج .

وكان من نتائج هذا الاختراع الجديد أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل ، وأن عمت البلاد نهضة فى الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة فى إيطاليا وسبقتها بمائتى عام كاملة . وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة ، كما طبعت لها شروح وتعليقات تبلغ الألف عدّا . وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية فى الأيام الخالية ، ووضعوها بين أيدى ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة . ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية ، ووضعت معاجم لغوية واسعة ، وألفت موسوعات ضخمة

جبارة انتشرت فى طول البلاد وعرضها ، وكانت أولى ما صدر من الموسوعات ذات الشأن هى الموسوعة التى أصدرها ووشو (٩٤٧ — ١٠٠٢) ؛ وقدحالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائياً ، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات . وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادى .

وفى عام ٩٧٧ أمر الإمبراطور تاى دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى ، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً ، معظمها مختارات من ١٫٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت . ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد فى عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣ — ١٤٢٥) ، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف ، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها . وحدث فى فتنة الملاكمين التى قامت فى عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التى أورثها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً[١٧] . إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها فى ذلك العهد .

٣ — بعث الفلسفة

چو — شى — وانج يانج — منج — ما وراء الخير والشر

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس ، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت فى خلال القرون الخمسة عشر الخالية ، وحدثت فى الحياة العقلية لهذا الشعب الخصيب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها . ولم تقف المبادئ البوذية التى تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى ، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم ، فآثر معظمهم الآن طريقة العزلة والتأمل ، وبلغ من بعضهم أن احتقروا

كنفوشيوس لاحتقاره فلسفه ما وراء الطبيعة ، ونبذوا الطريقة التى كان يتبعها فى معالجة مشاكل الحياة والعقل ، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية فجة إلى حد كبير . وأضحت طريقة التأمل الذاتى هى الطريقة المستحبة فى دراسة الكون والكشف عن خفاياه ، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين ، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدوِّية وسيلة يتحببون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه ، ولاح فى وقت من الأوقات أن سلطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة .

لكن چوشى أنجاه من هذا المصير . وكما أن شنكارا قد طعم الفلسفة العقلية التى سادت الهند خلال القرن الثامن الميلادى بما كان للأبانيشاد أحياناً من فراسة وبُعد نظر ؛ وكما أن أكويناس Aquinas فى أوربا قد مزج فى القرن الثالث عشر مبادئ أرسطو والقديس بولس فأخرج منها الفلسفة الكلامية التى كانت لها الغلبة والسيادة خلال العصور الوسطى ، كذلك فعل چوشى فى الصين فى القرن الثانى عشر ، إذ أخذ حكم كنفوشيوس المتفرقة غير المتماسكة ، وأقام منها طريقة فلسفية بلغت من النظام حداً أرضى ذوق هذا العصر الذى ساد فيه العلماء ، وبلغت من القوة درجة جعلت أتباع كنفوشيوس يتزعمون الحياة السياسية والعقلية فى الصين طوال سبعة قرون

وكان أهم ما ثار حوله الجدل الفلسفى فى ذلك الوقت معنى فقرة فى كتاب العلم العظيم يعزوها كل من چوشى ومعارضيه إلى كنفوسيوس(*) ، فكان المتجادلون يتساءلون : ما معنى هذا المطلب العجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة ، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه ، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص فى التفكير ، وأن الإخلاص فى

(*) أوردنا نص هذه الفقرة كاملا فى ص ٥٥

التفكير ينشأ من « انتشار المعرفة إلى أبعد حد » وذلك عن طريق « البحث عن حقائق الأشياء ؟ » .

وكان جواب چوشى عن ذلك أن هـذه الفقرة تعنى بالضبط ما يفهم من ألفاظها ؛ تعنى أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة . وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التى اتصف بها عقل المعلم الأكبر ؛ ومع أنه كان يجهد نفسه فى دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشيوس لو أنه كان حيا ، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان يعجب حكيم شانتونج . وكان چوشى يعترف بوجود شىء من الاثنينية المتناقضة فى الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب التغيرات الذى كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين ؛ فهو يرى أن اليانج والين — أى الفاعلية والانفعالية ، أو الحركة والسكون — يمتزجان فى كل مكان امتزاج الذكورة والأنوثة ، ويؤثران فى العناصر الخمسة الأساسية : المـاء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجدا منها ظواهر الخلق ؛ وأن اللى والچى — أى القانون والمادة — وكلاهما عنصر خارجى ، يتعاونان معاً للتحكم فى جميع الأشياء وإكسابها صورها ولكن من فوق هذه الصور شىء يجمعها ويؤلف بينها ، وهو التاى چى — أى الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى ، أو بناء العالم . وكان چوشى يقول : إن هـذه الحقيقة المطلقة هى التين أو السماء الذى تقول به الكنفوشية الصادقة . وكان يرى أن الله هو عملية عقلية فى الكون منزهة عن الشخصية أو الصور المحسوسة ، وأن « الطبيعة إن هى إلا القانون »[١٨]

ويقول چو إن قانون الكون السالف الذكر هو أيضاً قانون الأخلاق والسياسة . فالأخلاق الفاضلة هى الانسجام مع قوانين الطبيعة ، وخير أنواع السياسة هو تطبيق قوانين الأخلاق على أعمال الدولة ، والطبيعة فى كل معانيها

تنتهى إلى الخير ، وطبيعة الناس خيرة ، واتباع سنن الطبيعة هو سر الحكمة والسلام . « وقد أبى جوا ماو شو أن يقتلع الأعشاب التى كانت أمام نافذة بيته وقال إن ما يدفعها إلى النماء هو بعينه الذى يدفعنى »[١٩] . ولربما ظن القارئ من هذه الأقوال أن چوشى كان يرى أن الغرائز هى الأحرى طيبة صالحة وأن على الإنسان أن يطلق لها العنان ولكنه لم ير هذا بل كان يندد بها ويقول إنها هى المظهر الخارجى للمادة « چى » ويطالب بإخضاعها لحكم العقل والقانون « لى »[٢٠] . وقد يكون فى هذا شىء من التناقض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أخلاقيا ومنطقياً معاً .

لقد كان فى هذه الفلسفة كثير من التناقض ، ولكن هذا التناقض رغم كثرته لم يثر ثائرة كبير معارضيها وهو وانج يانج — منج صاحب الشخصية الظريفة الفذة . ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً فحسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته نزعة التأمل التى اتصفت بها البوذية المهايانية(*) ، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه . وقد بدا له أن غلطة چوشى الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل فى طريقته ، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العالم الخارجى بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول الهنود . ذلك أن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز ، وفى هذا يقول :

قلت لصديقى تشين فى السنين الخالية : « إذا كان لا بد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكى يكون حكيما أو إنساناً فاضلا ، فكيف يستطيع إنسان فى الوقت الحاضر أن يستحوذ على هذه القدرة العظيمة ؟ » ثم أشرت إلى أعواد الخيزران التى أمام خيمتى وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى

(*) نسبة إلى مهايانا وهى ضرب من البوذية . (المترجم)

نتيجة لخصه . فواصل تشين نهاره بليله يبحث فى عناصر الخيزران ، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاثة أيام كاملة ، حتى نضب معين جهوده العقلية وسئم العمل . وظننت فى بادىء الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل ، فأخذت أنا على عاتقى أن أقوم بهذا البحث ، وقضيت فيه ليلى ونهارى ولكنى عجزت عن فهم كنه الخيزران . وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابنى المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسى وفكرى ؛ فلما التقينا بعدئذ قال كلانا لصاحبه فى حسرة : « إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاصلين »[٢١] .

ومن أجل هذا تخلى وانج يانج — منهج عن بحث طبيعة الأشياء ، بل تخلى أيضاً عن دراسة أمهات الكتب القديمة ، فقد بدا له أن قراءة الإنسان قلبه وعقله وتأملهما فى عزلته يهيئان له من أسباب الحكمة أكثر مما تهيئه له دراسة جميع الكتب والأشياء المادية »[٢٢] . ولما نفى إلى برية جبلية يسكنها أقوام همج وتنتشر فيها الأفاعى السامة اتخذ له من المجرمين الذين فروا إلى هذه الأصقاع أصدقاء وأتباعاً ، وعلمهم الفلسفة وطهى لهم طعامهم وأنشد لهم الأناشيد . وفى ذات مرة ، بينما هو قائم بالحراسة فى منتصف الليل ، قفز من كوخه على حين غفلة وصاح قائلا : « لا شك فى أن طبيعتى وحدها كافية . ولقد أخطأت حين أخذت أبحث عن المبادىء فى الأشياء المادية وفى شئون الخلق » . ولم يكن رفاقه واثقين من أنهم يدركون ما يرمى إليه ؛ ولكنه لم يلبث أن أرشدهم إلى الغاية المثالية التى كان يرمى إليها فقال : « إن العقل نفسه لينطوى على القانون الطبيعى ، وهل فى الكون شىء يوجد مستقلا عن العقل ؟ وهل ثمة قانون لا صلة له بالعقل؟»[٢٣] ولم يستدل من هذا على أن الله من تصوير الخيال ، بل كان يعتقد أنه قوة أخلاقية غامضة ولكنها قادرة على كل شىء ، وأنها أعظم من أن تكون إنساناً وأنها قادرة على أن تحس بالعطف والغضب على الخلق[٢٤] .

ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التى وصل إليها چوشى والقائلة إن الطبيعة هى الخير الأسمى ، وإن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة(٢٥) . ولما قيل له إن فى الطبيعة أفاعى كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس واسپنوزا Spinoza ونتشة فقال إن « الخير » و « الشر » إن هما إلا رأيان مبتسران ولفظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبنى الإنسان . وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر وأنها لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأنانية . وقد نقل عنه أحد تلاميذه ، أو لعله وضع من عنده ، حواراً كان فى مقدوره أن يعنونه : *ما وراء الخير والشر*

ثم قال بعد ذلك بقليل :« إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر فى الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة » . ولم أستطع فهم هذا فقال المعلم : « إن الغرض الذى تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل فى الأزهار والحشائش،فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما فنقول إن هذه خير وتلك شر ؟ فإن كنت أنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت إن الأزهار حسنة والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب فى أن تنتفع بالحشائش فإنك ترى فيها الخير كل الخير ؛ وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن فى عقلك من حب هذا الشىء أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ » .

فقلت له : « وفى هذه الحال لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟ »

فأجاب المعلم : « إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعى لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هى الحالة التى يوجد فيها الخير والشر كلاهما . فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذى يطلق عليه اسم الخير الأسمى ... »

فقات : « وإذن فالخير والشر لا يوجدان قط فى الأشياء نفسها ؟ » فقال : « إنهما لا يوجدان إلا فى عقلك » .

لقد كان من الخير أن يضرب وانج وأن تضرب البوذية على هذه النغمة ، نغمة ما وراء الطبيعة المثالية ، فى أبهاء الكنفوشيين الصادقين والمتأنقين ؛ ونقول المتأنقين لأن هؤلاء العلماء كانوا مفتونين بعض الافتتان بحكمتهم ، وأنهم أضحوا يؤلفون فيما بينهم بيروقراطية ذهنية متعبة مملة معادية لكل روح مبدعة معرضة للخطإ ، وإن كانت نظرتهم إلى الطبيعة البشرية وإلى الأداة الحكومية أصدق ما تصورته الفلسفة من نظريات ، وأكثرها عدالة . وإذا كان أتباع چوشى قد كتب لهم النصر على معارضيهم فى آخر الأمر ، وإذا كانت اللوحة التذكارية التى نقش عليها اسمه قد حظيت بشرف وضعها فى البهو الذى وضعت فيه لوحة المعلم نفسه (كنفوشيوس) ، وإذا كان شرحه لأمهات الكتب الصينية قد أصبح هو القانون الذى يرجع إليه كل تفكير سليم مدى سبعمائة عام ، إذا كان هذا وذاك قد حدث فإن حدوثه كان نصراً مؤزراً للعقلية السليمة البسيطة غير المعقدة على التحذلق المزعج الذى كان يعمد إليه أصحاب العقول الميتافيزيقية . ولكن الأمة كالفرد قد تفرط فى الحساسية ، وقد تكون عاقلة رزينة فوق ما يجب ، وقد تسرف فى الاستمساك بالحق والصواب إسرافاً لا يطاق . ولقد كان انتصار چوشى والكنفوشية هذا الانتصار الكامل من الأسباب التى جعلت ثورة الصين ضرورة لا بد منها .

الفصل الثاني

البرنز واللَّكّ واليَشْب

منزلة الفن فى الصين – المنسوجات – الأثاث – الحلى – المراوح – صنع اللك – قطع حجر اليشب – روائع فنية فى البرنز – النحت الصينى

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصينى ، وفى استطاعتنا أن نُعرِّف بلاد الصين بأنها بلاد الفاسفة والخزف ، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً . وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه فى بلاد الصين الجرى وراء أخيلة ميتافيزيقية لا علاقة لها بالحياة ، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعى ، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً فى النفس أو هواية خيالية للأشكال الفنية التى لا صلة لها بالشئون الإنسانية ، بل كان تزاوجاً أرضياً وثيقاً بين الجمال والمنفعة ، وتصميماً عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها .

ومن أجل ذلك ظلت الصين ، إلى الوقت الذى أخذت فيه تُخضع مثلها العليا لتأثير الغرب ، تأبى أن تعترف بوجود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا وبين العامل العادى . ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدى البشرية ، وكان كل ما تعمله الأيدى منها حِرَفاً متقنة ؛ وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشىء المصنوع ، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد فى الذوق الفنى وفى كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التى تستخدمها فى حياتها اليومية ، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التى تنعم بها كثرة الناس فى البلاد الغربية . فقد كان الصينى المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به ، من الحروف التى يكتب بها إلى

الصحاف التى يأكل فيها ، مما يشبع حاسة الجمال ، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الناضجة الذى هو رمز لها وقطعة منها .

وبلغت هذه الحركة التى ترمى إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها فى عهد أسرة سونج . لقد كانت هذه الحركة عنصراً من عناصر الحياة فى عصر أسرة تانج ، وكان من شأنها أن تستمر وتنتشر فى عهد الأسر التى أعقبتها ؛ ولكن عهد



شكل ١ — علبة الحلى من الك الأزرق

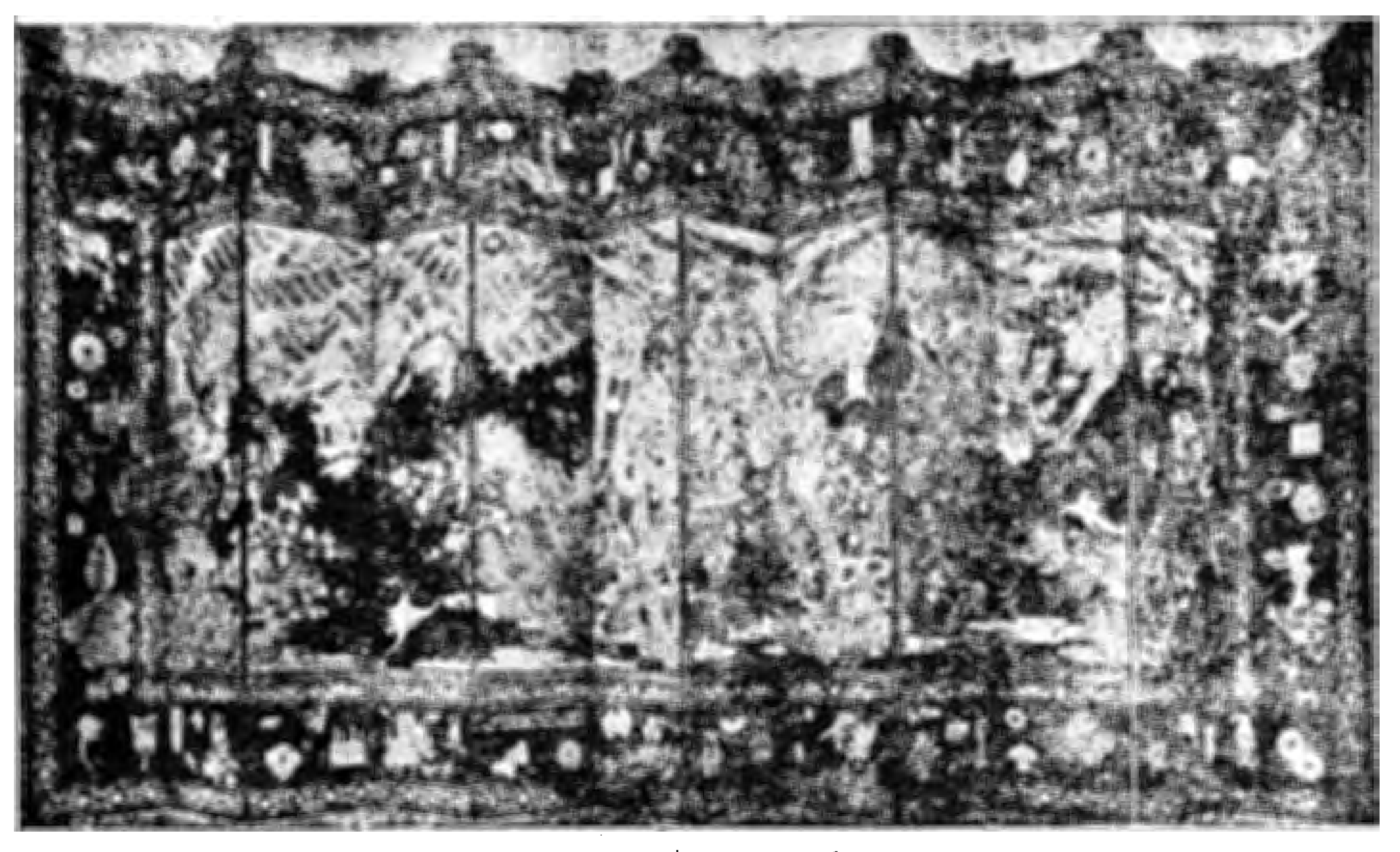
النظام والرخاء الطويل الذى عم البلاد بعد تلك الأسرة قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء ، وخلع على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع بمثلهما من قبل . وقد بلغ الصناع الصينيون فى صناعة النسيج والمعادن فى عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقهم فيها أحد قبلهم ، وبزوا جميع منافسيهم فى كافة أنحاء العالم فى قطع اليشب وغيره من الأحجار الصلبة ، ولم يتفوق عليهم فى نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين[٢٧] . لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة ، فذة فى صورتها ولكنها غير مريحة لصاحبها ؛ وكان صناع الأثاث ، الذين تكفيهم صحفة من الأرز يوما كاملا ، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة .

وكان الفنان ذو اليد الصناع الذى يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره يتخذها بديلا من الأثاث الغالى الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية ، وكانت تبعث فى نفس مالكها بهجة لايدركها فى بلاد الغرب إلا الخبراء الإخصائيون .

أما الحلى فلم تكن موفورة العدد ولكنها كانت بديعة القطع ، وكان الرجال والنساء يبردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران ، أو الورق أو الحرير الملوّن ، بل إن المتسوّلين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرفتهم التليدة .

ونشأ فن الطلاء باللك فى الصين ، وبلغ ذروة الكمال فى اليابان . واللك فى بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعى لشجرة[*] أصلها من أشجار الصين ، ولكنها الآن تزرع بكثرة فى بلاد اليابان ، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها ، ثم

(*) اسمها العلمى Rias Vernicifere . واللك مشتقة من الأصل الفرنسى لكر ومعناه اللّى ، والكلمة الفرنسية نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية Lac ومعناها اللّبن . واللّى التى اخترناها لترجمة كلمة Resin الإنجليزية معناها كما ورد فى القاموس : « شىء يسقط من شجر السمر وما رق من العلوك حتى يسيل » .   (المترجم)



شكل ٢ — ستار كانج شى المطلى بالك

يصفى ويغلى ليزول منه ما لا حاجة لهم به من السوائل ، ويطلى به الخشب الرقيق كما يطلى به المعدن والخزف فى بعض الأحيان ، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة[٢٨] . ويتكوّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبذل فى تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة ، وتختلف كل طبقة عن غيرها فى لونها وسمكها . وينقش الصينيون بعدئذ هـذه الطبقات بعد تمامها بآلة حادة على شكل (٧) بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذى يتطلبه الشكل المطلوب .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ فى صورة كتابة على شرائح من الخيزران ؛ وكانت مادة اللك تستخدم فى عهد أسرة چو لتزيين الأوانى والسروج والعربات وما إليها . ثم استخدم فى القرن الثانى بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية ؛ وفى عهد أسرة تانج أصدرت الصين كثيراً من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان .

ولما تولت المُلك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها ، وكانت ترسل منتجاتها بحراً إلى الثغور النائية كثغور الهند وبلاد العرب . ولما ولى المُلك أباطرة أسرة منج خطا الفن خطوة أخرى فى طريق الكمال ، وبلغ فى بعض نواحيه ذروته[٢٩] . فلما جلس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج — شى ، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة ، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج[٣٠] والستر الذى أهداه كانج — شى إلى ليوبولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية[٣١] . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر ، فكانت الحرب التى أوقد نارها التجار الأوربيون وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أذواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً فى حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه وانحطت رسومه ، وانتقلت زعامته إلى اليابان .

أما صناعة اليشب فهى قديمة قدم التاريخ الصينى نفسه ، وشاهد ذلك أن آثارها وجدت فى أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات أول استخدامه « حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكة أو نحوها تعلق فى إسار ؛ فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم مدى مدهشاً فى طوله . والاسم الإنجليزى لهذا الحجر Jade مشتق من اللفظ الأسپانى ljada (المأخوذ عن اللفظ اللاتينى llia) عن طريق اللفظ الفرنسى Jade ومعناه الحقو . ولما فتح الأسپان أمريكا وجد الفاتحون أهل المكسيك الأقدمين يأتون بهذا الحجر مسحوقاً ومعجوناً بالماء ليعالجوا به كثيراً من الأمراض الباطنية ، فلما عادوا إلى أوربا حملوا معهم هـذا العلاج هو والذهب الأمريكى إلى بلادهم . أما الاسم الصينى لهـذا الحجر فهو أليق به من الاسم الأوربى وأكثر مطابقة للمعقول . فلفظ چون الذى يطلق عليه معناه لِّين كالندا[٢٢] ، ويتركب حجر اليشب من معدنى الجاديت والتفريت ، والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصوديوم ويتكون الثانى من الكلسيوم والمغنيزيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طناً فى بعض الأحيان وتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعريضها إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفى وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابرته ، حتى يخرج منه أشكالا مختلفة لا عداد لها ، حتى لا يكاد الإنسان يجد بين مجموعات اليشب التى فى العالم كله قطعتين متماثلتين ، اللهم إلا أزرار الملابس .

وكان أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قرباناً مقدساً[٢٣] ، وصنعت منه أدوات غاية فى الجمال فى أيام

كنفوشيوس (٣٤) . وبينما كان الناس فى غير الصين يتخذون من اليشب فؤوساً ، ومدى وأوانى ، فإن الصينيين كانوا يعظمون هذا الحجر تعظيما حملهم على ألا يستخدموه إلا فى التحف الفنية الجميلة ، إذا استثنينا بعض القطع النادرة القليلة العدد . وكان عندهم أثمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها (٣٥) . وكانوا يقدرون بعض مصنوعات اليشب الصغيرة كخواتم الإبهام التى يتحلى بها كبار الحكام الصينيين بما يقرب من خمسة آلاف ريال ، ويقدرون بعض القلائد اليشبية بمائة ألف ريال . وكان المعنيون بجمع القطع النادرة منه يقضون السنين الطوال فى البحث عن قطعة واحدة ، ويقال إن ما يوجد فى الصين من التحف اليشبية إذا جمعت فى مكان واحد تكونت منها مجموعة لا تماثلها مجموعة من أية تحف صنعت من مادة أخرى فى جميع أنحاء العالم (٣٦) .

ولا يكاد البرنز يقل قدماً عن اليشب فى الفن الصينى ، وهو يفوقه مقاماً وتقديراً عند الصينيين . وتروى الأقاصيص الصينية أن الإمبراطور يو ، أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصينى ، تلقى المعادن التى بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهى الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة قدور لكل منها تسع أرجل ، لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل ما يوضع فيها من المواد يغلى بغير نار ، ويخرج منها كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

ثم أصبحت هذه القدور الرمز المقدس للسلطة الإمبراطورية . وتوارثتها الأسر واحدة بعد واحدة ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التى قبلها ، ولكنها اختفت بطريقة مجهولة غامضة بعد سقوط أسرة چو ، وهى حادثة كان لها أسوأ الأثر فى منزلة شى هوانج — دى . ثم أصبح صب البرونز ونقشه فناً من الفنون الجميلة الصينية ، وأخرجت منه البلاد مجموعات تطلب حصر أسمائها وتصنيفها اثنين وأربعين مجلداً (٣٧) . وكان يصنع منه أوانى للحفلات الدينية التى

تقيمها الحكومة أو يقيمها الأفراد فى منازلهم ، وقد أحال آلافاً من أنواع الأوانى المنزلية إلى تحف فنية . وليس فى العالم كله ما يضاهى مصنوعات الصين البرنزية إلا ما صنع منه فى إيطاليا فى عهد النهضة الأوربية ، ولعلها لا يضاهيها من هذه المصنوعات إلا « أبواب الجنة » التى وضع تصميمها غبرتى Ghiberti ليزين بها موضع التعميد فى فلورنس .

وأقدم ما لدينا من القطع البرنزية الصينية أوانى قربانية كشفت حديثاً فى هونان ؛ ويرجعها العلماء الصينيون إلى عهد أسرة شانج ، ولكن الخبراء الأوربيين يرجعونها إلى عهد متأخر عن ذلك الوقت وإن كانوا لا يحددونه تحديداً مضبوطا . وأقدم الآثار المعروف تاريخها هى التى ترجع إلى عهد أسرة چو ومن أروعها كلها مجموعة آنية الحفلات المحفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

وقد استولى شى هوانج — دى على معظم ما كان لدى أسرة چو من آنية برنزية لئلا يصهرها الأهلون ليتخذوا منها أسلحة . وصنع مما تجمع له من هذا المعدن اثنى عشر تمثالا ضخما يبلغ ارتفاع كل منها خمسين قدماً[٣٨] ، ولكن هذه التماثيل كلها لم تبق منها قدم واحدة . وقد صنعت فى عهد أسرة هان كثير من الآنية الجميلة طعمت أحياناً بالذهب .

وليس أدل على رقى هذا الفن فى الصين من أن الفنانين الذين دربوا فى تلك البلاد هم الذين صنعوا عدداً من التحف التى تعد من روائع الفن ، والتى زين بها هيكل هريو چى فى مدينة نارا اليابانية . وأجملها كلها ثلاثة تماثيل لأميدا — بوذا تصورها جالسة على أسرة فى صوره زهرة الأزورد[٣٩] ؛ وهى أجمل ما وجد من التحف فى تاريخ صناعة البرنز فى العالم أجمع[*] ووصل فن البرنز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج ، وإذا كانت التحف التى صنعت منه لم ترق إلى ذروة الكمال فإنها قد بلغت الغاية فى كثرة عددها وتباين أشكالها ؛ فقد صنعت منه قدور

(*) انظر الفصل السابع من الباب الثلاثين فى تاريخ اليابان .

ودنان خمر ، وآنية ، ومباخر ، وَأسلحة ، وَمرايا ، وَنواقيس ، وَطبول



شكل ٣ تمثال من البرنز لجوان – ين من عصر سوى
محفوظة فى متحف نيويورك

ومزهريات ؛ وكانت الآنية المنقوشة ولتماثيل الصغيرة تملأ الرفوف فى دور خبراء الفن وهواته ، وتجد لها مكانا فى كل بيت من بيوت الصينيين .

ومن أجمل النماذج الباقية من أيام أسرة سونج مبخرة فى صورة جاموس البحر ، وقد ركب عليها لو — دزه وهو هادئ مطمئن ليثبت بهذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة(٤٠) ، ولا يزيد سُمك جدران المبخرة على سُمك الورق ، وقد اكتسبت على مر الزمان قشرة أو طبقة خضراء مبرقشة خلعت عليها جمال القدم(*) ، ثم انحط هذا الفن انحطاطاً تدريجياً بطيئاً فى عهد أسرة منج ، فزاد حجم التحف وقلّت جودتها ، وأصبح البرنز ، الذى كان مقصوراً على صنع آيات الفن فى عهد الإمبراطور يو ، فناً عاما تصنع منه الآنية العادية التى تستخدم فى الأغراض اليومية ، وتخلى عن مكانته الأولى للخزف .

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى ، ولا من الفنون الجميلة ، عند الصينيين(٤١) . وسبب هذا أن تواضُع الشرق الأقصى قد أبى عليه أن يتخذ الجسم البشرى نموذجاً من نماذج الجمال . ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشريه حرفة لهم وجهوا قليلا من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس ، واستخدموا تماثيل الرجال — وقلما استخدموا تماثيل النساء — لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها ؛ ولكنهم لم يمجدوا الأجسام البشرية . ومن أجل ذلك تراهم فى الغالب قد قصروا تصوير الأناسى على تماثيل القديسين البوذيين والحكماء الدوِّيين ، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسرارى ممن كانوا وكنّ مصدر الإلهام للفنانين من اليونان .

(*) الكلمة الإنجليزية Patina أى القشرة مشتقة من كلمة لاتينية معناها طبق وتستعمل للدلالة على الطبقة التى تتكون من انحلال السطح المعدنى المتعرض لرطوبة الجو . ومن عادة هذه الأيام أن يكون من عوامل تقدير قيمة التحف البرنزية ما يغشاها من طبقة خضراء أو سوداء تكونت عليها من مر الزمان ، أو من الأحماض التى تستخدم فى تقليد الروائع الفنية القديمة .

وكان المثالون الصينيون يفضلون تمثيل الحيوانات على تمثيل الفلاسفة والحكماء أنفسهم .

وأقدم ما نعرفه من التماثيل الصينية التماثيل الإثنا عشر الضخمة المصنوعة من البرنز ، والتى أقامها شى هوانج — دى . وقد صهرها فيما بعد أحد الحكام من أسرة هان ليتخذ منها « فكة »[*] برنزية . وبقى من أيام أسرة هان عدد قليل من التماثيل البرنزية ، ولكن كل ما صنع منها فى ذلك العهد إلا قلة ضئيلة قضت عليه الحرب أو قضى عليه الإهمال الطويل الأمد . والتماثيل البشرية قليلة أيضاً فى هذه القلة الباقية ، والأثر الهام الوحيد الباقى من أيام أسرة هان نقش بارز من نقوش القبور ، عثر عليه فى شانتونج . وصوَر الآدميين قليلة نادرة فى هذا النقش أيضاً ، وأهم ما يشغل رقعته صور حيوانات بارزة رقيقة . وأقرب من هذا النقش إلى صناعة النحت التماثيل الجنازية الصغيرة المتخذة من الصلصال — وأكثرها يمثل حيوانات ومنها قلة تمثل خدماً أو زوجات — وكانت تدفن مع الموتى من الذكور عوضاً عن الأزواج والخدم الأحياء . وقد بقيت من هذا العهد تماثيل مستقلة لحيوانات منها تمثال رخامى لنمر كله عضلات يمثل اليقظة أدق تمثيل ، وكان يتولى حراسة معبد اسنيانج — فو[٤٢] ؛ ومنها الدببة المزمجرة التى تشتمل عليها الآن مجموعة جاردنر Gardner فى مدينة بسطن Boston ، ومنها الآساد المجنحة المصابة بتضخم الغدة الدرقية والتى وجدت فى مقابر نانكنج[٤٣] . وكل هذه الحيوانات والخيول المزهوة الممثلة فى نقوش القبور البارزة السالفة الذكر تشهد بما كان للفن اليونانى البكترى والفن الأشورى والسكوذى من أثر فى الفن الصينى ؛ وليس فيها شىء من مميزات الفن الصينى الخالص[٤٤] .

وفى هذه الأثناء كانت الصين قد بدأت تتأثر بشىء آخر هو أثر الدين

(*) لم نر فى فقه اللغة ما يمنعنا من استعمال هذا اللفظ بمعناه المعروف فالفك والافكاك هو الفصل والتفكك عدم التماسك (المترجم)

والفن البوذيين ، وقد استوطن هذا الفن البوذى فى أول الأمر التركستان ، وأقام فيها صرح حضارة كشف اشتين Stein وپليوت Pelliot فى أنقاضها عن أطنان كثيرة من التماثيل المحطمة يضارع بعضها أكثر ما أخرجه الفن الهندى البوذى . واستعار الصينيون هذه الأشكال البوذية من غير تغيير كبير فيها ، وأخرجوا على غرارها تماثيل لبوذا تضارع فى جمالها ما صنع فى جندارا أو فى الهند . وأقدم هذه التماثيل ما وضع فى معابد يون كان الكهفية فى شانسي (حوالى ٤٩٠م) ، ومن أحسنها تماثيل مغارات لونج مِنْ هونان ، فقد أقيمت فى خارج هذه المغارات عدة تماثيل ضخمة أعجبها كلها تمثال بوذيستوا الجميل ، وأروعها بوذا « ڤيروشانا » (حوالى ٦٧٢ م) الذى تحطم جزء منه عند قاعدته ، ولكنه لا يزال محتفظا بروعته الموحية الملهمة[٤٦] . وإلى شرق هذا الإقليم فى شانتونج وجد كثير من معابد الكهوف نقشت على جدرانها أساطير على الطريقة الهندية يظهر فى أماكن متفرقة منها تمثال قوى لبوذيستوا شبيه بالتمثال الذى فى كهف يون من ، (ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ٦٠٠ م)[٤٧] . واحتفظت أسرة تانج بالتقاليد البوذية فى النحت ، وقد بلغ درجة الكمال فى تمثال بوذا الجالس (حوالى ٦٣٩ م) الذى عثر عليه فى ولاية شِنسى Shensi [*][٤٨] . وأخرجت الأسر التى جاءت من بعدها تماثيل ضخمة من الصلصال تمثل أتباعاً لبوذا الظريف لهم وجوه كالحة كوجوه رجال المال[**] ، كما أخرجت عدداً من التماثيل الجميلة تمثل كوان — ين إله مهايانا وهو يوشك أن يتحول من إله إلى إلهة[٤٩] .

وفقد فن النحت إلهامه الدينى بعد أسرة تانج ، واصطبغ بصبغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية ، حتى شكا رجال الأخلاق فى ذلك الوقت ، كما شكا رجال الأخلاق فى إيطاليا فى عصر النهضة ، من أن الفنانين ينحتون

(*) هى عبر ولاية شانسى المعروفة

(**) فى المتحف الفنى بنيويورك نماذج من هذا الطراز .

للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء ، فوضع الكهنة البوذيون قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم . ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هي التي عاقت تقدم فن النحت . ذلك أنه لما أن فقد الدافع الديني أثره المحرك القوي في الفن ، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثماني بأن يكون لها شأن فيه ، اضمحل فن النحت في بلاد الصين ، وقضى الدين على ما لم يعد في مقدوره أن يكون له ملهماً . وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار في فن النحت ينضب معينه . وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التي أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل ؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بجهودهم ؛ وأما أباطرة المنج فقد نبغ في عهدهم بعض المثالين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالمولات التي تقف أمام مقابر أباطرة المنج . فلما ضيّق الدين الخناق على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخلى ميدان الفن الصيني للخزف والنقش .

الفصل الثالث

المعابد (البجودا) والقصور

العمارة الصينية – برج نانكنج الخزفي – بجودا بيچينج اليشمي – هيكل كنفوشيوس – هيكل السماء ومذبحه – قصور كوبلاي خان – بيت صيني – داخل البيت – لونه وشكله .

كذلك كانت العمارة من الفنون الصغرى فى بلاد الصين ، ولم يكد يترك من كان فيها من البنائين العظام أثراً لهم يخلد ذكراهم ؛ ويلوح أن الشعب لم يكن يجلهم إجلاله صناع الخزف الكبار . والعمائر الضخمة نادرة فى بلاد الصين حتى ما شيد منها تكريماً للآلهة ، وقلما نجد فيها مبانى قديمة ، وليس فيها إلا القليل من المعابد التى يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر .

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج فى عام ١١٠٣ م ثمانية مجلدات موضحة بالرسوم الجميلة فى شرح أساليب العمارة ؛ ولكن الآيات الفنية التى صوروها كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم . ويستدل من الرسوم المحفوظة فى المتحف الأهلى فى باريس ، والتى يقال إنها تمثل المساكن والهياكل فى أيام كنفوشيوس ، على أن فن العمارة الصينية قد قنع فى خلال تاريخه الطويل الذى دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه فى تلك الأيام الخالية من أشكال وأحجام متواضعة[٥٠] .

ولعل إحساس الصينيين المرهف فى مسائل الفن والذوق هو الذى حدا بهم إلى نبذ ما عساه أن يبدو من العمائر خالياً من الاحتشام مفرطاً فى الضخامة ، أو لعل تفوقهم فى الذكاء قد حد بعض الشىء من مدى خيالهم . ومهما يكن سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً انعدام ثلاث قوى

لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة ، وتلك هى الأرستقراطية الوراثية وطبقة الكهنة القوية[٥١] والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان[٥١] ذلك أن هذه القوى هى التى كانت فى الأيام الخالية تبذل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة ، من هياكل وقصور ومسارح ومظلات ومقابر منحوتة فى الصخور. ولقد انفردت الصين من بين الأمم القديمة بأنها لم تبتل بهذه النظم الثلاثة .

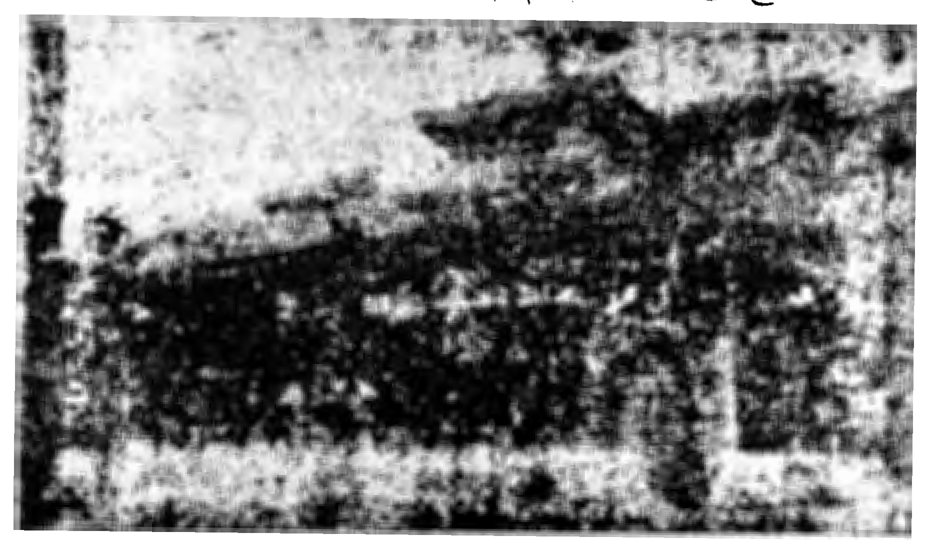
غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفى من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التى كشفت بقاياها أخيراً فى التركستان[٥٢]. ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية فى أنحاء كثيرة من بلاد الصين ، ولكنها لم تسم إلى ما سمت إليه العمائر الدينية فى بلاد الهند . ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايلو ، ولعلها مأخوذة عن درابزين الأضرحة البوذية الهندية .

وتحرس مداخل هذه الهياكل فى بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين الأجنبية فتبعدها عنها بطريقة ما . ومن أجمل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفى المشيد خارج بيچنج . ويرى فرجسون Fergusson أنه « أجمل ما أخرجه فن العمارة فى بلاد الصين »[٥٣] .

غير أكثر ما يميز الشرق الأقصى فى فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (البجودات) التى تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً[*] . وقد

(*) ولا تزال أصل هذه القصور ومنشأ اسمها الصينى « البجودات » مثاراً للبحث والجدل العنيف . وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من اللفظ الهندى الفارسى بت — كده أى « بيت الأصنام » ، وقد يكون شكلها صينى المنشأ كما يظن بعض المؤرخين ، أو قد يكون مشتقا من السُّرج الذى كان يشرف على بعض الأضرحة الهندوكية[٥٥] .

اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التى ألهمت من شادوها ، ببعض الخرافات الدوِّية التى كانت منتشرة فى البلاد ، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية . وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تقى الناس غوائل الأعاصير والفيضان ، وتسترضى الأرواح الشريرة ، وتجتذب الرخاء ورغد العيش . وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعاً أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية فى اعتقادهم أعداد مشئومة(٥٦) . وأقدم البجودات التى لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة فى سونج إيو — سو ، والتى شيدت فى عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس فى هونان . ومن أجملها البجودة الصيفية ، وأروعها منظراً بجودة اليشب فى بيجنج و « بجودة المزادة » فى وو — واى — شان ، وأوسعها شهرة برج الخزف فى نانكنج (نانچنج) وقد شيد فى ١٤١٢ — ١٤٣١ ، ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر . وقد دمر هذا البرج فى ثورة تايينج التى استعرت فى عام ١٨٥٤ .



شكل ٤ — القصر الصيفى فى پيپنج

وأجمل الهيا كل الصينية هى التى كانت مخصصة للديانة الرسمية فى پيچنج (پيكنج) . ومن هذه الهيا كل هيكل كنفوشيوس ، ويحرسه باى — لو ، نخم محفور أجمل حفر ، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن . وقد شيد فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات . وقد وضعت « لوحة روح أقدس القديسين المعلم والألب كنفوشيرس » ، على قاعدة خشبية فى مشكاة مفتوحة فى الهيكل ، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسى : « إلى المعلم الأعظم والمثال الذى تحتذيه عشرة آلاف جيل » . ويقوم بالقرب من سور پيچنج التتارى الجنوبى هيكل



شكل ٥ — هيكل السماء فى پيپنج

السماء ومذبح السماء . والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التى كان لعددها الكبير ونظامها أثر سحرى فى نفوس الزائرين . والهيكل نفسه بجودة معدلة من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخالبين من الرونق . وكان الإمبراطور فى الأيام الخالية يأتى إلى هذا المكان فى الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء ، ويقرب القربان للسماء التى يرجو أن تكون فى صفه لا فى صف أعدائه ، ولم تكن السماء ذكرا أو أنثى عندالصينيين بل كانت جمادا . وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد فى عام ١٨٨٩ فأصابته بضرر بليغ(٥٧) .

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء ، وأكثر منها جاذبية ، القصور المدينة الضعيفة البناء التى كانت مساكن للأمراء وكبار الحكام فى بيچنج . ومن أجمل هذه المبانى البهو الأكبر ، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج دزو (١٤٠٣ — ٢٥) ، كما شادوا عددا من المساكن الملكية فى بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة » أقيمت فى الموضع الذى شاهد فيه ماركو پولو قصر كوبلاى خان قبل ذلك العهد بمائتى عام ، فدهش منه وأعجب به أيما إعجاب ، وتقوم آساد بشعة الخلقة على جانبى الدرزين الرخامى المؤدى إلى الشرفة الرخامية . وقد شيدت فى هذا المكان مبان رسمية ، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة .

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التى كانت تسكنها فى الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسراريهم . ولا تكاد هذه القصور تختلف بعضها عن بعض . ففيها كلها العمد الرفيعة ، والنوافذ المتشابكة الجميلة ، والطنف المنحوتة أو المسطورة ، والألوان الكثيرة الزاهية

والرفارف المقوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة . وشبيه بهذه المتع المحرمة على غير هذه الطبقات من الأهلين القصر الصيفى الثانى الذى يبعد عن هذا المكان بضعة أميال ٍ ولعله أكثر رشاقة وتناسباً وتأنقاً فى النحت من البيوت التى كانت فى يوم ما مساكن للملوك فى بيجنج .

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية فى عبارة موجزة قلنا : إن من أول مظاهرها السور المجرد من الجمال الذى يفصل المبنى الرئيسى عن الطريق العام . وهذه الأسوار تمتد فى الأحياء الفقير من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض ، وتدل على أن الحياة فى هذه الأحياء كانت غير آمنة . ويحيط هذا السور بفناء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت . وبيوت الفقراء مساكن كئيبة مظلمة ، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة ، وأرض من التراب . وفى كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والرجال والنساء فى حجرة واحدة . وتعيش أفقر الأسر فى أكواخ من الطين والقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح ، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد . أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلى ببعض الشجيرات والأزهار والبرك ، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يغرسون فيها مختلف الأشجار ، ويمرحون فيها ويلعبون . ولا نرى فى هذه الحدائق طرقات تزينها الورود ، وممرات غرست حولها الأزهار ، ومربعات أو دوائر أو مثمنات من الكلأ أو الزهر ؛ بل نرى بدلا منها مماشى ضيقة لا تثبت على حال ، تتلوى فى بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالا غريبة ترضى عنها النفوس السوفسطائية . وترى فى أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغصون يستريح فيها الجائلون .

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للعظماء ، فهو لا يزيد على طبقة

واحدة ، وإذا احتاجت الأسرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم . ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء ، بل يتكون من عدة مبان تمتد أهمها فى وصف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبيها المبانى الثانوية التى تقل عن الأولى شأنا . وأكثر ما تبنى منه المنازل الخشب والآجر ، وقلما تعلو الحجارة إلى أكثر من الشرفات التى فوق الأساس .

وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران الخارجية ، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة ، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب . وكانت تعلو الجدران الزاهية الألوان طنف ذات نقوش . وليست الجدران ولا العمد هى التى تحمل السقف ، بل إن هذه السُّقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءا من الهيكل الخشبي للمنزل . والسُّقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصينى ، فهو يبنى من القرميد المصقول البراق — ذى اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور ، وإلا فهو أخضر أو أرجوانى أو أحمر أو أزرق . وهو يبدو جميلا وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية ، بل إنه ليبدو كذلك حتى فى فوضى شوارع المدن ، ولربما كانت أعواد الخيزران التى تبرز أطرافها من أعلى الخيام هى التى أقيمت على غرارها فى بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيقة المنحنية إلى أعلى ، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذيوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين فى وقاية البناء كله من مياه الأمطار[٥٨] .

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة فى المبانى الصينية ، وكان يحل محلها الورق الكورى Korean[*] أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة ، وهذه لا تقى الحجرات من الأمطار .

(*) نسبة إلى كوريا Korea

ولا يقع مدخل البيت الرئيسى عند طرفه ذى السقف المرمى ، بل يقع عند واجهته الجنوبية . ويقوم فى داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من فى داخل الدار ، ويقف فى طريق الأرواح الخبيثة التى لا تسير إلا فى خطوط مستقيمة ، وردهة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والطنف البارزة . وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المشبكة والطنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار. وقلما تجد فى المنزل وسائل لتهوية الغرف ، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا المجامر المتنقلة ، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مُدْخنة . وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها الدخان[٥٩] . والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأتون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة[٦٠] . وإذا التقى السائح بصينى سأله : « أأنت بردان ؟ فيجيبه هذا بقوله : بطبيعة الحال »[٦١] ، وقد تعلق فى سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان ، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحبر ، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلا ومنقوش عليها مناظر ريفية . ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البرّاق والمنحوت نحتاً جميلا . أما القطع ذات الألوان الفاتحة فتطلى بالك البراق . والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التى يجلس أبناؤها(*) على كراسى ، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متكئين أو متربعين ؛ وهم يضعون ، على نضد خاص ، الأوانى التى تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات . وتقع فى مؤخرة الدار حجرات النساء ، وقد توجد فى حجرات مستقلة أو فى بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة .

والأثر العام الذى تتركه العمائر الصينية فى ذهن المشاهد الأجنبى غير الفنى هو ما تتصف به من وهن سحرى يأخذ بالألباب ؛ واللون يطغى فيها على

(*) لعله يقصد بأبنائها جمهرة الشعب . (المترجم)

الشكل ، ومن واجب الجمال فيها أن يستغنى عن الضخامة والعظمة . والهيكل أو القصر الصينى لا يتطاول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملا يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها . والعمائر الصينية تعوزها الصفات التى تكسبها متانة وأمناً وطول بقاء ، كأن من شادرها يخشون أن تذهب الزلازل بجهودهم .

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمى إلى ذلك الفن الذى أقام آثار الكرنك وبرسيوليس ، والآثار التى شيدت على الأكروبول ؛ فليست هى عمائر بالمعنى الذى يفهمه الغربيون من هذا اللفظ ، بل هى حَفْر فى الخشب ، وطلاء للخزف ، ونحت فى الحجر . وهى أكثر انسجاما مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التى أقامها فنا الهندسة والمعمار فى بلاد الهند وبلاد النهرين ورومة . وإذا لم نتطلب إليها العظمة والصلابة التى ربما لم يعن بها مَن أنشئوها ، وإذا أخذناها على أنها أصداف تعبر عن أرق الأذواق فى أضعف أشكال المبانى وأقلها بقاء ، إذا فعلنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصينى الطبيعية التى تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التى ابتدعها الإنسان .

الفصل الرابع

التصوير

١ — أساتذة فن التصوير الصينى

جوو كاى — چيه «أعظم مصور ، وأعظم فكه ، وأعظم أبله» — صورة هان يو الصغيرة — المدرستان الإتباعة والابتداعية — وبج واى — وو داو دزه — هو درونج الإمبراطور الفنان — أساتذة عصر سونج

لقد أبطأ الغرب فى دراسة فن التصوير الصينى ، وليس عليه فى ذلك لوم ، لأن مناحى الفن وأساليبه فى الشرق تكاد كلها تكون مغايرة لمناحيه وأساليبه فى الغرب ؛ وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين فى بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش ؛ وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران ، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذى ؛ ونجد فى بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذى ؛ كل هذا نجده ولكنه قليل ، أما معظم الرسوم الصينية فهى على الحرير ؛ ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً فى تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين ؛ يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة ، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه فى الصور الزيتية الأوربية من تلوين يظهرها للعين وكأنها صور مجسمة نكاد نلمسها باليد . ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتى ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة ؛ كذلك كان تصويرهم فى أشكاله الأولى على الأقل ، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التى كانوا

يستعملونها فى الخط ، وكانوا يقتصرون فى كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة والحبر (*)

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة الغربيين ، ذلك أن الصينيين لا يتباهون بعرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل يطوونها ويخبئونها بمنتهى العناية ، فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً ونقرؤه . وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة فى ملفات من الورق أو الحرير ثم « تقرأ » كما تقرأ المخطوطات . أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على الجدران وقلما كانت توضع فى إطارات . وكانت عدة صور ترسم أحياناً على شاسة كبيرة ، وفى العهد الأخير من عهود أسرة سونج كان فن التصوير قد تفرع إلى ثلاثة عشر « فرعاً »[٦٣] واتخذ أشكالا لا حصر لها .

وقد ورد ذكر الفن الصينى بوصفه فناً ثابت الأساس ، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ، ولا يزال هذا الفن موطد الدعائم فى بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة . وتقول الأقاصيص الصينية إن أول من صور بالألوان فى الصين امرأة تسمى لى وهى أخت الإمبراطور الصالح شوين . وقد ساء

(*) يرى الصينيون أن التصوير ضرب من الكتابة ، ويعدون الخط فنا من الفنون الجميلة ، وإن كان العالم يرى عكس هذا ويعتقد أن الكتابة كانت فى بادئ أمرها نوعاً من الرسم والتصوير . ومن أجل هذا ترى لوحات من الخط الجميل معلقة فى بيوت الصينيين واليابانيين ، ومن أجل ذلك أيضاً يسعى المولعون بالفن وراء الروائع الخطية كما يجوب جامعو التحف الفنية القارات فى هذه الأيام للحصول على صورة أو مزهرية . وكان أشهر الخطاطين الصينيين وانج شى — چى (حوالى ٤٠٠ م) ، وكانت الحروف الصينية الجميلة التى كتبها بيده هى التى قطعت عليها الأحرف التى اتخذت قوالب للطباعة . ولما أراد الإمبراطور العظيم تاى دزونج أحد أباطرة أسرة تانج أن يحصل من بيان — دزاى على ملف بخط وانج شى — چى لم يجد سبيلا إلى الحصول عليه إلا بالسرقة ، ويقال إنه لما تم له هذا فقد بيان — دزاى شهوة الطعام ومات غما وكمدا .



شكل ٦ — صورة ملونة لثلاثة عشر إمبراطورا تعزى إلى ين لى ـ بن من مصورى القرن السابع محفوظة فى متحف الفن بمدينة بسطن.

ذلك أحد الناقدين فقال : « مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن القدسى من اختراع امرأة »(٦٤)

ولم يبق شيء من الصور التى رسمت فى عهد أسرة چو . لكن الذى لاشك فيه أن الفن فى عهد هذه الأسرة كان قد تقادم عهده ، ويدلنا على ذلك تقرير كتبه كنفوشيوس يقول فيه إنه : أعجب أشد الإعجاب بالمظلمات التى رآها فى الهيكل العظيم المقام فى لو — يانج(٦٥) .

أما فى أيام أسرة هان فحسبنا دليلا على انتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب قد شكا من أن بطلا يعجب به لم يُرسم له عدد كاف من الصور فقال : « إن الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحد منهم ؟(٦٦) » ومن القصص التى تروى عن واحد من مهرة الفنانين فى عهد الإمبراطور لى — يه — إى الأول أنه كان فى استطاعته أن يرسم خطاً مستقيما لا ميل فيه طوله ألف قدم ؛ وأن يرسم خريطة مفصلة للصين على سطح لا يزيد على بوصة مربعة ، وأن فى مقدوره أن يملأ فاه ماء ملونا ثم يبصقه فيكون صورة ، وأن الصور التى كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لا تطير من أمامهم(٦٧) . ولدينا ما يشير إلى أن فن التصوير الصينى بلغ إحدى درجاته القصوى من الكمال فى بداية التاريخ الميلادى ، ولكن الحروب محت كل دليل قاطع على هذا . ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب فى نزاعهما الأيدى القديم ، منذ العهد الذى نهب فيه لويانج المحاربون من إقليم تشين (حوالى عام ٢٤٩ ق . م) وأخذوا يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به ، إلى أيام ثورة الملاكمين (١٩٠٠ م) حين كان جنود تونج چو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير فى المجموعة الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة . فكانت روائع الفن يحل بها الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابتداع .

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً فى شئون الدين والفن فى بلاد الصين لا يقل فى عمقه ومداه عن الانقلاب الذى أحدثته المسيحية فى ثقافة البحر المتوسط وفنونه . نعم إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسى فى البلاد ، ولكن البوذية امتزجت بالدوية وأصبحت السلطة المهيمنة على الفن ، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوى .

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو — كاى — چيه ، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أقاصيص وأساطير كثيرة . منها أنه أحب فتاة تسكن منزلا يجاور منزله ، فلما عرض عليها أن تتزوج به أبت لجهلها بما كانت تخبئه له الأيام من شهرة عظيمة ، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة فى قلبها ، فأشرفت الفتاة على الموت . ثم تقدم إليها مرة أخرى فرضيت به ، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها . ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل فى نانكنج وعد أن يمدهم بمليون كاش(*) ، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد ، لأن چوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان .

فقال لهم : « اسمحوا لى أن أستخدم أحد الجدران » ، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذى أو إيمالا — كيرتى . ولما أتم الصورة دعا الكهنة ، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال : « عليكم أن تطلبوا فى اليوم الأول مائة ألف كاش » ممن يريد أن يدخل ليرى الصورة ، « وأن تطلبوا فى اليوم الثانى خمسين ألفاً . أما فى اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون » . ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون « كاش »[٦٩] . ورسم جوو سلسلة طويلة من الصور البوذية كما رسم صوراً

(*) عملة صينية صغيرة قيمتها نحو ½ مليم . « المترجم »

أخرى غير بوذية . ولـكننا لم يصلنا شيء من رسومه المرثوق بنسبتها إليه[*] . وكتب ثلاث رسائل فى التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم . ومن أقواله : إن أصعب التصوير تصوير الرجال ، ويلي الرجال فى الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية ثم تأتى بعدها الخيل والآلهة[٧٢] . وكان يصر على أنه فنان وفيلسوف معاً . ولما رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها : « ليس فى الطبيعة شيء عال لا ينحط بعد قليل ... فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت فى الانحدار ، والقمر إذا كمل وصار بدراً بدأ يتناقص . وتسنم المجد لا يقل صعوبة عن بناء جبل من حبات التراب ؛ أما التردى فى الهلاك فسهل كانسياب اللولب المشدود »[٧٣][**] ، وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه فى ثلاث نواح : فى التصوير وفى الفـكاهة وفى البلاهة[٧٤] .

وازدهر التصوير فى بلاط الأباطرة من أسرة تانج ، ومن الأقوال المؤيدة لهذا قول دوفو : « إن المصورين ليبلغون من الـكثرة عدد نجوم الصباح ، ولـكن الفنانين منهم قليلون »[٧٥] .

وكتب چانج ين — يوان فى القرن التاسع عشر كتاباً سماه : **عظماء المصورين فى جميع العصور** وصف فيه أعمال ثلثمائة وسبعين فناناً ، ويقول فيه : إن الصورة التى يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدرّ عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية من الفضة ، ولـكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول : « إن الصور الجيلة أعظم قيمة من الذهب واليشب ، أما الصور الرديئة فلا تساوى الواحدة منها شققة » .

(*) ويعزو له سدنة المتحف البريطانى ملفاً جميلا وإن يكن حائل اللون عليه خمسة رسوم تصور حياة نموذجية لأسرة من الأسر[٧٠] ، ويحوى هيكل كنفوشيوس فى تشوفو نقشاً على حجر يقول ناقشه إنه حذا فيه حذو جوو . ويحوى معرض فرير Freer فى واشنجتن : ... من كتابات تعزى إليه[٧١] .

(**) اقرأ هذا المعنى نفسه فى مقام بيكن « فى المنصب الرفيع » أو ترجمة هذا المقال فى الجزء الثانى من مقالات مختارة من اللغة الإنجليزية .   (المترجم)

ولا نزال نعرف من المصورين فى عهد أسرة تانج أسماء مائتين وعشرين ، أما أعمالهم فلا يكاد يبقى منها شىء ، لأن ثوار التتار الذين نهبوا شانج — آن فى عام ٧٥٦ لم يكونوا يعنون بهذا الفن ؛ وفى وسعنا أن نلمح الجو الفنى الذى كان يمتزج بشعر ذلك الوقت فى قصة هان يو « أمير الأدب » الذائع الصيت .

وخلاصة هذه القصة أن هذا الأمير كسب من زميل له يقيم معه فى نزل رقعة صغيرة اشتملت فى أصغر مساحة مستطاعة على ثلاث وعشرين ومائة صورة من صور الآدميين ، وثلاث وثمانين من صور الجياد ، وثلاثين من صور الحيوانات الأخرى ، وصور لثلاث عربات ، وإحدى وخمسين ومائتى صورة لأشياء أخرى ويقول هو عنها : « لقد فكرت كثيراً فى أمر هذه الصورة لأنى لم أكن أصدق أنها من عمل رجل واحد ، فقد جمعت عدداً من المزايا المختلفة الأنواع ، ولم يكن فى وسعى أن أتخلى عنها مهما عرض علىّ من المال ثمناً لها . وفى العام الثانى غادرت المدينة وسافرت إلى هو — يانج ، وحدث أن كنت فى أحد الأيام أتحدث عن الفن إلى بعض الغرباء ، وأخرجت لهم الصورة ليروها ؛ وكان من بينها رجل يدعى چَوْ ، يشغل وظيفة رقيب(*) وكان ذا ثقافة عالية ؛ فلما وقعت عينه على الصورة دهش أيما دهشة لرؤيتها ثم قال بعد تفكير طويل : « إن هذه الصورة من عمل يدى رسمتها فى أيام شبابى ، وهى منقولة عن صورة فى معرض الفن الإمبراطورى ، ولقد فقدتها منذ عشرين عاما ، وأنا مسافر فى مقاطعة فوفين » » ، فما كان من هان يو إلا أن أهدى الصورة الصغيرة إلى چَوْ .

ولقد نشأت فى فن التصوير الصينى مدرستان مختلفتان إحداها فى الشمال والثانية فى الجنوب ، كما نشأت فى الديانة الصينية مدرستان هى المدرسة الكنفوشية والمدرسة الدَّوِّية — البوذية وكما نشأت فى الفاسفة مدرستان إحداها بزعامة چوشى والثانية بزعامة وانج يانج منج ، تمثل الأولى ما يطلق عليه الغربيون العقلية

(*) انظر واجبات الرقيب فى الفصل السادس من الباب الحادى والعشرين .

الإتباعية ، وتمثل الثانية العقلية الابتداعية ، فكان الفنانون الشماليون يتمسكون بالتقاليد الصارمة ويتقدمون فى رسومهم بقيود العفة والوقار ؛ أما أهل الجنوب فكانوا يعنون فى تصويرهم بإبراز المشاعر والخيال . وعنيت المدرسة الشمالية أشد عناية بإبراز نماذج صحيحة متقنة من الأشكال التى تصورها وجعلها واضحة الخطوط والمعالم ، أما المدرسة الجنوبية فقد ثارت كما ثار منتمارتر Montmarter على هذه القيود ، فكانت تحتقر هذه الواقعية البسيطة ولا تستخدم الأشياء إلا عناصر فى تجارب روحية ، أو نغمات فى مزاج موسيقى[٧٧] . ولقد وجد لى سو — شون وهو يصور فى بلاط منج هوانج بين زعازع السلطة السياسية وعُزلة النفى ما يكفى من الوقت لتوطيد دعائم المدرسة الشمالية . وصور هو نفسه بعض المناظر الصينية الطبيعية وبلغ فيها درجة من الواقعية تناقلتها فيما بعد كثير من الأقاصيص . من ذلك قول الإمبراطور إنه يستطيع أن يستمع فى الليل إلى خرير الماء الذى صوره لى على شاشة فى قصره ، وإن سمكة فى صورة أخرى له دبت فيها الحياة ووجدت بعد فى بركة — وليس لنا أن نلوم الصينيين على هذه الأقوال ، فإن لكل أمة أقوالا مثلها فى مدح مصوريها .

ونشأت المدرسة الجنوبية مما أدخل على الفن من تجديد ومن عبقرية وانج واى ، فلم يكن المنظر الطبيعى فى طرازه التأثيرى من طرز الفن أكثر من رمز لمزاج معين ، وكان وانج شاعراً ومصوراً معاً ، ولذلك عمل على ربط الفنين بعضهما ببعض ، وذلك بجعل الصورة تعبر عن قصيدة . وفيه قال الناس لأول مرة العبارة التى طالما لاكتها الألسن حتى ابتذلت ، والتى تنطبق كل الانطباق على الشعر والتصوير الصينيين كليهما وهى : « كل قصيدة صورة وكل صورة قصيدة » (وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن تنقش القصيدة على الصورة وأن تكون القصيدة نفسها مخطوطاً فنياً جميلا) . ويروى المؤرخون أن تونج جى —

چانج قضى حياته كلها يبحث عن صورة أصلية من عمل وانج ويه(*) (٧٨) .

وأعظم المصورين فى عهد أسرة تانج ، وأعظم المصورين فى الشرق الأقصى كله بإجماع الآراء ، رجل علا فوق فروق مدرستى التصوير السالفتى الذكر ، وكان من الذين حافظوا على التقاليد البوذية فى الفن الصينى ، واسم هذا المصور وو دَوْ ـــ دزه ؛ ولقد كان فى الحق خليقاً باسمه فإن معنى هذا الاسم هو وأستاذ الدو أو الطريقة ، ذلك أن جميع التأثرات والأفكار المجردة التى وجدها لو دزه وچوانج دزه أدق من أن تعبر عنها الألفاظ ، وقد بدت وكأنها تنساب انسياباً طبيعياً فى صورة خطوط وألوان يجرى بها قلمه ، ويصفه أحد المؤرخين الصينيين بقوله : « إنه كان شخصاً معدماً يتيماً ، ولكنه وهب فطرة إلهية ، فلم يكد يلبس قلنسوة البلوغ حتى كان من أساتذة الفن ، وحتى غمر لو ـــ يانج بأعماله » . وتقول الروايات الصينية إنه كان مغرماً بالخمر وبأعمال القوة ، وإنه كان يعتقد ـــ كما يعتقد الشاعر الإنجليزى پو Poe ـــ أن الروح تخرج أحسن ثمارها تحت تأثير قليل من السكر (٨١) . وقد برز فى كل موضوع صوره ؛ فى الرجال والأرباب والشياطين ، وفى تصوير بوذا بأشكال مختلفة ، وفى رسم الطيور والوحوش والمبانى والمناظر الطبيعية ـــ وكانت كلها تأتيه طائعة لفنه الخصيب ؛ وبرع فى الرسم على الحرير والورق والجدران الحديثة الطلاء فكانت هذه كلها عنده سواء . وقد أنشأ ثلثمائة مظلم لهياكل البوذية منها مظلم يحتوى على صورة ألف شخص لاتقل شهرته فى الصين عن شهرة « يوم الحساب » أو صورة « العشاء الأخير » فى أوربا . وكانت ثلاث وتسعون صورة من صوره فى معرض الصور الإمبراطورى فى القرن الثانى عشر بعد أربعمائة سنة من وفاته ، ولكنها لم يبق منها شىء فى مكان ما فى الوقت الحاضر . ويحدثنا الرواة أن الصور التى رسمها لبوذا « قد كشفت عن أسرار الحياة

(*) لم يبق إلا صور منسوخة منها : أهمها « مسقط ماء » محفوظة الآن فى معبد شساكوين فى كيوتو (٧٩) وملف (فى كل من المتحف البريطانى ومتحف فرير) كتب عليه : « منظر وانج جوان » (٨٠) .

والموت » وقد بلغ من تأثير صوره التي تمثل الحشر أن ارتاع من رؤيتها بعض القصابين والسماكين فنبذوا حرفتهم المشينتين غير البوذيتين .

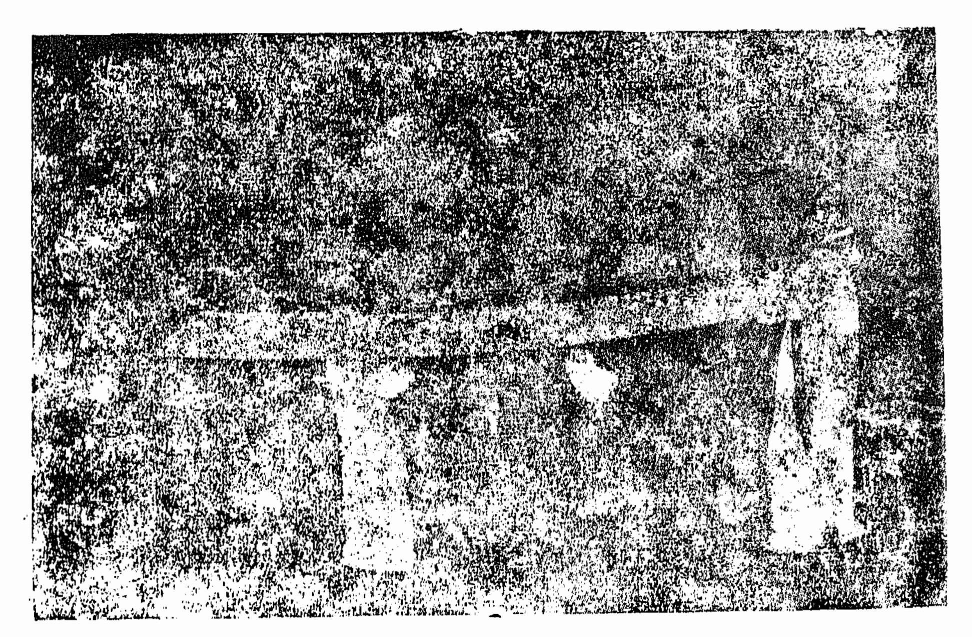
ولما رسم صورة تمثل رؤيي منج هوانج أيقن الإمبراطور أن وو قد رأى هو أيضاً رؤيي مثلها[٨٢] . ولما أرسل الملك وو ليرسم منظراً على ضفة نهر چيالنج فى ولاية سشوان هاله أن يعود الفنان دون أن يرسم خطاً واحداً ، فقال له وو : « لقد وعيته كله فى قلبي » ، ثم انفرد بنفسه فى حجرة من حجر القصر وأخرج ، كما يؤكد لنا المؤرخون ، مناظر تمثل ألف ميل[*] . ولما أراد القائد باى أن ترسم له صورة طلب إليه وو ألا يقف أمامه ليرسمه ، بل أن يلعب بالسيف ، فلما فعل أخرج المصور له صورة لم يسع معاصريه إلا أن يقولوا إنها قد أوحى إليه بها ولم تكن من عنده . وقد بلغ من شهرته أن أقبلت « شانج — آن » على بكرة أبيها لتشاهده وهو يختتم رسم بعض الصور البوذية فى هيكل شنج شان . ويقول مؤرخ صيني من مؤرخي القرن التاسع إنه لما أحاط به هذا الجمع الحاشد « رسم الهالات بسرعة عجيبة عنيفة بدا للناس معها كأن يده يحركها إعصار ، وصاح كل من رآه أن إلهاً من الآلهة كان يساعده »[٨٥] : ذلك أن الكسالى لا يفتئون يعزون العبقرية « لوحي » يوحى لمن ينتظر هذا الإيحاء .

وتقول إحدى القصص الطريفة إنه لما طال الأجل بوو رسم منظراً طبيعياً كبيراً ، ودخل فى فم كهف مصور فى هذا المنظر ، ولم يره أحد بعد دخوله فيه[٨٦] . ولا جدال فى أن الفن لم يصل قط إلى ما أوصله إليه هو من إتقان وإبداع .

وأصبح الفن فى عهد أسرة سونج شهوة عارمة عند الصينيين ، ذلك أنه بعد أن تحرر من سيطرة الموضوعات البوذية عليه غمر البلاد بما لا يحصى من الصور المختلفة ، ولم يكن الإمبراطور هواى دزونج نفسه أقل الثمانمائة الرسامين المشهورين فى أيامه .

(*) اقرأ رأى كروسى القائل بأن الفن هو الفكرة نفسها لا طريقة إخراجها[٨٤] .

ومن الكنوز المحفوظة بمتحف الآثار الجميلة ببسطن ملف صَوَّر فيه هذا الإمبراطور فى بساطة عجيبة ووضوح أعجب المراحلَ المختلفة التى تسير فيها عملية إعداد الحرير على يد النساء الصينيات[٨٧] . ومن أعماله أنه أنشأ متحفاً للفن جمع فيه أكبر مجموعة من الروائع الفنية عرفتها الصين من بعده[٨٨] ؛ وأنه رفع المجمع الفنى من فرع تابع للكاية الأدبية لا غير إلى معهد مستقل من الدرجة الأولى ، واستبدل الاختبار فى الفن ببعض الاختبارات الأدبية التى جرت العادة بأن يمتحن فيها طلاب المناصب السياسية ، ورفع رجالا إلى مناصب الوزراء لأنهم برعوا فى الفن بقدر ما رفع إليها غيرهم لأنهم برعوا فى السياسة[٨٩] . وسمع التتار بهذا كله فغزوا الصين وأنزلوا الإمبراطور عن عرشه ، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً ، ودمروا كل الصور المحفوظة فى المتحف الإمبراطورى إلا القليل ، وكانت سجلات هذه الصور تملأ عشرين مجلداً[٩٠] . وساق الغزاة الإمبراطور الفنان أمامهم ومات فى ذل الأسر .



شكل ٧ — صناعة الحرير من تصوير الإمبراطور هواى دزو
فى متحف الفن الجميل بمدينة بسطن

وكان أجل من هذا الإمبراطور الفنان شأناً رجلان من غير الأسر المالكة هما جووشي ، ولى لونج — مين . «ويقول الناقدون والفنانون إن جووشي بز جميع معاصريه فى تصوير أشجار الصنوبر الباسقة ، والدوحات الضخمة، والمياه الدوامة ، والصخور الناتئة ، والجروف الوعرة ، وقلل الجبال السامقة التى لا يحصى عديدها »(٩١)(*) . وكان لى لونج — مين فناناً وعالماً وموظفاً ناجحاً ورجلا سميذعاً(**) يجله الصينيون ويرون فيه مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الصينى المثقف . وقد بدأ أولا بالخط ثم انتقل منه إلى الرسم بالخطوط ثم بالألوان ، وقلما كان يستخدم فى هذا كله شيئاً غير المداد ؛ وكان يفخر بمحافظته الشديدة على تقاليد المدرسة الشمالية، ويبذل جهوده كلها فى ضبط الخطوط ودقتها . وقد برع فى رسم الخيل براعة بلغ منها أن اتهمه الناس حين ماتت ستة منها بأن الصورة التى رسمها لها قد سلبتها أرواحها ، وأن حذره كاهن بوذى من أنه سيصبح هو نفسه جواداً إذا دأب على العناية برسم الجياد بدقته المعهودة ، فما كان منه إلا أن قبل نصيحة الكاهن وصور خمسمائة لوهان(†) . وفى وسعنا أن ندرك شهرته إذا عرفنا أن معرض هواى دزونج الإمبراطورى حين نُهب كان يحتوى على مائة صورة وسبع صور من عمل لى لونج — مين وحده .

ونبغ فى عهد أسرة سونج عدد كبير من أساتذة الفن ، نذكر منهم مى فاى وهو عبقرى غريب الأطوار ، كان لا يُرى إلا هو يغسل يديه أو يغير ملابسه إذا لم يكن يشتغل بجمع أعمال رجال الفن القدماء ، أو يرسم صوراً لمناظر طبيعية

(*) فى معرض فرير الفنى بواشنجتن « منظر على الهوانج — هو » يعزى إلى جو — شى وإن كان هذا مشكوكا فيه(٩٢) .

(**) السَّمَيْذَع أو السميدع . السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكناف والشجاع ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Gentleman

(†) اللوهان هو الذى وصل إلى النرفانا أى الذى سمت نفسه إلى أرقى المراتب الروحية

« بطريقة التنقيط » أى بنقط من المداد يضعها دون أن يستعين بالخطوط الخارجية(*) . ومنهم أيضاً شيه جواى وقد رسم ملفاً طويلا يحتوى على مناظر متفرقة لنهر يانج — دزه(**) من منابعه الصغيرة ، ومجراه ، مخترقا اللويس والخوانق إلى مصبه الواسع الغاص بالسفن التجارية وبالقوارب الصغيرة (السمبان) ؛ وهذا الملف قد جعل بعض الفنانين(٩٣) يضعون صاحبه على رأس مصورى المناظر الطبيعية فى الشرق والغرب على السواء . ومن مشهورى المصورين فى هذا العهد مايوان : ويزدان متحف الفن الجميل فى بُسْطُنْ بمناظر طبيعية أنيقة ، ومناظر مصورة عن



شكل ٨ — منظر طبيعى ، جسر وصفصاف من تصوير مايوان فى القرن الثانى عشر محفوظ فى متحف الفن الجميل ببسطن

(*) فى الحجرة رقم ١١ فى المتحف الفنى بنيورك منظر طبيعى يقال إنه من تصوير « مى فاى » .

(**) Ynng-tze وهو النهر الذى ينطق اسمه أحياناً يانج — تسى أو يانج — تسى — كيانج

بعد[*]. ومنهم ليانج كاى الذى رسم صورة نخمة للشاعر الصينى لى بو ، وموتشى صاحب صورة النمر الرهيب ، والزرزور ، وصورة كوان ين الظريف المكتئب ، وفى وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم يألف الغرب سماع أسمائهم أو يعيها إذا سمعها لغرابتها ، ولكنهم فى واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلى العظيم . وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا Fenollosa : « لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية »[٩٥] .

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصينى فى أيام مجد أسرتى تانج وسونج ، كنا كمن يحاولون من مؤرخى المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفائيل وليوناردو دافنشى وميكل أنجلو . ويبدو أن فن التصوير الصينى قد كسر فى ذرعه وهد ركنه ما توالى عليه من غارات جحافل البرابرة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قروناً عدة . ومع أنه قد نبغ فى عهد الأسر التى تربعت على عرش الصين بعد أسرتى تانج وسونج ، الصينية منها والأجنبية ، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عظيما من الظرف أو القوة ، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا فى جنان بلاط منج هوانج أو هواى دزونج وخليق بنا إذا فكرنا فى الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلطت عليه الفاقة ، وأضعفه فساد الحكم ، وفرقته التحزبات والانقسامات السياسية ، وأذلته الهزائم الحربية ، بل يجب أن نفكر فيهم أيضاً على أنهم أمة شهدت فى تاريخها الطويل عصوراً لا تقل فى مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل ميديشى ، وأنها قد تشهد عصوراً أخرى مثلها فى مستقبل الأيام .

(*) ومن أروع الصور صورة « السيدة لنج — چاو واقفة بين الثلوج » . والصورة تمثل السيدة (وهى صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة فى التفكير كأنها سقراط واقف وسط الثلوج فى پلاتية . ويخيل إلينا أن الفنان يقول « إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده ، وإن فى وسع العقل أن يتجاهله إلى حين » .

٢ — خصائص فن التصوير الصينى

نبذ فن المنظور — الواقعية — الخط أسمى من اللون —
الشكل إيقاع — التصوير بالإيحاء — العرف والقيود
أمانة الفن الصينى وإخلاصه

ترى ما هى الخصائص التى تميز فن التصوير الصينى فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير فى التاريخ كله عدا تلاميذه فى اليابان ؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة ، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجى ، وأهم منها وأعمق وأكثر صلة بالصفات الذاتية احتقار الصينيين للمنظور والظلال. فلما أن قبل مصوران أوربيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شى ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضوه عليه من زينات لأنهم رسموا العمد البعيدة فى صورهم أقصر من القريبة . وقال لهم الصينيون فى هذا أن لا شىء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لا توجد مسافات مطلقاً[٩٦]. ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء الأخرى ومبادئها لأن الأوربيين اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه[٩٧] . وكذلك كان يخيل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها فى نمط من أنماط الفن لا يهدف فى زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس ، وتمثيل الأمزجة ، والإيحاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة .

وكان الشكل كل شىء فى هذه الصور ، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته ، بل كانت فى انسجامه ودقة خطوطه . وكانت الألوان محرمة تحريماً باتا فى الرسوم الأولى ، وظلت نادرة فى رسوم أساتذة الفن ؛ فقد كان هؤلاء يكتفون بالمداد والفرشاة ؛ ذلك أن اللون لم يكن فى رأيهم ذا صلة ما

بالشكل ، بل كان الشكل على حد قول شياه — هو هو الانسجام؛ وأول معانى الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصينى السجل المرئى لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد[٩٨] ؛ ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن «انسجام الروح» وعن جوهر الحقيقة وحركتها المادئة[٩٩] . ومظهر الانسجام فى آخر الأمر هو الخط — غير مستخدم فى بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجى ، بل مستخدم فى بناء الأشكال التى تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز . وتكاد دقة الخطوط وجمالها يكونان وحدهما فى فن التصوير الصينى السبب الوحيد فى براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال . ومن أجل هـذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية ، وأن يكون ذا شعور قوى مرهف ، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه ، وأن يتبين غرضه واضحاً ، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله فى خياله ، نقلا لا يترك فيه مجالا للإصلاح أو التعديل ، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة . وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده فى الصين واليابان ، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده فى البندقية وفى الأراضى الوطيئة .

ولم يعن فن التصوير الصينى بالواقعية فى يوم من الأيام ، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف . أما «الحقيقة» فقد تركها للعلم ووهب نفسه للجمال . ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعا لم ينبت فى غير بلاد الصين، ثم ترعرع وازدهر بعض الازدهار تحت سماء صافية ، فأصبح كافيا لأن يستهوى نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم ، وأن يكون تناولهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيما يتناسب مع ما يريدون تصويره ، أن يكون هذا وذاك محكا تختبر به قدرتهم ومهارتهم . ومن الموضوعات التى كانت تعرض على طالبى الالتحاق بمجمع هواى دزونج للتصوير موضوع يوضح لنا مقدار توكيد الصينيين للإيحاء غير المباشر وعنايتهم به لا بالتصوير الصريح . ذلك أن المتسابقين

كان يعرض عليهم أن يشرحوا بالرسم بيتاً من أبيات الشعر هو . « وعاد حافر جواده مثقلا بعبير ما وطئه من الأزهار » . وكان المتسابق الذى أحرز قصب السبق فى هـذا المضمار فناناً رسم صورة فارس ومن حول كعوب جواده سرب من الفراش .

ولما كان الشكل كل شىء فإن من الممكن أن يكون الموضوع أى شئ . وقلما كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها ؛ وإذا ما ظهروا فيها كانوا فى كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين فى الشبه . وقلما كان المصور الصينى ينظر إلى العالم بعينى الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم فى تصويره ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولـكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان ؛ ذلك أن الفنان الصينى لم يكن يعنى بالأفراد ، وما من شك فى أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال ، ولذلك أطلق لنفسه العنان فى تصويرها ؛ فترى هواى — دزونج وهو الذى كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار. وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والتنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها فى بعض الأحيان ؛ لـكنها فى الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان فى الإنسان نفسه ، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص ، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لايكادون يعملون شيئاً غير رسم شكل فى إثر شكل لهذا المخلوق الذى هو جسم حى للتخطيط الفنى .

ولسنا ننكر أن التصوير فى الصين قد لاقى الأمرين من جراء التقاليد الدينية أولا ومن القيود التى وضعها العلماء بعدئذ ، وأن تقليد الأساتذة القدامى والنسج على منوالهم كانا من العوامل المعوقة فى تدريب طلاب الفن ، وأن الفنان كان فى كثير من الأحوال يتقيد بعدد محدود من المسائل لا يسمح له أن يلجأ إلى

غيرها فى تشكيل مادته[١٠٠] . وفى وسع القارئ أن يدرك قوة العرف والتقاليد من قول أحد كبار النقاد الفنيين فى عهد آل سونج : « لقد كنت فى أيام شبابى أثنى على الأستاذ الذى أحب صوره ؛ فلما أن نضج عقلى أصبحت أثنى على نفسى لأنى أحببت ما اختاره الأساتذة لى لكى أحبه »[١٠١] ، وأنا ليدهشنا ما بقى فى هذا الفن من حيوية بالرغم من قيود العرف والقواعد التى وضعت له . وفى وسعنا أن نقول فى هؤلاء ما قاله هيوم عن كتاب عهد الاستنارة وهم الذين علا شأنهم رغم الرقابة المفروضة عليهم : « إن القيود التى عانى الفنانون ما عانوه منها قد أرغمتهم هى نفسها على أن يكونوا عظماء ممتازين » .

وما من شك فى أن الذى أنقذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم فى إحساسهم بالطبيعة . وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية ، وقوتها فى نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شىء واحد فى مجرى الحياة وتغيرها ووحدتها . وكما أن الشعراء قد وجدوا فى الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صخب المدن وكفاحها ، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة ، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار المجارى المائية المنعزلة ويوغلون فى شعاب الجبال الشجراء ، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذى لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه فى هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها فى حياة الناس وأفكارهم المضطربة الهائجة[*] . ولقد اتخذ الصينيون الطبيعة الشديدة القسوة عليهم ، والتى تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها ، اتخذوها إلههم الأعلى ، ورضوا بذلك فى قوة وطمأنينة ، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية ، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم

(*) لم يكن تصوير المناظر الطبيعية يسمى فى الصين بأكثر من شأن — روى أى الجبال والمياه .

وأدبهم وفنهم . . وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين ، وروسو ، ووردسورث ، وشاتو بريان بألف عام كاملة ؛ وأنهم أنشأوا مدرسة من مصورى المناظر الطبيعية أضحت صورها فى جميع بلاد الشرق الأقصى أسمى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها .

الفصل الخامس

الخزف الصيني

فن الخزف — صنع الخزف — تاريخه القديم — اللون الأخضر الحائل — الطلاء بالميناء — براعة هاو شى چيو — تقاسيم الطلاء — عصر كانج شى — عصر تشين لونج

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذى تمتاز به الصين عن سائر الأمم ، والذى لا يجادل أحد فى أنها هى حاملة لوائه فى العالم كله ، وجدنا فى أنفسنا نزعة قوية إلى اعتبار الخزف صناعة من الصناعات . ولما كانت كلة « الصينى » إذا وردت على لساننا ارتبطت فى عقولنا بالمطبخ وأدواته . فإننا إذا ذكرنا الفاخورة تمثلنا من فورنا المكان الذى يصنع فيه « الصينى » ، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته فى النفس روابط عليا سامية . أما الصينيون فقد كانت صناعة الخزف عندهم فناً من الفنون الكبرى ، تبتهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال ، لأنه يجمع بين النفع وبهاء المنظر .

فلقد أمدهم هذا الفن بآنية يستخدمونها فى شرابهم القومى الشهير — شراب الشاى — جميلة فى ملمسها ومنظرها ، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حداً تستطيع معه أفقر الأسر أن تعيش فى صحبة نوع من أنواع الكمال ، لقد كان فن الخزف هو فن النحت عند الصينيين .

ولفظ الفخار يطلق أولا على الصناعة التى تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للاستعمال المنزلى ، ويطلق كذلك على الفن الذى يجمل هذه الأدوات ، وعلى الأدوات التى تنتجها هذه الصناعة ؛ والخزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين الممزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف

شفافة شبيهة بالزجاج(*) . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الـكولين — وهو طين أبيض نقى مكون من فتات الفلسپار والحجر الأعبل (الجرانيت) ، ومن الپي — تن — دزى وهو كوارتز أبيض قابل للانصهار ، هو الذى يكسب الأوانى الخزفية ما فيها من الشفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة ، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقة صلبة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط ، فـكان يغطى « العجينة » أى الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ، ثم يحرق فى أتون . وكان فى بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلا ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ . وكانت الطبقة الزجاجية تلون فى أغلب الأحيان ، ولـكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية . أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة . وكان من الصينيين إخصائيون قضوا حياتهم فى التدرب على عملهم ؛ تخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والحـكماء المنقطعين للتأمل والتفـكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجرى ، فقد عثر الأستاذ أندرسن على أوانى من الفخار فى هونان وكانسو « لا يمكن أن تكون أحدث عهداً من عام ٣٠٠٠ ق . م »[١٠٣] . وإن ما تتصف به تلك المزهريات

(*) لما أدخلت صناعة الخزف فى أوربا اشتق اسمها من البرسلانا أى صدفة الودع » ولفظ پرسلانا نفسه مشتق من المشابهة المزعومة التى بين الصدفة وبين ظهر البرسلا أو الخنزير الصغير [١٠٢].

من جمال فائق فى الشكل وفى الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فنا من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمن طويل . وبعض القطع التى عثر عليها شبيهة بفخار أنو ، وتوحى بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة فى غربها . وهنالك قطع من الأوانى الفخارية الجنازية كشفت فى هونان وتعزى إلى عهد اضمحلال أسرة شانج ولكنها أحط كثيراً من بقايا العصر الحجرى الحديث السالفة الذكر .

ولم يعثر المنقبون بعد عصر هذه الأسرة على بقايا من الفخار ذات قيمة فنية قبل أيام أسرة هان ، ففى عهد هذه الأسرة عثروا على فخار وعثروا فوق ذلك على أول إناء من الزجاج عرف فى الشرق الأقصى(*) ، وكان انتشار عادة شرب الشاى فى عهد أباطرة تانج باعثاً قوياً على تقدم فن الخزف . وقد كشفت العبقرية ، أو المصادفة المحضة ، حوالى القرن التاسع أن من المستطاع صنع إناء مزجج لا من سطحه الخارجى فحسب (كالآنية المصنوعة فى عهد أسرة هان وفى حضارات غير حضارة الصين قبل ذلك العهد) ، بل زجاجى كله من أوله إلى آخره — أى من خزف حقيقى وقد كتب أحد الرحالة المسلمين المدعو سليمان إلى بنى وطنه يقول : « إن فى الصين طيناً رقيقاً جميلا يصنعون منه أوانى شفافة كالزجاج ، يُرى من جدرانها ما فى داخلها من الماء » . وقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة فى موضع إحدى المدن القديمة عند سر من رأى على نهر دجلة قطعاً من الخزف من صنع الصين . وظهر الخزف بعدئذ فى السجلات المدونة خارج بلاد الصين حوالى عام ١١٧١ م حين أهدى صلاح الدين إلى سلطان دمشق إحدى وأربعين قطعة من الخزف(١٠٥)

(*) لقد صنع المصريون الأقدمون فخاراً مزججاً قبل المسيح بقرون عدة لا يمكن تحديدها ، وإن ما على أقدم الفخار الصينى من نقوش ليدل على أن الصين قد أخذت طريقة التزجيج عن بلاد الشرق الأدنى(١٠٤) .

وليس ثمة شاهد على أن صناعة الخزف بدأت فى أوربا قبل عام ١٤٧٠ م ، فقد ذكر فى ذلك العام على أنه فن جميل أخذه البنادقة عن العرب فى أثناء الحروب الصليبية[١٠٦] .

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذى بلغ فيه فن الخزف الصينى ذروة مجده . وخبراء هذا الفن يعزون إلى هذا العهد أقدم ما لدينا من الآنية الصينية وأحسنها ؛ بل إن صناع الخزف فى عهد أسرة منج ، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ فيه بعضهم نبوغ فنانيه ، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه بالإجلال والإكبار ، وكان جامعو العاديات الصينية يحتفظون بما يعثرون عليه من خزف هذه الأسرة ويعدونه من الكنوز التى لا تقوم بمال وأنشئت فى القرن السادس الميلادى مصانع عظيمة فى چنج ده — چن حيث توجد الرواسب الغنية من المعادن التى تستخدم فى صنع الفخار وتلوينه ، واعترف البلاط الإمبراطورى بهذه المصانع رسمياً ، وبدأت تغمر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداح والجفان والمزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصناديق ورقع الشطرنج والمائلات(*) والخرائط . وحتى مشاجب القبعات كانت تصنع من الخزف المطلى بالميناء والمرصع بالذهب[١٠٧] ؛ وظهرت فى ذلك الوقت لأول مرة القطع ذات اللون الأخضر اليشبى(**) المعروفة بالسلادون(†) والتى أصبحت محاكاتها أهم ما يصبو إليه الفخرانى فى الوقت الحاضر ، كما أصبح اقتناؤها أهم ما يصبو إليه جامع التحف(††) . وقد أرسل سلطان مصر فى عام ١٤٨٧ نماذج منها إلى لورنزو ده

(*) فى القاموس المائلة منارة المسرجة وقد استعرناها (للشمعدان) .

(**) الشبيه بخضرة اليشب .

(†) اسم أطلقه عليها الفرنسيون فى القرن السابع عشر وهو مأخوذ من اسم بطل رواية « الكوكب » L'Astrée تأليف دورفيه . وكان هذا البطل إذا مثلت الرواية يرتدى على الدوام ملابس خضر[١٠٨] .

(††) وليس أصعب من محاكاتها عند الغربيين إلا اقتناؤها ، ذلك أن اليابانيين —

ميديشى ، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعومة ملمسها وشدة بريقها فحسب ، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم ، فقد كانوا يعتقدون أن تلك الآنية يتغير لونها إذا وضعت فيها مواد مسمومة[١٠٩]. وترى أسر الخبيرين المولعين بهذا الفن يتوارثون هذه القطع جيلا بعد جيل ؛ ويحتفظون بها احتفاظ الناس بأثمن الكنوز[١١٠].

ولقد ظل الصناع فى عهد أسرة منج نحو ثلثمائة عام يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهود ليحتفظوا بفن الخزف فى المستوى الرفيع الذى بلغه فى عهد أسرة سونج ، وليس فى مقدورنا أن نقول إنهم عجزوا عن بلوغ هذه الغاية . وكان فى چنج دَه — چن خمسمائة أتون لحرق الخزف ، وكان البلاط الإمبراطورى وحده يستخدم ٩٦٠٠٠ قطعة خزفية لتزيين حدائق القصور وموائدها وحجراتها[١١١] وظهرت فى أيام هذه الأسرة أول قطع جيدة من الميناء التى حرقت ألوانها بعد تزجيجها . وأتقن إلى أقصى حدود الإتقان صنع اللون الأصفر الواحد ؛ والخزف الأزرق والأبيض الذى يشبه فى رقته قشر البيض ، ولا يزال القدح الأزرق والأبيض المطعم بالفضة والمسمى باسم الإمبراطور واندلى (أو شن دزونج) يعد من آيات فن الخزف فى العالم كله إلى هذه الأيام .

وكان هاوشى — جى من أبرع صناع الخزف وأعظمهم خبرة فى أيام واندلى . وكان فى مقدوره أن يصنع أقداحاً للنبيذ لا يزيد وزن الواحد منها على جزء من ثمانية وأربعين جزءا من الأوقية ، ويروى أحد المؤرخين الصينيين أن هاوشى — جى زار فى يوم من الأيام بيت موظف كبير ، واستأذنه فى أن يفحص إناء من الخزف ذى ثلاث أرجل عتلكه هذا الكبير ويعد من أثمن ما صنع فى عهد أسرة سونج .

— قد جمعوا معظم قطع السلادون الصينية الذائعة الصيت ، وهم يأبون أن يبيعوها مهما عرض عليهم من الثمن . وقد عجز صانعو الخزف المتأخرون عن مجاراة صناع عهد أسرة سونج فى هذا المضمار .

وأخذ هاو يلمس الإناء بيديه برقة ولطف ، وهو ينقل ما عليه من الرسوم سرا على قطعة من الورق مخبأة فى كمه . ثم عاد لزيارة هذا الموظف بعد ستة أشهر من زيارته الأولى ، وقال له : « إنك يا صاحب السعادة تمتلك مبخرة ذات ثلاث أرجل من الدنج — ياو الأبيض(*) ، وها هى ذى مبخرة مثلها أمتلكها أنا » . وأخذ نانج الموظف الكبير يوازن بين هذه المبخرة ومبخرته ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فرقا ما بينهما . وبلغ من تشابههما أن قاعدة مبخرة الفنان وغطاءها قد واءما مبخرته كل المواءمة . وأقر هاو وهو يبتسم أن مبخرته تقليد لمبخرة العظيم ، ثم باعها نانج بستين قطعة من الفضة ، وباعها هذا بعدئذ بألف وخمسمائة[١١٢] .

وقد بلغت صناعة الخطوط الفاصلة بين الميناء أقصى حد من الإتقان فى عهد أسرة منج . ولم يكن منشأ هذا الفن فى بلاد الصين بل جاء إليها من بلاد الشرق الأدنى فى أيام الدولة البيزنطية ، وكان الصينيون يسمون مصنوعات هذا الفن فى بعض الأحيان جوى جود ياو ، أى آنية بلاد الشياطين[١١٣] . وهذا الفن يتكون من قطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب ، وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل رُسِم من قبل على جسم معدنى ، ثم ملء ما بين هذه الفوارق من فراغ بميناء من اللون المطلوب الملائم لها ، ثم تعريض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات وذلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف وصقله بقطعة من فحم الخشب ، ثم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة . وأقدم ما عرف من منتجات هذا الفن فى الصين مرايا استوردتها نارا فى اليابان فى منتصف القرن الثامن عشر . وأقدم الأوانى المحددة التاريخ ترجع إلى أواخر العهد المغولى أو إلى أيام أسرة يوان ، وأحسنها كلها ما صنع فى أيام الإمبراطور چنج دى

(*) وهو الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على نوع من الخزف فى لون العاج كان يصنع فى عهد أسرة سونج .

من أباطرة المنشو العظاء فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ودمرت المصانع التى كانت قائمة فى عهد أسرة چنج ده — چين فى أثناء الحروب التى قضت على أسرة منج ، ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أن جلس على العرش إمبراطور من أعظم أباطرة الصين استنارة وهو الإمبراطور كانج — شى ، وكان ملكا أصيلا جمع كل صفات الملوك كما جمعها معاصره لويس الرابع عشر . وقد أمر هذا الملك بإعادة بناء مصانع چنج ده — چين ، وسرعان ما أوقدت النار فى ثلاثة آلاف مصنع أخذت تعمل عملها المتواصل ، فأخرجت خزفا جميلا ظريفا بلغ من الكثرة درجة لم تر الصين ولا غيرها من البلاد مثيلا لها من قبل . وكان صناع كانج شى يظنون أن آنيتهم أقل جودة مما صنع فى عهد أسرة منج ، ولكن الخبيرين بأصول الفن فى هذه الأيام لا يوافقونهم على رأيهم ، بل يرون أن الأشكال القديمة قد قلدت تقليداً بلغ أقصى درجات الكمال ، وأن أشكالا جديدة كثيرة العدد مختلفة الأنواع قد ابتكرت وارتقت رقيا عظيما .

وكان فى مقدور الفنانين فى عهد أباطرة المنشو أن يغطوا عجينة الخزف بطبقة زجاجية تختلف عنها فى سرعة انصهارها ، فأخرجوا بذلك أوانى ذات سطح مسنن ؛ ثم كان فى مقدورهم أن ينفخوا فقاعات من اللون على السطح الزجاجى فأخرجوا بذلك الصحاف الرفيعة المغطاة بدوائر صغيرة من الألوان . وأتقنوا كذلك فن التلوين بلون واحد وأخرجوا ظلالا من اللون الأحمر الخوخى ، والمرجانى ، والياقوتى ، والقرمزى ، ودم الثور (الأحمر القاتم) والوردى ؛ وأخرجوا من اللون الأخضر الخيارى ، والتفاحى ، والطاووسى ، والنباتى ، والسلادون (الأخضر الحائل) ؛ ومن اللون الأزرق « المزران » ، والسماوى ، والبنفسجى الفاتح ، والفيروزجى ؛ ومن اللونين الأصفر والأبيض ضروبا ملساء مخملية كل ما يستطيع الإنسان أن يصفها به أنها النعومة ذاتها ترى رأى العين . وابتدعوا أنماطا مزخرفة يطلق عليها جامعو التحف الفرنسيون الأسر الوردية ؛ والخضراء ،

والسوداء ، والصفراء[*]. وقد أتقنوا ذلك الفن الشاق فن تعدد الألوان بتعريض الإناء فى التنور إلى تيارات متعاقبة من الهواء الصافى والمحمل بالسناج — الأول يُدخل فيه الأكسجين ، والثانى يمتصه منه — بحيث يتحول الطلاء الزجاجى الأخضر إلى لهب متعدد الألوان . وكانوا يرسمون على بعض آنيتهم صور كبار الموظفين فى أثواب فضفاضة ذات ذيول طويلة ، فابتدعوا بذلك طراز الآنية المعروفة « بالمندرين » (طراز كبار الموظفين) . وكانوا يرسمون أزهار البرقوق باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء (أو سوداء فى قليل من الأحيان) ، وهم الذين ابتدعوا ما للمزهريات التى فى صورة العوسج من رقة ورشاقة .

وكان آخر ما مر به الخزف الصينى من عهود المجد فى عهد تشين لو يج الرخى الطويل . ولم يقل الإنتاج فى ذلك العهد عما كان عليه فى العهود التى تقدمته ، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحظ بعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شى من نجاح . وقد بلغت **الأسرة الوردية** فى هذا العهد أعلى درجات الكمال . فقد انتشرت فيها نصف أزهار الطبيعة وفاكهتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية ، كما كان ذوو الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذى لا يزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لأضواء المصابيح[١١٤]. ثم شبت نار فتنة تاى — پنج ودامت خمسة عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً ، ودمَّرت خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية ، وهدمت ستمائة مدينة ، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء . وأفقرت أسرة المنشو إفقاراً اضطرها إلى أن تحبس معونتها عن مصانع الخزف ، فأغلقت هذه المصانع أبوابها ؛ وتشتت صناعها فى أنحاء العالم المضطرب .

ولم يفق فن الخزف الصينى حتى الآن مما أصابه من الدمار فى أثناء هذه الفتنة

(*) وفى متحف الفن بمدينة نيويورك أنموذجان ممتازان من المجموعتين الأخيرتين .

الصماء ولعله لن يفيق منها أبداً . ذلك ان عوامل أخرى قد ضاعفت من آثار



شكل ٩ — مزهرية عليها نقش الشجرة المضة
من عهد كانج — ثى

الحرب الخارجية ومن امتناع الرعاية الإمبراطورية ؛ منها أن نمو تجارة الصادرات قد أغرى الفنانين بأن يخرجوا قطعاً خزفية توائم ذوق المشترين الأوربيين . وإذا كان ذلك الذوق لا يبلغ من السمو ما بلغه ذوق أهل الصين فإن القطع المنحطة طردت القطع الثمينة من التداول ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الطيبة حسب قانون جريشام (*) .

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع إنجليزى أقيم فى مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوربا ويسميها « الأوانى الصينية » . ثم قامت مصانع فى سيفر بفرنسا ، وما يسن فى ألمانيا وبورسلم فى إنجلترا تحاكى خزف الصينيين ، وقللت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية .

وكل ما بقى حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذى خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزجاج العصور الوسطى الملون . ولقد عجز الخزافون الأوربيون رغم ما بذلوه من محاولات وجهود جبارة عن أن يبلغوا ما بلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . وحسب الفنانين الصينيين فخراً أن الخبراء العالميين يضاعفون فى كل عقد من السنين أثمان ما بقى من روائع فن الخزف الصينى ، فتراهم يطلبون خمسمائة ريال ثمناً لقدح الشاى ، ويبيعون المزهرية التى فى صورة شجرة العوسج بثلاثة وعشرين ألف ريال ، وفى عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان « بكلبى فو » فى أحد المزادات إلى خمسة أضعاف ما وصل إليه ثمن صورة « الطفل يسوع » لجيدروتى ، وإلى ثلاثة أمثال ما وصل إليه ثمن صورة « الأسرة المقدسة » لرفائيل [١١٥] . على أن كل من أحس بعينيه وأصابعه ، وبكل عصب من أعصاب جسمه ، جمال الخزف الصينى يغضب

(*) هو قانون النقد المشهور الذى يقول إنه إذا وجد فى بلد ما عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة فإن العملة الرديئة لا تلبث أن تطرد العملة الجيدة . (المترجم)

بلا ريب من هذا التقدير الضئيل ويعده إهانة للفن الصينى وازدراء به وتدنيساً لقدسيته . ذلك أن دنيا الجمال ودنيا المال لاتلتقيان أبداً حتى فى الوقت الذى تباع فيه الأشياء الجميلة . وحسبنا تقديراً للخزف الصينى أن نقول إن هذا الخزف هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها ، وإنه من أنبل ما صنعه الجنس البشرى ليبرر به وجوده على ظهر الأرض » .

الباب السادس والعشرون

الشعب والدوله

الفصل الأول

نبذة تاريخية

١ — ماركو بولو يزور كوبلاى خان

رحالة لا يصدقون — بندقى فى الصين — جمال هانجتشان ورخاؤها — قصور بيچنج — فتح المغول — چنكيز خان — كوبلاى خان — أخلاقه وسياسته — سابق ه — « ماركو الملايين »

فى عصر البندقية الذهبى حوالى عام ١٢٩٥ أقبل على المدينة رجلان طاعنتان فى السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلوهم العثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذى غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما تردد مواطنوهم فى الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم جابوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شامخة ، واجتازوا صحارى ملأى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ، وأقاموا عشرين عاماً فى الخطا(*) ، وخدموا أعظم ملك فى العالم كله . وأخذوا يحدثون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحاكما

(*) الاسم الذى يطلقه الروس على بلاد الصين وهو فى الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاى Cathay . (المترجم)

أعظم ثروة ، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوربا ؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة ، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب ، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان ، وعن أمم تقف بكارة الفتيات فيها حجر عثرة في سبيل الزواج ، وأمم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهنّ وهنّ راضيات[1] .
ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم ، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثرثرة لقب « ماركو الملايين » لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوءاً بالأعداد الكبيرة العجيبة[2] .

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير ، بل رضوا به مسرورين ، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية ، وأتت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم في مدينتهم . ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى في عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو ، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألقى هو في أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملا ، أخذ يسلى نفسه بأن يملى على أحد الكتبة أشهر كتاب في الأسفار في آداب العالم ؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسي ، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة البامير ، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان ، ثم اجتازوا صحراء جوبى إلى تنجوت ، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شانجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلا أذلاء من الغرب النائى[*] .

(*) شانجتو هى المدينة التى يسميها الشاعر الإنجليزى كولردج « زندو » ، ولم يرتد أحد من الرحالة بعد ماركوپولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسية الوسطى التى وصفها إلا فى عام ١٨٣٨ .

ولم يكونوا يظنون أنهم سيقيمون فى الصين أكثر من عام أو عامايين ، ولكنهم وجدوا فى تلك البلاد من الأعمال المجزية والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاى ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى فى مناصب الدولة حتى عين حاكما على هانجتشاو .
ويصفها ماركو فى كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرقى من بلاد أوربا بأجمعها فى جمال مبانيها وجسورها وفى عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسحرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاها لمرور العربات وأخراها لمرور السفن محملة بالبضائع التى يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عدد ما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثنى عشر ألفا ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج انحدارها من الشوارع إلى أعالى العقود ... وفى داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التى تخطئها الحصر ، والممتدة على جانبى شوارعها . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسى ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيما من أحد طرفى المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى فى اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسى ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها المجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع فى كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...

والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآ-.ر ... والشارع الرئيسى فى المدينة مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فمملوء بالحصباء الصغيرة ومن تحتها مصارف مقببة تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع مرورها على هذه الحصباء جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ، ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لستة أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة رجالا كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التنزه والاستمتاع بركوبها ...

ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مسارح لصيد الحيوان على اختلاف أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلا ، وتحمل إليها منه فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات باردة يشرف عليها خدم وخادمات . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء أن يستحموا فيها بالماء البارد منذ صغرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلين كلهم أن يغتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...

وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للعاهرات وهن يبلغن من الكثرة حداً لا أجرؤ على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ، ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات من الخادمات .

وفى شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبى شارع المدينة الرئيسى بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال ، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صغرهن الرقة والنحافة ، وليس فى وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتحلين به من حرير وجواهر[٣] .

وقد أعجب ماركوپولو بمدينة بيچنج (أو كمبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجابه بهانجتشاو نفسها ، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملايينه عن وصف ثروتها وتعداد عامرها . وكانت ضواحى المدينة الاثنتا عشرة أجمل منها نفسها ، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا فى هذه الضواحى كثيراً من البيوت الجميلة[٤] وكان فى المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة . وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً ، وكان يدخلها فى كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها . وقد كان للخان قصور فى هانجتشاو وشانجتو وغيرهما من المدن ولكن أكبر قصوره كان فى بيچنج نفسها . وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصعد إليه بدرج من الرخام أيضاً . وكان مبناه الرئيسى كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس » . وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف ، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة ، وبما يغطى سقفها من قرميد مختلف الألوان ، ويقول إنه لم ير فى حياته مدينة فى مثل غناها ولا ملكاً فى عظمة ملكها[٥] .

وما من شك فى أن الشاب البندقى قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقرأها ، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاى وأسلافه المغول بلاد الصين . وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدباء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهاها الأقوياء ، فاندفع المغول (أى البواسل) إلى شن الغارات المستيئسة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار جنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حمير من الخشب ، أو يقطعهم إربا ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوه فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوبى ؛ وهجم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى المخربة فى الظلام دون أن تعثر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعجه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا هممهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجللهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى چويتنج — فو وصمد للحصار حتى قتل المحاصرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كنتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشى يوفو القائد الصينى الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وبنفسه فى البحر فماتا معاً . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفاتح المغولى . وأمر كوبلاى أن يحتفل بجنازة الإمبراطور احتفالا رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهى الأسرة المغولية التى حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاى نفسه بربريا همجيا . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته الغادرة لأن الغدر كان من الأخلاق الشائعة فى تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطنى أبى أن يعترف بحكومة كوبلاى وفاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاى فى السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب فى سجنه تلك القطعة التى تعد من أشهر ما كتب فى الأدب الصينى كله :

إن سجنى لا يضيؤه إلا الصيهد ولا تدخله نسمة من نسمات الربيع لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت فى أن أقضى على نفسى من فرط ما أثر فى من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولى ولا يقضى علىَّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقر بين جوانحى ما لا تستطيع النائبات أن تغتصبه منى ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسى وأطوى قلبى على آلام لا حد لها كما لا حد للسماء .

واستدعاه كوبلاى آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلا : « أى شىء تريد ؟ » فأجابه ون بقوله : « لقد عطف علىَّ إمبراطور سونج فجعلنى وزيراً لجلالته ، وليس فى وسعى أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابه كوبلاى إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوع واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية[٧] .

ومع هــذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلغى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاً ما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قَبِل هو وأتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استحالوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . ومما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تينتسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين مذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهلين فى أيام القحط ، وألغى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات[*] ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عليها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح المجمع العلمى الإمبراطورى[٩] ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى بيكين كانت لروعتها وكثرة

(*) وقد كتب ماركوپولو فى ذلك يقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والثمام . وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفقراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه » .

عاصرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر الصين له مثيلا من قبل .

ويقول ماركوپولو : « وقد كان پولو حاضراً فى البلاد حين كان هذا كله يحدث فيها »[١٠] واتصل الشاب بالخان وتقرب إليه واستطاع بذلك أن يصف لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلا ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنه كان للخان فضلا عن زوجاته الأربع اللاتى يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السرارى جىء بهن من أنجوت فى بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بجمال نساء تلك البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليجندوا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من الفتيات حسب الأوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما مثلن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين فى قصره ... ثم يعهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات فى القصر لتتأكد من أنها ليس فيها شىء من العيوب التى تخفى عن الأعين وأنها تنام نوماً هادئاً ، ولا تغط فى أثناء نومها ، ولا تنبعث رائحة كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها . فإذا ما نجحن فى هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم فى حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين فى خلالها كل ما يطلب إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد[١١]

* * *

وبعد أن أقام ماركوپولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة فى بلاد الصين اغتنم ثلاثتهم فرصة قيامهم بمهمة إلى الفرس ، أوفدهم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاى برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً فى ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين، وقضوا فى طوافهم بحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفى رحلتهم البرية إلى طربزون على البحر الأسود وأخيراً فى رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوربا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا(*) . وعمر ماركو طويلا فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجى نفسه من العذاب فى الدار الآخرة بمحو ما ورد فى كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أفحمهم برده عليهم : « إنى لم أذكر فى كتابى نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة فى حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس فى تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج الماجن اسم « ماركو الملايين » :

٢ — أسرتا منج وچنج

سقوط المغول — أسرة منج — غزو المنشو — أسرة چنج — ملك مستنير — شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون، فسرعان ما دب الاضمحلال فى أسرة يوان متأثرة بانهيار سلطان المغول فى أوربا وغرب آسيه وفى ذوبان المغول فى جسم الشعب الصينى نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المتحذلقة لنعلل بها هذه الظاهرة التى تتكرر فى جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(*) لقد أثبت كوبلاى اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء النقرس .

كالصين مسمة الرقعة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاى خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولى أثراً يذكر فى عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله فى الأدب الصينى من الروايات والمسرحيات .

وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنوهم وغلبوهم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل پيكين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أى المتألقين) . وجلس على العرش فى الجيل التالى ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستمتعت الصين فى عهد يو نج لو مرة أخرى بعهد جديد من عهود الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجى ؛ وبينا كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادية اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت پيكين . تلك هى جحافل المنشو .

وكان المنشو شعباً تنجوسياً ظل قروناً كثيرة يعيش فى البلاد التى تعرف الآن باسم منشوكو (أى مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم فى أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأمر زوجته أن تنتحر(*) ، ثم شنق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه :

« نحن الفقراء فى الفضيلة ، ذوى الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلى القدير .

(*) وصدعت بما أمرت ، وتقول الروايات المأثورة إن الكثيرات من السرارى قد حذون حذوها .

« لقد غرر بى وزرائى ، وإنى لأستحى أن ألقى فى الآخرة آبائى وأجدادى ، ولهذا فإنى أخلع بيدى تاجى عن رأسى ، وأنتظر وشعرى يغطى وجهى أن يقطع الثوار أشلائى ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبى »[١٥] . ودفنه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشنج (الطاهرة) التى حكمت الصين حتى عهدنا الثورى الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستمتعت البلاد تحت حكم كانج شى بعهد من الرخاء والسلم والاستنارة لم تعرف له مثيلا فى تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو فى السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور فى إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والتركستان . وما من شك فى أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شى بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجزيب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلا نشيطا قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة فى الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل فى الوقت نفسه على أن يلم بعلوم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف فى أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائى . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شىء من الإسراف أو الترف ويقتصد فى نفقات الدولة الإدارية ويفخر بالعمل على رفاهية شعبه[١٦] . وازدهرت الآداب والعلوم فى أيامه بفضل تشجيعه إياها ومناصرتها ؛ وعاد فن الخزف إلى أعلى ما وصل إليه فى أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً فى الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التى كان يتبعها التجار الأوربيون فى ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموفق (١٦٦١ — ١٧٢٢) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إنى

لأخشى أن تتعرض الصين فى مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التى تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار[١٧] » .

وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوربا مرة أخرى فى عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونج . وكان هذا الإمبراطور شاعراً أنشأ ٣٤٫٠٠٠ قصيدة إحداها فى «الشاى» وصلت إلى مسامع ڤلتير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »[١٨]، وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التى يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس فى إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين (١٧٣٧ — ١٧٩٦) ، ونزل عن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفى (١٧٩٩). وحدثت فى آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كانج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بعثة برياسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونج فى عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التى تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التى يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونج إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى جورج الثالث :

« إن الأشياء العجيبة البديعة لاقيمة لها فى نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلىَّ من تعيين ممثل لكم فى بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتى ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يغادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتاع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »[١٩] .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام على هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحضارة الفذة المستنيرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

الفصل الثانى

الصينيون ولغتهم (*)

تعداد السكان — مظهرهم الخارجى — ملبسهم — خصائص اللغة الصينية — خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عنصر الصورة التى سنرسمها فى هذا الفصل هو عنصر العدد ؛ فالصينيون كثيرون ، وليس عددهم معروفاً بالضبط ، وكل مايقال عنه من قبيل الحدس والتخمين . ويظن بعض العلماء أن سكان الصين فى عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ وأنهم وصلوا فى عام ٢٠٠ ق . م إلى ٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ٧٢٦ ق . م إلى ٤١٫٥٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٨٩٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٧٤٣ إلى ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٩١٩ إلى ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠[٢٠] . ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى فى الصين فى القرن الرابع عشر « مائتى مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية »[٢١] وإحصاء السكان فى الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله[٢٢] . ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحه هذه اللوحات ، ولا مدى صحة التقريرات التى يقال إنها توضع على أساسها ، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالى أربعمائة مليون من الأنفس.

ويختلف الصينيون فى أجسامهم ، فهم فى الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم فى الشمال ، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية ، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام ، شديدو المقاومة للأمراض ، سريعو التأقلم فى كل مناخ ؛

(*) إن هذا الوصف الذى نصف به المجتمع الصينى لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع فى القرن التاسع عشر . أما ما حدث فى هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فسندرسه فى الفصول التالية . ويجب أن يؤخذ كل ما نورده من وصف له بالحذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون مماثلة فى عهد طويل أو فى رقعة من الأرض واسعة .

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا فى مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهر فى قواهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلا جذاباً . نعم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظمى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملان أحدهما جثمانى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً واضحاً إلى الحد الذى يتصوره المرء مما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلا . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات يبيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجبهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال [٢٣] .

وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقصه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكامهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حلق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلفى وجمعوه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم المخطئ ومظهراً من مظاهر الكبرياء [٢٤] . ولحاهم لا تطول ، وكانوا يحلقونها على الدوام ، وقلما كان الواحد منهم يحلق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الحلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتركون رؤوسهم عارية ؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم في الشتاء قلانس من المخمل أو الفراء ذوات حافات منثنية إلى أعلى ، وفي الصيف قلانس مخروطية الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعلو الواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن ، كرة ملونة وشريط حريري .

أما النساء فكن يضعن على رءوسهن ، إذا مكنتهن من ذلك مواردهن ، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالمرجان والحلى أو الأزهار الصناعية ، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة ، ولما كانت أرض المنازل تصنع في كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصيني كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه . وقد نبتت في بلاط الإمبراطور لي هو — چو (حوالى ٩٧٠ ب . م) عادة ربط أقدام البنات وهن في سن السابعة بأربطة ضيقة لكي تبقى صغيرة فتمشى السيدة الكبيرة تخطر خطراً يعجب به الرجال . وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم ؛ بل إن الكلمة الصينية التي معناها القدم كان يحرم ذكرها في حضرة السيدات[٣٥] . وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة ، حتى لقد كان الكذب في حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج[٣٦] . وحاول كانج شي أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان إبطالها أثراً من آثارها الصالحة .

وكانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب ، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق . وفي الشتاء كان السروال يغطى بالطاق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان ، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلا ونهاراً طول فصل الشتاء ، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد[٣٧] . وكان المئزر مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كمّان كبيران يغنيان عن الجيوب ، والصينيون لا يقولون إن الرجل وضع شيئاً ما فى «جيبه» بل يقولون إنه وضعه فى «كمه».أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء فى الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما فى المدن فكن يلبسن فوق السراويل نقباً(*) . وكان الحرير كثيرا فى المدن يستوى فى ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أثداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين فى هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لا يختلفون فى ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لا تكاد تختلف فى الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذى يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك فى أن نمطاً من الأنماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر الناس . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنا لنعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهى أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التى ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة فى الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلة ، ولكننا لا نجد

(*) هى المعروفة بالجونلات .

أثراً لشيء من هذا فى أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلا أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثمائة أو أربعمائه لفظ صوتى ذى مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هى التى تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة فى اللغة الكتابية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغمات » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغنى به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمات ، وتجعل كل صوت يؤدى أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلا قد يؤدى تسعة وستين معنى كما أن للفظ شي تسعة وخمسين ، وللفظ كو تسعة وعشرين[٣٠] . ولسنا نعرف لغة من اللغات قد بلغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التى استخرجت من هونان والتى يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لا تختلف كثيراً عن الرموز المستعملة فى هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلا من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة[*] فإن اللغة الصينية هى أقدم اللغات التى ينطق بها الناس فى هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون فى بادئ الأمر يعقدون عقداً فى خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين إلى تمييز آنيتهم بعضها من بعض هى التى أدت إلى الرموز المصوَّرة[٣٢] .

(*) نعود هنا ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لا يستعملونها فى كلامهم . وليست اللغة القبطية هى اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألفاظها . (المترجم)

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة ، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية ؛ وقد سمى نحو مائتين وأربعة عشر رمزاً منها « أصولا » لأنها عناصر أساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة ، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها « للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض »(*) كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته(**) . ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية ، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها « الصباح » ، والشمس والقمر مجتمعين يمثلان « الضوء » ؛ والفم والطائر معاً معناها « الغناء » ، والمرأة تحت سقف معناها « السلام » ؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على « الالتواء » يتكون منها الرمز الذى منه « خَطِر » ؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعنيان « شرشرة » ؛ والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين ؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة(٣٣) .

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بمحافظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات « الحاضرة » . والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها ، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(*) فى اللغة العربية شىء من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤديها فى العربية لفظة الكميت والأبطن ، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط مبلغه فى اللغة الصينية إذ يؤديها فيها رمز واحد (المترجم)

(**) وهذا المعنى يؤديه فى العربية لفظ أصقع . (المترجم)

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذى نحتاجه لكى نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلة من الكلمات ، رأينا أن فى العبارات التى نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظلماً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصينى يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصينى العادى يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضح ميزة لهذه اللغة — التى لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هى أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع فى نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلا ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة فى مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة فى جوهرها على حين أن لغة الكلام قد تفرعت إلى ما ينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان فى وسع الصينى غير الأمى أن يقرأ الأدب الصينى الذى ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفى عام كاملة ، وإن كنا لا نعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التى كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التى ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الفيض الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً فى تمسك الصينيين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت فى البلاد ، وكانت هى القالب الذى صبت فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل فى هذه الظاهرة الفذة التى امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابى فى حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأناً ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجماد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التى جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل فى صورها الكاملة جميع مافى الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نثق كل الثقة من أن الطرق المختلفة التى ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز فى القرن السابع عشر وسير وُنْلْدُرْس فى هذه الأيام يحلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واحدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التى كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً فى الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التى وصل إليها الشرقى لنتيجة منطقية رهيبة : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

الفصل الثالث

الحياة العملية

١ — فى الحقول

فقر الزراع — الوسائل الاقتصادية — المحصولات — الشاى — الطعام — صبر أهل القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التى يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب ، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصينى من دقة وعمق ، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف . وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هى جهود الصينيين أنفسهم ، لأن التربة الخصبة لا تخلق خلقاً بل تنشأ إنشاء . وما من شك فى أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالا يكافحون الأدغال والغابات ، والوحوش والحشرات ، والجفاف والفيضان ، وأملاح التربة والصقيع ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يحولوا تلك البرارى الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة ، وكان لا بد لهم أن يعودوا حيناً بعد حين إلى خوض هذه المعارك لكى يحتفظوا بما نالوا من نصر ، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلا استحالت الأرض صحراء مجدبة(*) ، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استحالت حراجاً وغابات كثيفة .

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً مريراً ينطوى على أخطار جسيمة ، وكان يزيد من مرارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

(*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التى تقطع أشجارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة وتحدث وتخاو من الدوائق التى تحول دون انسياب السيول على الوديان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذ كان الزراع يتقون هذه الإغارة بأن يعيشوا فى جماعات صغيرة لا فى منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزرع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة فى هذه الأيام . وكانوا فى بعض الأحيان يفلحون الأرض بالمحاريث ، وقد اتخذوها أولا من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالفأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجدونه من المخصبات الطبيعية ، ولا يستنكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والآدميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يجرون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال فى الصخور الصماء ليصلوا بها إلى مجرى مائى بعيد أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو المخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجر فى كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زرعات فى العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر فى التاريخ[٢٤] .

وكانت أهم الحبوب التى زرعوها هى الأرز والذرة ويليها فى الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب فى يوم من الأيام . أما شرابه المحبب إليه ، ومحصوله الذى يلى الأرز فى أهميته ، فهو الشاى . وكان استعماله فى مبدإ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار فى عهد أسرة تانج من المحصولات التى تصدر إلى خارج البلاد ،

والتى يتغنى بها الشعراء فى أشعارهم . ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاى تتغنى بمديحه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين[٣٥] . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل المقوية كالثوم والبصل ، وعشرات المئات من أنواع الفاكهة[٣٦] ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأناً ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحياناً فى حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج[٣٧] ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والمجارى المائية العذبة .

وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف ، والمكرونة ، والشعرية ، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا لحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنية لحم البط ، وكانت أرقى المآدب التى تقام فى بيكين تحتوى على مائة صنف من أصناف البط[٣٨] . وكان لبن البقر نادراً وكذلك كان البيض قليلا وقلما كان يؤكل طازجاً . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو فى الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء ، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنتهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصغار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبغال والجرزان وثعابين الماء والقطط والكلاب[٣٩] . وكان الصينيون يحبون لذيذ المأكل ، ولم يكن من غير المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغنى على أربعين صنفاً ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعاً يأكلون فيها و يشربون .

أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله فى طعامه الذى كان

يتناول منه وجبتين فى اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات فى مختلف الأقاليم والأوقات. وكان فى وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد فى أيد قليلة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ، كما حدث فى أيام الإمبراطور شى هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدى إلى تركيز الثروة مرة أخرى[41] . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضى ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل فى كل قرن عن الذى قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هى الفقر الذى لا مثيل له إلا فى أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالا أمريكيا ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل ١/٢ من الريال فى اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع فى كل عام[42] . وقد ظلت الصين عشرين قرناً كاملا تعانى القحط بمعدل مرة فى كل عام[43] ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمق ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعى واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان فى بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام فى البعض الآخر يزيد على حاجة الأهلين . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان فى بعض الأحيان يتلف ما يتركه المالك والجابى للزارع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذى يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويغرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه الكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة الفانية هو قبعة وحفنة

من الأرز »[٤٤] . وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون فى عملهم ، فلم تكن ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها وسرعتها . ولم يكن لهم أيام راحة فى آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل فرصة يستريح فيهما من عناء كدحه ؛ ويخفف فيهما بالمسرحيات والأساطير ما فى سائر فصول السنة من اكتئاب فإذا ما ولى الشتاء بزمهريره ووجهه الكالح ، ولانت تربة الأرض بما سقط عليهما من مطر الربيع بعد أن ذاب ما تراكم عليهما من ثلج الشتاء ، خرج الفلاحون مرة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويغنوا فى مرح وحبور أغانى الأمل التى تحدرت إليهم من ماضيهم السحيق .

٢ — فى المتاجر

الحرف اليدوية — الحرير — المصانع — الطوائف — الحمالون — الطرق والقنوات — التجار — الائتمان والنقود — تجارب فى العملة المتداولة — التضخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة فى تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل فى كافة أنحاء الأرض قبل القرن الثامن عشر . فمهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيه السحيق وجدنا الحرف اليدوية منتشرة فى البيوت والتجارة رائجة فى المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هى صناعة النسيج وتربية دود القز لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بها النساء فى أكواخهن أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة فى البلاد ، وترجع بدايتها فى الصين إلى الألفى السنة السابقة لميلاد المسيح(*)[٤٥] . وكان الصينيون يطعمون

(*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من شرانق ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الدود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان النساطرة من الصين إلى أوربا حوالى عام ٥٢٢ م[٤٦] . وانتقلت هذه الصناعة فى القرن الثانى عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت إلى إنجلترا فى القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التقطيع ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارئ لايصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠٫٠٠٠ دودة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٩٫٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً (٤٧) . وكانت الديدان الكبار توضع بعدئذ فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرانقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرانق وألقيت فى ماء ساخن فخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وصنعوا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله (*) ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة لميلاد المسيح ، ولذلك وُجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت هى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدحام المدن بالسكان العاملين المجدين الذين جعلوا الصين فى أيام كو بلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوربا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركو پولو فى ذلك يقول :

« لكل حرفة من الحرف مائة متجر يهيئ كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لايعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالرقة والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم » (٥٠) . وكانت هذه النقابات تعمل ما تعمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتنظم

(*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بنسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم (٤٨) كما يعرض عليهم غيره آنية من الخزف أو يبسط أمامهم ملفا من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم فى الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعى فى تلك البلاد ، مقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة فى هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات فى الصين تضطلع بكثير من الواجبات التى عهد بها السكان الغربيون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل فى تنفيذها . وقد قللت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التى يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوى . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث فى هذه الأيام بين مبدأى التخلى وترك الأمور تجرى فى مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعمالهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأناً كالحلاقين والحمالين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة[٥١] . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم فى الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع فى أيام القحط ويباعون بعدد قليل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب فى كل وقت أن يبيع بناته أو عبيده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه فى بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدوله[٥٢] .

وكانت منتجات العمل تنقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الحدوج فوق أكتاف الحمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عملهم أو يتضجرون منه[*] ، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الحمير أحياناً ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الآدميين قد بلغت من الرخص حداً لا يشجع على رقىّ النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتعبيدها .

ولما أن أنشئ أول خط حديدى فى الصين بين شنغهاى وووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر[٥٣] . وقد أنشئت فى أيام شى هوانج — دى وكوبلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لا يزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لكى تحجب الشمس ، وكانت القناطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥٫٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشاو بتيانتشين والتى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلا ، والتى بدئ

(*) إن اللفظ الإنجليزى لهذه الكلمة وهو Cooli هندى الأصل ولعله مشتق من اللفظ التميلى Kuli ومعناه الخادم المأجور .

فى حفرها سنة ٣٠٠ م وتم فى عهد كوبلاى خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا ينقطع غدوها ورواحها فى الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات فى المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغربيات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه[٦٤] ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم فى هذا طبقة الزراع ، ويأتى الصناع فى المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة - على حد قول الصينيين — لا تجنى الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا ونقلوا غلات حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية، وصاروا فى آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تعرقلها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قُطاع الطريق فى البر والقراصنة فى البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها فى آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بحراً وبالسير فى طرق القوافل التى تخترق التركستان[٥٥] وكانت أشهر الصادرات هى الحرير والشاى والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفِصْفِصَة(*) .

(*) هو المعروف بالإنجليزية باسم **Alfalfa** واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفِصْفصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والفول السودانى والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجارى نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بفوائد عالية تبلغ فى العادة نحو ٣٦٪ ، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت فى بلاد اليونان والرومان[٥٦] . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هذه الأخطار ، ولم يكن أحد يحبهم إلا في مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »[٥٧] . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداف البحرية والمدى والحرير .

ويرجع تاريخ أقدم عملة معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل[٥٨] وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية فى عهد أسرة شين ، وكانت العملة الصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل(*) . ولما أخفقت التجربة التى قام بها وو دى والتى أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعيض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفى بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج فى عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها فى خزائن الحكومة وأن يصدر بدلا منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائرة » ، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطمأنينة التى تحمل بها الأمريكيون

(*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة فى الصين فى هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهى عملة قيمتها ١/٢ أو ١/٣ من الريال الأمريكى كما يصنع منه الثميل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متاعبهم فى عام ١٩٣٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلا ريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة فى عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة فى عام ٩٣٥ م والحكومة الوطنية فى شنجان عام ٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة فى عهد أسرة سونج فى إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات[٥٩] .

ويقول ماركو بولو عن خزائن كوبلاى خان : « إن دار السك الإمبراطورية تقوم فى مدينة كمبوك (بيكين) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التى تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقان بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التى يؤخذ بها لحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدها فى مقام الذهب[٦٠] . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذى أخذ من ذلك الحين يدفع عجلة الحياة الاقتصادية فى العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

٣ — المخترعات والعلوم

البارود — الألعاب النارية والحروب — ندرة المخترعات الصناعية — الجغرافية — الرياضيات — الطبيعة — « فنج شوى » — الفلك — الطب — تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون . فقد اخترعوا البارود فى أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا فى ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه فى صنع القنابل اليدوية وفى الحروب إلا فى عهد أسرة سونج (عام ١١٦١ م) . وعرف العرب ملح البارود (نترات البوتاسا) — وهو أهم مركبات البارود — فى أثناء

اتجارهم مع الصين وسموه « الثلج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب فى إسبانيا فى الأغراض الحربية ، ولعل سير روجر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله بده — روكى الرحالة الذى طاف فى أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق چو قد اخترعها فى عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب فى عودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »[٦٢] . وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوراً على تحديد الاتجاهات فى بناء الهياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية فى السونج — شو وهو كتاب تاريخى مؤلف فى القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفلكى چانج هنج (المتوفى فى عام ١٣٩م)، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء فى كتاب أُلّف فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعزو استخدامها فى هذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسيرون سفنهم بين سومطره وكانتون[٦٣] . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة فى أقوال الأوربيين هى ما ذكر عنها فى قصيدة لجنيو ده بروڤن[٦٤] .

على أننا لا نستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة فى ميدان الاختراعات الصناعية رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخزف . ولقد كانوا مخترعين فى الفنون ؛ وقد ارتقوا بها فى صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها فى غير بلادهم أو فى غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى

عام ١٩١٢ قانعين بالجرى على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحتقرون الأساليب والحيل التى تغنى عن العمل الشاق ، وتضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم فى احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التى اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليله منذ عام ١٩٢٢ ق م[٦٥] ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجه وتركوا معظم ما تخبئه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحائط ، ولم يخترعوا المسامير المحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها[٦٦] . وقد ظلت حياة الصين الصناعية فى أهم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفى العام التى بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها فى هذا شأن الحياة الصناعية فى أوربا من أيام بركليز إلى عهد الانقلاب الصناعى.

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية فى الزراعة وفى تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألقت رسالات قيمة فى علم تقويم البلدن[٦٧] . وقد خلف عالمها الرياضى المعمر چانج تسانج (المتوفى فى عام ١٥٢ ق . م) وراءه كتاباً فى الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — چى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التى تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها[٦٨] .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) فى عام ١٣٢م(*). ولكن علم الطبيعة الصينى قد ضلت معظم أبحاثه فى دياجير الفنج چوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة(**). وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة فى بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض(٧٠). وكان فى وسع الفلكيين فى أيام كنفوشيوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً، وأن يضعوا أساس التقويم الصينى بتقسيم اليوم إلى اثنتى عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهراً آخر فى كل بضع سنين لكى يتفق التقويم القمرى مع الفصول الشمسية(٧١). وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة فى السماء؛ وكانت أعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم.

وكان الطب فى الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية. وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة چو تعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم فى الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة فى الاختبارات. وقد أمر حاكم صينى فى القرن الرابع

(*) وكانت الآلة التى اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من النحاس قائمة على لوالب دقيقة حول وعاء نجثم فى وسطه ضفدعة فاغرة فاها. وكان كل تنين يمسك فى فمه كرة من النحاس؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها فى فم الضفدعة؛ وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هج وقالوا إنه مشعوذ حتى جاءهم رسول وقال لهم إن زلزالا وقع فى أحد الأقاليم النائية(٦٩).

(**) كان الفنج حى (الريح والماء) فنا واسع الانتشار فى الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع البيوت والقبور فى الإقليم ومهاب الريح وتيارات الماء فيه.

قبل المسيح أن تشرح جثث أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظرى ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب چانج چونج — تنج فى القرن الثانى عدة رسائل فى التغذية والحميات ظلت هى النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دو فى القرن الثالث كتاباً فى الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذ يخدر المريض تخديراً تاما . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شيء . وكتب وانج شو — هو فى عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب[٧٢]

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج — چنج وصفا شاملا لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاو يوان — فانج كتابا قيما فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلا . وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج[٧٣] . وأنشئت فى أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبى هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال فى اليوم الواحد[٧٤] . وكان الأطباء يطنبون ويتحذلقون فى تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحميات مثلا ألف نوع ، وميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدرى ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، ولعلهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر فى الصين فى أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهلين ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر فى بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاما بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق (٧٥) . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقى والتخلص من الفضلات .

وكان الصابون من مواد الترف التى لا يحصل عليها إلا الأثرياء المتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل فى وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب فى أوربا من عهد أبقراط إلى عهد پاستير . وغزا الطب الأوربى بلاد الصين فى صحبة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

الفصل الرابع

دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك — عبادة الطبيعة — عبادة السماء — عبادة الأسلاف — الكمموشية — الدوية — إكسير الخلود — الوذية — التسامح الدنى والتصوف — الإسلام — المسيحية وأسباب إخفاقها فى الصين

لم يقم المجتمع الصينى على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات، أو أكثر منه تشككا أو أعظم منه تُقى، أو أكثر انصياعا لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية. ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم غير الهنود بآلهتهم، أو يشقوا بهم بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا. ولسنا نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له فى التاريخ، وأن نقر بما فى فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا ينضب.

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها، وإجلال شعرى لما على الأرض من صور رهيبة ومافيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدونهما عنصراً من عناصر الوئام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما فى السماء من قوى خفية، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعى؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة النماء، وكان

الشبان والفتيات فى أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون فى الحقول ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج . ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن فى تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد فى أقوال المؤرخين الذين أطنبوا فيما بعد فى وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة إلا بعد أن يمهدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة(٧٦).

وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليافع بالابن . وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلقى عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمى لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا شأن القوانين التى تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ، هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله . لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصلى الشعب لتين — للسماء المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة البعد عن قوة البشر فرادى أومجتمعين — التى تسيطر على السموات والأرضين والأناسى . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة « السماء » الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى(٧٧) .

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومى وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون فى كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون فى العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن فى تخليدها تعظيما للطرق القديمة التى كانوا يسيرون عليها وسداً لطريق البدع وإقراراً للسلام فى أنحاء الإمبراطورية . وما من شك فى أن هذا لدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفلح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت فى نظر الفيلسوف الصينى صعاباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها فى وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم فى هذه العظمة التى لا يحدها وقت وفى ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلا بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم فى المكانة الثانية بعد السماء نفسها . فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها ، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه ، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر .

ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعدّه إلها ؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلا من الإله ؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون ، ولكنهم — إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متدينين . وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى ، أى القوة العليا المسيطرة على العالم ، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرّب القربان باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد . وقد حلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود[٧٨] ، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم .

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات . ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس ، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيهم ، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية . ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يجملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى

الأرض التى تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستمينوها بالأدعية وبالرقى السحرية . وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلاى — چنج أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعرّافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار[٧٩] . وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال فى أيام « النحس »[٨٠] . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيرة يقتلن أنفسهن فى بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن[٨١] . وكانت نفوس الصينيين عامة وفى الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التى تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوق إلى عقيدة تجد فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحيي موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً فى دين جديد . لقد كانت الدوية فى رأى الأستاذ القديم وفى رأى چوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤلهوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم ينظروا إليها على أنها ثمن يؤدونه فى هذه الدار ليشتروا به الحياة فى الدار الآخرة[٨٢] ، فلما كان القرن الثانى بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير فى صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافا يقال إنه أودى بحياة عدد غير قليل من الأباطرة الصينيين لكثرة إدمانهم إياه[٨٣] . وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين فى سشوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلسم بسيط يعطيهم إياه فى نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم[٨٤] . وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحدانا ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذي لا ينضب له معين . واتخذ الناس لودزه إلهاً يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه حملا سماويا ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه وُلد كاملِ العقل طاعناً فى السن لأنه أقام فى بطن أمه ثمانين عاماً[٨٥] . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر فى أفنية الهياكل ويبتهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عُبّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية ألف عام عقيدة الملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح لينتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس فى فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذى قضى عليها لم يكن منطق كنفوشيوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هى نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى فى نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التى بدأت تنتقل من الهند إلى الصين فى القرن الأول الميلادى هى العقيدة الجامدة المكتئبة التى نادى بها « المستنير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان فى غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار ورياض . واتخذت على توالى الأيام صورة المركبة الكبرى أو الماهيانا التى وفق فقهاء الكنشكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذّج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترقون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتبها حاكم الجنة ، وكوان — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من **اللوهان والأرباط** — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين فى كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لكى يساعدوا بنى الإنسان الحيارى المعذبين.

ولما ألفت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المعذبة وجهها شطر البوذية كما ولى العالم الرومانى وجهه فى ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعيها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان فى نفوس الصينيين امتزاجا تاما ؛ وأخذ الأباطرة يضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة يأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت فى الأديرة وعقمت فأضحت لا تفيد منها البلاد شيئاً . لكن الحكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للكهنة أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقتا الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الكنفوشية ديناً أرستقراطيا لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاى — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يحجوا إلى هذه الهياكل مراراً كثيرة إظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم فى إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورقى كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحل كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد فى نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل فى عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشئومين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسى لم يكن كبيراً فى يوم من الأيام — نهضة الكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونصب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عُبّاد إلا كهنتها الفقراء المعدمون.[٨٦]

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية فى دين الصينى الساذج . ذلك أن الأديان فى الصين ليست محدودة مانعة كما هى فى أوربا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد فى يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين فى تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً فى العقائد نفسها ؛ فالصينى العادى من عبدة مظاهر الطبيعة ودوِّىّ وبوذى وكنفوشى فى وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف ألا شىء فى هذا العالم محقق مؤكد ، ويقول فى نفسه لعل رجال الدين على حق ولعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصينى لا يعبأ كثيراً بالآلهة ما دام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هيا كل الدوية والبوذية فى رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بخير فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب فى صلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه فى هذا العالم الأرضى(٨٧) . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر فى النهر . ومن الأمثال الصينية المأثورة : «ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع(٨٨) » .

ومن أجل هذا لم يقبل الصينى العادى بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذانك الدينان يمنيانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذى يريده بحق هو دين يضمن له السعادة فى هذه الأرض . وإذا قيل إن فى الصين مسلمين فجوابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين فى الصين ليسوا فى

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب[٨٩] . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور تاى دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحمى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا فى عام ٧٨١ نصباً تذكارياً سجلوا عليه تقديرهم لهذا المتسامح المستنير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية فى القريب العاجل جميع أنحاء البلاد[٩٠] .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستنت تؤيدهم الأموال الأمريكية التى لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فماذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين فى الصين فى هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً فى المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية فى ألف عام كاملة[*] .

(*) لقد فاتت المسيحية فرصة أتيحت لها فى القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثوليكية الرومانية فى الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حرياً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسيلة للتوفيق بين العنصرين الأساسيين فى الديانات الصينية — عبادة الأسلاف وإجلال السماء — وبين العقائد المسيحية من غير أن يقوضوا دعائم النظم الدينية المتأصلة فى الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقى . لكن رهبان الدمنيكيين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحى على أصوله الدقيقة ، وأخذوا يشهرون بكل ما فى العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم ويقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج — شى رجلا مستنيراً شديد العطف على المسيحية ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية ببعض الشروط ؛ فلما أن أيدت الكنيسة المسيحية فى الصين رسميا موقف الدمنيكيين والفرنسيسيين الجامد الشديد قبض يده عن معونة المسيحية ، ولم يكتف خلفاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلبى بل قرروا أن يقاوموها مقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين فى الأيام الأخيرة ونزعتهم الاستعمارية من العوامل التى أضعفت ا قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التى يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

الفصل الخامس

حكم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصيني – الأسرة – الأطفال – العفة – الدعارة – العلاقات الجنسية قبل الزواج – الزواج والحب – الاقتصار على زوجة واحدة وتعدد الزوجات – التسري – الطلاق – إمبراطورة صينية – الحكم الأبوي للذكور – خضوع النساء للرجال – الخلق الصيني

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لهما، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لا غنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينيتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلا بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصيني من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نوائب وما اجتاحها من أعاصير سياسية. وفي ذلك يقول فلتير: « إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه في نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقي »[٩٢] ويقول كنفوشيوس في هذا المعنى نفسه: « إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم »[٩٣].

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذي يهدف إليه القانون الأخلاقي هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المعقول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الغزاة فهى فى حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنازع البقاء بين الناس فى الأسرة الكبيرة والبيئات المزدحمة فإن هذا التنازع نفسه سيقضى على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة. ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقربوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا فى الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفى ذلك يقول منشيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »[٩٤] .

وكان الآباء يدعون فى صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل فى الحقول وأثبت منهن جناناً فى ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة فى البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى فى وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبئاً على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم. وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب فى إعالتهن تركتهن فى الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية[٩٥] دون أن تشعر بشىء من وخز الضمير. وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحل فى تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء فى بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحنانهم[٩٦] . وكان الأطفال يتركون فى المنزل فى الجناح الخاص بالنساء ، وقلما كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبلغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفى لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلا تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمح لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والحاظى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صوريا[٩٧] .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص فى بناتهم ، وقد نجحوا فى غرس هذه الفضيلة فى البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن فى بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة[٩٨] . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواخير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار ، يستمتع به الرجل كما يشتهى من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط فى أية عادة من العادات[٩٩](*) .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقرا للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم[١٠١] .

ويقول ماركو پولو إنه شاهد فى عاصمة كوبلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جمالهن . وهؤلاء البغايا مرخص لهن

(١) وكان الرحال فى بعض الأحيان يعدون أنفسهم حهرة لقضاء الليل فى بيت من بيوت الدعارة بالصورة الخليعة والباهات والأغانى[١٠٠] . ومن واجبنا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة فى الزوال فى هذه الأيام .

بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية ، وتقدم أجملهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية[١٠٢] .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن « بالبنات المغنيات » مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن فى بيوت الأزواج لتسلية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات فى الأدب والفلسفة وممن يجدن الموسيقى والرقص[١٠٣] .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة فى صلاتهم بالنساء قبل الزواج ، كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ، وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفى السامى . على أنه قد ظهرت كتابات تصف هذا الحب العاطفى فى عهد أسرة تانج ؛ وفى وسعنا أن نرى شواهد دالة على وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد فى قصة واى شنج . فقد تواعد هو وفتاة أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء قد علا فوق رأسه وأغرقه[١٠٤] . وما من شك فى أن واى شنج كان أعرف بحقائق الأمور مما يبدو فى هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفى هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالمحبوب وتعلقاً به كان بين الرجال بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون فى هذا أشبه الناس باليونان[١٠٥] .

ولم يكن للزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط زوجين أصحاء بعضهما ببعض لكى تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه الرابطة لم يكن يصح فى اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا هم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة فى حق الأسلاف وفى حق الدولة وفى حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون فى أيامهم الأولى يعيّنون موظفاً خاصاً عمله أن يتأكد من أن كل إنسان فى الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين[١٠٦]. وكان الآباء ينظمون خطبة أبنائهم وبناتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماى — رن = وسطاء)، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحُلُم وقبله أحياناً وقبل أن يولدوا فى بعض الأحيان[١٠٧]. وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذى يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة، ولكن الفتاة كان ينتظر منها هى الأخرى أن تأتى معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون فى الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان فى العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل فى عزلة شديدة عن خطيبها حتى تزف إليه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالا — ولقد كان هذا الاحتيال مستطاعاً فى بعض الأحيان —، ولكنه فى كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها فى حفلة الزفاف وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحتسى العريس من الخمر ما يكفى لأن يزيل ما عساه أن ينتابه من حياء يعد فى عرف الصينيين جريمة لا تغتفر[١٠٨]. أما البنت فكانت تدرب على أن تكون حيّية ومطيعة فى وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها فى بيت أبيه أو بالقرب منه ، حيث تكدح كدحاً فى خدمة زوجها وأمه حتى يحين

الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هى نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات فى الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان فى نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم فى هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم فى العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هى نفسها تتبنى ابن إحدى المحاظى . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاظى اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية(١٠٩) .

ومن أجل ذلك نرى القصص والأخبار الصينية تثنى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاى »(١١٠) وكانت الأسر يتنافس بعضها بعضا فى أن ينلن شرف الحظوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصيان ليحرسوا له حريمه وليعنوا ببعض الشئون الأخرى فى بلاطه، وكان هؤلاء الخصيان يخصيهم آباؤهم وهم فى سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم(١١١) .

ولم تكن الزوجات الثانيات فى جنة الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإماء، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء والبنات، تعتمد مكانتهن فى الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاما على عدد من يلدن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذ كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان في وسعها أن تنعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويُسر في النظام الرتيب الذي هيئت له والذي ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرتبطين برباط الزوجية في تلك البلاد كانا يعيشان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لا تقل في ذلك عن عيشة الزواج التي تعقب الحب الروائي في البلاد الغربية . وكان في وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأي سبب كان ، لعقمها أو لثرثرتها[١١٢] ، ولم يكن من حقها هي أن تطلق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبويها وإن كان هذا لا يحدث إلا في القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلا ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعيا وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس في أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذي اشتق منه لفظ « امرأة »[١١٣] ، واللفظ الصيني المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوي » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن في البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد[١١٤] ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شئون الدولة إلا متتبعة لخطى الإمبراطورة « لو » التي حكمت الصين حكما صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » قاسية لا تلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسم ، وكانت تغتبط بتقتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديشي ، وكانت تختار الملوك وتخلعهم عن

عرشهم ، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقأ عيونهم ثم تلقيهن فى المراحيض[١١٥]»
وكان التعليم منتشراً بين نساء الطبقات العليا فى الأيام القديمة وإن كان عدد من
يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين فى أيام المنشو لايكاد يبلغ واحداً فى كل
عشرة آلاف . وكانت كثيرات من النساء يقرضن الشعر ، ولقد أتمت پان چاو
أخت المؤرخ پان كو الموهوبة (حوالى عام ١٠٠ م) تاريخه بعد وفاته ونالت
حظوة كبيرة عند الإمبراطور[١١٧] .

ولعل قيام نظام الأقطاع فى الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية
والاقتصادية فى تلك البلاد ؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية . ذلك أن
الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون فى العادة مع أكبر رجال
الأسرة . ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكا مشتركا فإنها كانت
تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها . فلما أن حل
عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً فى جميع الأمور ،
فكان فى وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً ، وإن لم يفعل هذا إلا إذا
ألجأته إليه الضرورة القصوى ؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول
بينه وبين هذا إلا حكم الرأى العام[١١٨] . وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو
زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلافى أوقات قليلة نادرة ، وإذا مات كان ينتظر
من أرملته ألا تتزوج بعده ، وكان يطلب إليها فى بداية الأمر أن تحرق نفسها
تكريماً له ؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع فى الصين إلى أواخر القرن
التاسع عشر بعد الميلاد[١١٩] . وكان الصينى يجامل زوجته كما يجامل كل إنسان
سواها ، ولكنه كان فى حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة
غير طبقتهم . وكان النساء يعشن فى أقسام خاصة من المنزل ، وقلما كن يختلطن فيه
بالرجال، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من
الطبقات التى يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن.

وكان الرجل لا يفكر فى زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدّها وطاعتها؛ يشهد بذلك ما كتبته السيدة پان هو — پان إحدى بنات الطبقة العليا فى رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية فى التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان فى الجنس البشرى ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله فى حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها »[١٢٠] .

ويغنى فوشوان قائلا :

ألا ما أتعس حظ المرأة !
ليس فى العالم كله شىء أقل قيمة منها .
إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،
كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،
تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،
والرياح والتراب آلاف الأميال ؛
أما البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ،
ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،
وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها ،
تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،
ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها —
على حين غفلة كما تختفى السحب بعد هطول الأمطار ،
وهى تطأطئ رأسها وتجمل وجهها .

وتعض بأسنانها على شفتيها ،
وتنحنى وتركع مراراً يخطئها الحصر[١٥١] .

قد يكون فى هذه المقتبسات ظلم للبيت الصينى ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال ، ولكن كان فى البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر فى الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها فى استخدام لسانها ، وكان فى وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية فى هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوى ليس فى مقدورها أن تكون أسرة دمقراطية ، وهى أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين فى الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعى ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة فى وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة فى أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل فى المدينة ، وقلَّت أهميته بانتقال واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثنى كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذى كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التى تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أى نظام اجتماعى ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصينى العادى كان مثلا يحتذى فى طاعة الأبناء للآباء ، وإخلاصهم ووفائهم لهم ، وفى احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضاً واختيار(*) وكان الصينى يقبل الحكم

(*) توضح الأقاصيص الصينية هذه الصفات توضيحاً فكهاً بما ترويه فى قصة هكوجا الذى كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكى أبداً . لكنه بكى فى يوم من الأيام فى أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكى لأن أمه بعد أن كبرت وضعفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بضرباتها(١٣٢) .

الأخلاقية التي جاءت في اللي — شي أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحي حياته حسب ما فيها من قواعد المجاملة العاطفية التي أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم ينله أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الحمال الذي ينقل الأقذار في الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبي الذي باعه الأفيون . ولقد تعلم الصيني فن التراضي والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوه المغلوب . ولقد كان في بعض الأحيان عنيفاً في قوله ، وكان على الدوام ثرثاراً ، وكثيراً ما تراه قذراً أو ثملا يدمن القمار ويلتهم الطعام التهاماً(*) ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس في غير إلحاف[١٢٤] ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة في صراحتها[١٢٥] ، ويجري وراء الذهب جري الأمريكي كما نراه في صوره الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظا غليظ القلب ، إذا توالت عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل في جماعات كبيرة . ولكنه في جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحتقر المجرمين والمحاربين ، مقتصد مجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط في أسلوب حياته لا يحب التظاهر والتصنع ، شريف إلى حد كبير في معاملاته التجارية والمالية . وكان من عادته الصبر على النوائب ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان والعذاب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، ويصبر عليهما صبر من يرى أن كل شيء مقدر عليه في الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلا على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجهه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق في كثير من المدن وبيد كل منهم طبق ورد وفنجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر العابر[١٢٥] .

مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدائنه بالنقوش الملونة ويتنعم فى حياته بأرق أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى حين ، ما تردت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها فى الداخل ، واحتكاكها بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها فى فترة من فترات عزها ومجدها فى عهد أسرة تَچو أو فى عهد منج هوانج أوهواى دزونج أوكانج — شى . ذلك أن الصينى فى تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرقى المدنيات وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

الفصل السادس

حكومة يثنى عليها ڤلتير (١٢٦)

الفرد المغمور — الحكم الذاتى — القرية والإقليم — تراخى القانون — صرامة العقاب — الإمبراطور — الرقيب — المجالس الإدارية — الإعداد للمناصب العامة — الترشيح بالتعليم — نظام الامتحانات — عيوبه — وفضائله

إن أكثر ما يروعنا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الدمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكماً ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن النزعة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولا عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعة أعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعة أعماله ؛ وكان فضلا عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الحواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلا عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرد من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه النظم

الشعبية التى نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختيارى هى التى أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية فى داخل هذا الإطار من نظم الحكمِ الذاتى التى أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التى تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشامخة والصحارى الواسعة والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة أو لاتقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفى لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربعمائة مليون من الأنفس — كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالا ذاتيا يكاد يكون كاملا من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هى القرية ، يحكمها حكما متراخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكمهما معاً مدينة « فو » ومن كل فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « شنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد المنشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم .

وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونه ، ويجبى ضرائبه ، ويفصل فى قضاياه ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكما ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم [١٢٧] .

ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل فى المنازعات التى يعجز المحكمون عن تسويتها بالحسنى ، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية . وكان كل إقليم وولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية فى أعمالها ، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام فى داخل حدودها . وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية . ومما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف فى دوائرهم وأقاليمهم ، ولا تتسع إلا فى القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام .

وفى هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً ، بغيضاً ، متبايناً . وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسووا نزاعهم بالتراضى خارج دور القضاء . وكانوا يعبرون عن آرائهم فى التقاضى بمثل هذه الحِكم والأمثال القصيرة القوية : « قاض برغوثاً يعضك » و « اكسب قضيتك تخسر مالك » . وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التى تبلغ عدة أهلها آلافاً مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى المحاكم[١٢٨] . وكانت قوانين البلاد قد جمعت فى عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصرت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جدية لوضع قانون مدنى . وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامى لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة ، وإن كان فى استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا فى بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضى[١٢٩] . ولم يكن هناك نظام للمحلفين ، ولم يكن فى نصوص القوانين ما يحمى الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويعتقلوه . وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين[١٣٠] ، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكى يقروا بجرائمهم ، ولم يكن هذا التعذيب الجسمى ليزيد إلا قليلا على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه فى أكثر المدن رقياً . وكان العقاب صارماً ، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان فى معظم

بلاد القارة الأسيوية ؛ وكان أوله قص الشعر ويليه الضرب ثم النفى من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان المتهم ذا فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر[١٣١] . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر فى الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم فى هذا كشأننا نحن فى هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنع السطو فى الطرق العامة أو الارتشاء فى وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع فى معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهب الصين درجة من النظام الاجتماعى والأمن والاطمئنان الشخصى لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين[١٣٢] .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى(*) فى هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلٰهى هذا كانت له السيطرة على الفصول ، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوى المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هى القانون وأحكامه هى القضاء الذى لا مرد له . وكان المدبر لشئون الدولة ورئيس دياناتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحده من الوجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التى انحدرت من الماضى المقدس . وكان معرضاً فى أى وقت لأن يعزّر على يد رجل ذى مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان فى واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(*) ومن أجل هذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان — شان أى التى « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوربيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسموا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين فى أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث مراراً فى تاريخ الصين أن عزر الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور چياه تشنج (١٧٩٦ — ١٧٢١) بالاحترام اللائق بمقامه العظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال فى صلاته بالممثلين وبتعاطى المسكرات فما كان من چياه تشنج إلا أن استدعى سونج للمثول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطيع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليُقطع رأسى » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختار أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعينه حاكما على إقليم إيلى (١٣٤) .

وأضحت الحكومة المركزية على مر الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم فى العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة فى كل يوم فى ساعات الصباح المبكرة لينظر فى شئون الدولة السياسية . وكان يعلو عليه فى المنزلة ، ولكن يقل عنه فى السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلى » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والعقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسنكيانج ، والتبت ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن فى العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشئ فى

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعوث التى تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها ، واحتكرت بيع الملح ، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية ، ولكن فقر السكان ، وما كانت تعانيه من الصعاب فى جباية الضرائب والمكوس ، وما يتصف به الجباة من الخيانة ، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بحاجات القوى البحرية والبرية التى كان فى وسعها لولا هذا العجز أن تنقذ البلاد من مذلة الغزو والهزيمة(*) . ولعل أهم أسباب هزائمها هو فساد موظفى حكومتها ؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف فى خلال القرن التاسع عشر ، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة فى الوقت الذى كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان لسلب استقلالها ، وانتهاب مواردها ، والقضاء على أنظمتها .

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها فى دقتها ، وتعد فى جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين . لقد كانت وسيلة جديرة بإعجاب أفلاطون ، ولا تزال رغم عجزها وتخلى الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة . وكانت

(*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية فى أواخر القرن الماضى نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية فى العام ، ويضاف إليها من الإيرادات التى تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى(١٣٦) ، وإذا وازنا بين هذه الإيرادات التى لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين ال ١٥٠ مليوناً من الدولارات التى فرضتها اليابان على الصين غرامة حربية فى عام ١٨٩٤ والغرامة التى فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكمين لم تكن مسألة انهيار الصين فى نظرنا أكثر من مسألة حسابية .

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والدمقراطية : فهى تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها. ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة فى مدارس القرى — وهى معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلا على حجرة واحدة فى كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سراة القرية تعليما أوليا ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناؤه أميين[١٣٧] . ولم تكن الدولة هى التى تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقى فى الصين ، كما بقى الزواج فيها ، مستقلا عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارما فى هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم فى مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة العدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر فى فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذى كان يصرف فى العمل فى الحقول كان يعوض بفصول مسائية فى ليالى الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشيوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصا من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فلسفة المعلم كونج ، ويناقشون فيها مدرسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته فى ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها فى قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،

وكان الصبى يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلا بالحقائق ناضج العقل(*).

وكان هذا التعليم هو الأساس الذى أقامت عليه الصين - فى عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفى عهد أسرة تانج بصفة نهائية — نظام تولى المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين فى هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولى المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذى عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هى أن نتيح لكل الرجال دمقراطيا فرصاً متكافئة لأن يدربوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرستقراطيا على من يثبتون بأنهم أليق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد فى أوقات معينة امتحانات عامة فى كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا فى سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن فى قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفى مقدار ما يعرف من الشعر الصينى ومن تاريخ الصين ، وفى قدرته على أن يكتب أبحاثاً فى السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان فى وسع من يخفق فى الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاى التى تؤهله لأن يكون عضواً فى طبقة الأدباء ولأن يعيّن فى

(*) وكان فى وسع الأطفال بعد أن يتموا الدراسة فى هذه المدارس أن يلتحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد الفقيرة فى أدواتها واستعدادها . ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس فى منازلهم فى عدد قليل من الكتب الثمينة وكان الموسرون فى بعض الأحيان يعينون الفقراء من الطلاب على مواصلة الدرس فى هذه الكليات على أن يكون ما يتفق عليهم فرضاً يؤدونه مع فوائده حين يعينون فى منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصغرى فى الحكومة الإقليمية ؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد فى الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه فى بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصغرى ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائى الشديد الذى يعقد فى بيكين . وكان فى تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوى على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المتسابقون ثلاثة أيام متفرقة فى عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل فى موضوعات تعلن لهم بعد دخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — فى رأيهم — هى التى يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة فى هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة فى : « صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزانج دزى : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلئ ثم يبد أنه فارغ » . ولم يكن فى أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمى إلى معرفة ما له من حكم صادق وخُلُق قويم وكان كبار موظفى الدولة يُختارون من الناجحين فى هذا الامتحان النهائى .

وتبين على مر الزمن ما تنطوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش فى الامتحان أو فى

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر[١٣٨] ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره[١٣٩] . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يعد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آليا . كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعينت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد يأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أو مقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوي على كل العيوب التي يمكن أن ينطوي عليها أي نظام حكومي يبتدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هي عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما في هذا النظام(*) .

أما مزاياه فهي كثيرة : فهو بريء من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعي الدنيئة وللنفاق والخداع في تصوير النتائج ، ولا تدور فيه المعارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبة والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسنم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة دمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرستقراطية في أحسن صورها ، لأنها

(*) يقول الدكتور لاتورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بني الإنسان عاشت في رخاء وعاشت قانعة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداتهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا الرأي أيضاً رأي العالم الكبتن برنكلي[١٤٠]

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً دمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضـــل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تقتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لا سادة المال (*) .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقضّ قوى التطور والتاريخ القاسية التى لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التى كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميرا .

(*) يقول السير ربرت هارت . « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويبتهجون بالآداب » ويقيمون فى كل نوادى صغيرة للتعلم والدرس ولمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »

الباب السابع والعشرون

الثورة والتجديد

الفصل الأول

الخطر الأبيض

النزاع بين آسية وأوربا — البرتغاليون — الأسبان — الهولنديون — الإنجليز — تجارة الأفيون — حروب الأفيون — فتنة تاي بنج — منج — حرب اليابان — محاولة تمزيق الصين — « الباب المفتوح » — الإمبراطورة الوالدة — إصلاحات كوانج شو — عزله — الملاكون — الغرامة الحربية

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعى . فقد نشطت أوربا وتجدد شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها فى صنع الآلات ومضاعفة الإنتاج . وما لبثت أوربا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من التى تنتجها أية أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت أوربا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدى لعمالها أجوراً أقل بعض الشىء من القيمة الكاملة لجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ، فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التى تعاقبت فى خلاله ، لا ينقطع فيه النزاع بين ما كان فى آسية من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام فى أوربا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث فى أيام كولمب هو الذى أفسح الطريق ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون فى أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكانوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجميلة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترقون إلا قليلا عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق[1] . . ، وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثليهم فى السجون ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهّر الصينيون الغضاب الحانقون الأحياء التى استقر فيها البرتغاليون بذبح ساكنيها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحتهم بيكين حق الإقامة فى مكاو وحكمها كأنها ملك لهم ، فشادوا فى تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا فى هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفى لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التى أنشئت فى هذا الإقليم بربح مقداره ١٫٥٦٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[2] .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين فى عام ١٥٧١ واستقروا فى جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفى عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت فى النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التى قاومتها ، وأنزلت فى المدينة بضائعها[3] . وعلم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ فى مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وحرمته

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار فى الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين فى عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق(*) . وحرمت الحكومة استيراده فى تلك السنة وكررت هذا التحريم فى عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهلين على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوى من أثر فى إضعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين فى شرائه أقل من رغبة الأوربيين فى بيعه ، ولم يجد الموظفون حرجاً فى تناول الرشاوى التى كانت تقدم إليهم ليتغاضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين فى عام ١٨٣٨ أمراً بالتشديد فى تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوى يدعى لن تزه — شو فأمر من فى كانتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما فى مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام فى كانتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغطرسة فى استقبالها ممثليهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات فى صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامتها القوانين والعادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التى كان فى وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغموا الصين على طلب الصلح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكنج شيئاً عن الأفيون ، وتخلت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديرية الرجل يبلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « ثغور معاهدات » (كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وننجبو ، وشنغهاى) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون فى الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية[٥] . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين فى الصين وأجيبت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان فى نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولا ، ثم تحدتهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تقد الألفاظ الظريفة المسولة فى إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعلمين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة فى كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التى كانت من قبل صامتة خاضعة — والتى كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة پيكين . من ذلك أن وطنيا متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد فى عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليطهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمى إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هى أسرة التاى ينج أى السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الدينى من جهة والرغبة فى إصلاح الصين على غرار الدول الأوربية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة فى چنج ده — چن ، واستولوا على نانكنج وظلت فى

أيديهم اثنتى عشرة سنة (١٨٥٣ — ٦٥) ، وزحفوا على پيكين وزعيمهم من خلفهم فى مأمن من الأعداء منغمس فى ترفه وملذاته ؛ ولكنهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم ، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئات الملايين الصينيين[٦] .

وبينما كانت فتنة تاى — پنج الصماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحكومة إلى مواجهة أوربا مرة أخرى فى « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ — ١٨٦٠) . وكان سببها أن بريطانيا العظمى ، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، طالبت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة (وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين رغم ما صدر من الأوامر بتحريمها) ، وأن تسمح لها بالدخول فى مدن جديدة غير التى كانت قد سمح لها بدخولها ، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم فى بلاط پيكين . فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون ، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند ، واقتحموا حصون تيننسين وزحفوا على العاصمة ، ودمروا القصر الصيفى انتقاماً لما نال مبعوثى الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين فى پيكين . وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتح نهر چنج — دزه للتجارة الأجنبية ، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوربيين فى الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين ، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسماح لهم بممارسة نشاطهم فى جميع أجزاء الصين ، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص المحاكم والموظفين . وزادت فى امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحررهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لهنج كنج ؛ وجعلت استيراد الأفيون عملا مشروعاً ، وفرضت على الصين غرامة حربية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم .

وشجعت الأمم الأوربية انتصاراتُها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت الروسيا على الأراضى التى تقع فى شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسورى (١٨٦٠) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية (١٨٨٥) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً فجائية (١٨٩٤) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هى فيما بعد (١٩١٠) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب جمة[٧] . ومنعت الروسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدى الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت الروسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً فى استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتنج (١٨٩٨) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التى كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوربية أو تلك بامتيازات فى التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيما حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين فى مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أى بحق الدول جميعاً فى الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بما للدول فى الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها فى مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلبين (١٨٩٨) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشترك فى النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين .

وفى هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطورى فى پيكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين فى

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فنج إلى جيهول حيث توفى بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنين ، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى — وعرفها العالم باسم الإمبراطورة الوالدة — وحكمت الصين حكما طيبا صارما مجرداً من الرحمة دام جيلا كاملا . وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً — جوانج تشو — واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال لى هونج — چانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب . فلما أن انقضت اليابان على الصين فجاءة ، وأسرعت الدول الأوربية إلى تقطيع أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانيين عليها ، قامت فى عاصمة الصين حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية — أى أن تجيش جيشاً قوياً ، وأن تنشئ المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظافرة . وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج شو انضم إليها سراً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى (فى عام ١٨٩٨) من غير أن يستشير « بوذا العجوز » (وهو الاسم الذى كانت حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها) عدة مراسيم عجيبة لو أن البلاد قبلتها وعملت بها لسارت سيراً حثيثاً سلميا فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، ولحال أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم ، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء ، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية فى العلوم والآداب والفنون الصناعية ؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية ، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة « الأزمة » المقبلة على حد قوله هو « لأننا محوطون من كل ناحية بجيران أقوياء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا ، ويحاولون بتألبهم علينا أن يغلبونا على أمرنا »[٨]. وهال الإمبراطورة الوالدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التى رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغبته ، فسجنت چوانج شو فى أحد القصور الإمبراطورية ، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم فى الصين .

وبدأ فى ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتهما الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها . وكان بعض العصاة قد أقاموا فى البلاد جماعة تعرف باسم أى هو — چوان ؛ أى قبضات التوافق الصالحة . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « الملاكمين » (البكسر) . وكانت هذه الجماعة تهدف فى الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة . ولكن الإمبراطورة أفلحت فى إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوها لمقاومتها هى . وقبل الملاكمون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفريق بين الطيب منهم والخبيث فى كثير من أنحاء الصين (١٩٠٠) . فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على پيكين ، وكان زحفها فى هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاختبئوا فى أركان دور السفارات الأجنبية . وفرّت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانفو ، وانقضّت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب ،

وقتلت كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيّمة أو نهبتها[*] . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعته فيما بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشترط عليها عادة أن تنفق الأموال التي نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين في جامعات الدول التي كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملا كريماً كان له من الأثر في تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأي عمل آخر بمفرده في الصراع التاريخي المرير بين الشرق والغرب .

(*) ويقول الكپتن درنكلى فى ذلك . « مما يقشعر منه بدن كل شخص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المبشرات وخمسة وعشرين من الأطفال ذبحهم الملاكون ، ولكن خمسمائة وستاً وثلاثين من نساء الطبقات العليا فى الصين قد انتحروا فى تونجشاو وحدها مفضلين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذلة ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة فى هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .

الفصل الثانى

حضارة تموت

طلبة الغرامة الحربية – تشربهم بالحضارة الغربية – أثرهم فى تفكك الوحدة الصينية – عمل المبشرين – صون يات – صن المسيحى – مغامراته فى شبابه – التقاؤه بلى هونج – چانج – تدبيره للثورة – نجاحهما – يوآن شىء – كاى – موت صون يات – صن – الفوضى والنهب – الشيوعية – « الشمال يهدأ » – جيانج كاى – شك – اليابان فى منشوريا – شنغهاى

وغادر « طلبة الغرامة » وآلاف غيرهم من الطلبة بلاد الصين ليرتادوا حضارة الغزاة الفاتحين . فذهب كثيرون منهم إلى إنجلترا ، وذهب أكثر من هؤلاء إلى ألمانيا ، وأكثر من هؤلاء وأولئك إلى أمريكا ، وأكثر منهم جميعاً إلى اليابان . وتخرج فى جامعات أمريكا وحدها مئات منهم فى كل عام ، وكانوا يأتون إلى هذه الجامعات وهم صغار السن سريعو التأثر قبل أن تنضج عقولهم ، فيدركوا ما تنطوى عليه حضارتهم القومية من عمق وما لها من قيمة ، وارتووا وهم شاكرون معجبون من معين التربية الجديدة التى قدمت لهم ، ومن علوم الغرب وأساليبه وأفكاره ، وأدهشهم ما شاهدوه حولهم من وسائل الراحة والحياة النشيطة القوية ، ومن حرية الأفراد فى بلاد الغرب ، وما تستمتع به الشعوب من حقوق . ودرسوا الفلسفة الغربية وفقدوا إيمانهم بدين آبائهم ، وسرهم أن يكونوا مصلحين متطرفين يشجعهم فى ذلك من لقنوهم علومهم وحضارتهم ، كما تشجعهم بيئتهم الجديدة على نبذ جميع العناصر التى تتكون منها حضارة بلادهم . ورجع إلى الصين فى كل عام آلاف من هؤلاء الشبان الذين انتزعوا من بيئتهم فى حداثة سنهم وهم حانقون على تأخر بلادهم المادى وخطوها البطىء فى سبيل الحضارة الغربية وبذروا فى كل مدينة دخلوها بذور البحث والثورة على القديم .

وأعانتهم على غرضهم سلسلة من الحوادث والظروف ، منها أن التجار والمبشرين الذين غزوا الصين من الغرب قد ظلوا قرابة جيلين مراكز للعدوى الغربية أرادوا هم ذلك أو لم يريدوه ، فقد كان طراز معيشتهم وأساليب متعتهم وراحتهم مما بعث فى نفوس من حولهم من شباب الصين رغبة قوية فى أن ينالوا حظا من هذه الحضارة الراقية . وكان هؤلاء التجار والمبشرون رغم قلتهم قد قوضوا بنشاطهم العقيدة الدينية التى كانت دعامة القانون الأخلاقى القديم ؛ وأثاروا شبان البلاد على شيوخها بدعوتهم إلى نبذ عبادة الآباء ؛ ومع أنهم كانوا يدعون إلى دين عيسى المسالم الوديع فقد كانوا إذا تأزمت الأمور تحميهم مدافع ترهب الشرق بضخامتها وقوتها وتخضعه لسيطرة الأوربيين . لقد كانت المسيحية فى أول نشأتها ثورة المظلومين على الظالمين ، وها هى ذى قد عادت فى يد معتنقيها من شباب الصين عاملا من عوامل الثورة .

وكان زعيم الثورة ممن اعتنقوا المسيحية . ذلك أن أحد المستأجرين من الزراع القاطنين قرب كانتون قد ولد له فى عام ١٨٦٦ ولد مشاغب سماه العالم فيما بعد — فى سخرية غير مقصودة — صون يات — صن ؛ أى الشمس جنية السكينة[١٠] . واعتنق صون المسيحية وقوى إيمانه بها فاندفع يحطم أصنام الآلهة فى معبد قريته . وكان لهذا الغلام أخ له أكبر منه سنا هاجر من قبل إلى جزائر هاواى ، فجاء بأخيه الأصغر إلى هنولولو وأدخله مدرسة يديرها راهب من أتباع الكنيسة الإنجليزية ويسير التعليم فيها بالأساليب الغربية البحتة[١١] . ولما عاد صون إلى الصين التحق بالكلية الحربية البريطانية فكان أول من تخرج فيها من الصينيين .

وكانت هذه الدراسات من أكبر الأسباب التى أفقدت الرجل كل ما كان فى قلبه من العقائد الدينية ، كما كانت الإهانات وضروب الإذلال التى يلقاها هو وأبناء وطنه فى الجمارك التى يسيطر عليها الأوربيون وفى الأحياء الأجنبية من

ثغور المعاهدات مما أوغر صدره وجعله يفكر فى الثورة . وكان عجز الحكومة الفاسدة الرجعية عن أن تقى الصين العظيمة مذلة الهزيمة على يد اليابان الصغيرة ، وتجزئة البلاد بين الدول الأوربية لأغراضها التجارية ، مما أشعره بالمذلة وملأ قلبه حقداً وضغينة على تلك الحكومة ، فاعتقد أن أول خطوة يجب عليه أن يخطوها فى سبيل تحرير الصين هى أن يقضى على أسرة المنشو .

وكانت أولى حركاته شاهداً حقا على ثقته بنفسه ، ومثاليته ، وبساطته . ذلك أنه ركب سفينة تجارية دفع أجرها من ماله الخاص وسار بها مدى ألف وستمائة ميل نحو الشمال ليعرض على لى هونج — چانج نائب الملكة الوالدة مشروعاته التى تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزها وكرامتها . فلما رفض هذا الحاكم مقابلته بدأ حياة كلها مغامرات وتجوال لجمع المال الذى يؤجج به نار الثورة الصينية ، ولقى معونة من كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التى كان قادتها يحسدون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية ، ويتوقون إلى إقامة نظام للحكم يكون فيه للطبقات الحديثة من أرباب المصانع والمتاجر شأن يتناسب وثروتهم المتزايدة : ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوربا يجمع المال القليل من ملايين الغسالين وآلاف التجار الصينيين . فلما جاء إلى لندن اعتقلته المفوضية الصينية دون سند قانونى أوشكت أن ترسله سراً إلى الصين مكبلا بالأغلال بحجة أنه خائن لحكومته ، ولم ينجه إلا مبشر ممن علموه فى صباه ، فنبه الحكومة البريطانية وتدخلت هذه فى الأمر وأنقذته . وظل خمسة عشر عاماً أخرى يتنقل من مدينة إلى مدينة فى جميع أنحاء العالم ، وجمع فى تجواله مليونين ونصف مليون من الدولارات ليموّل بها الثورة ، ويلوح أنه لم ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة فى أثناء تجواله رسالة تنبئه أن قوّات الثورة استولت على الجزء الجنوبى من بلاد الصين ، وأنها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وأنها اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية . وبعد بضعة أسابيع من

ذلك الوقت رست السفينة التى أقلته فى هنج كنج التى لقى فى ثغرها المذلة منذ عشرين عاماً على يد الموظفين البريطانيين .

وكانت الإمبراطورة الوالدة قد قضت نحبها فى عام ١٩٠٨ بعد أن دبرت موت الإمبراطور السجين جوانج شو قبل موتها بيوم واحد ، وخلفها على العرش بويسى ابن أخى جوانج ، وهو الآن إمبراطور منشوكو(*) . وأدخلت الحكومة الصينية فى أواخر حكم الإمبراطورة الوالدة وأوائل حكم خليفتها الطفل كثيراً من ضروب الإصلاح التى تهدف إلى تجديد البلاد وصبغها بالصبغة الغربية الحديثة ؛ فمدت الطرق الحديدية مستعينة فى الغالب برءوس الأموال الأجنبية وبخبرة الأجانب وإشرافهم ، وألغى نظام الامتحان للتعيين فى المناصب الحكومية ، وأنشئ نظام جديد للتعليم ، ودعيت جمعية وطنية لتجتمع فى عام ١٩١٠ ، ووضع مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة ملكية دستورية ، وينتهى بتعميم حق الانتخاب بعد أن يتدرج خطوة خطوة مع انتشار التعليم العام فى البلاد . وجاء فى المرسوم الذى أعلن به هذا المنهج ما يأتى : « كل تسرّع فى إدخال هذه الإصلاحات سيؤدى فى النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود »[١٣] . ولكن الثورة لم تكن لتوقف تيارها هذه النوبة التى جهرت بها الأسرة المريضة وهى على فراش الموت ، وألفى الإمبراطور الشاب نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه ، وقد تخلى عنه الجيش فلم يجد من يدافع عنه ، فلم ير بداً من أن يعلن تخليه عن العرش ، وأصدر نائب الإمبراطور الأمير چون مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم فى تاريخ الصين كله :

إن الشعب فى جميع أنحاء الإمبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ...

(*) لقد كتب هذا الفصل قبل الحرب الأوربية الأخيرة ، وكانت اليابان قد غزت الصين ، واجتاحت جيوشها منشوريا ، وأقامت فيها دولة تأتمر بأمرها هى دولة منشوكو ، وأجلست هذا الإمبراطور على عرشها . ولكن الحرب الأخيرة بدلت هذا كله (المترجم)

إن إرادة الله واضحة ورغبات الشعب غير خافية . فكيف أستطيع أن أعارض رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها ؟ ومن أجل ذلك فإنى أنا والإمبراطور نرى أن تكون الحكومة فى الصين جمهورية دستورية إجابة لرغبات الشعب فى داخل الإمبراطورية كلها ، وعملا بآراء الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون أن العرش تراث عام(١٤) .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم فى معاملتها ليو — بى ؛ فقد أمنته على حياته ومنحته قصراً مريحاً ومرتباً سنويا يقوم بشئونه ، وخليلة يسكن إليها . لقد جاء المنشو إلى الصين آسادا وخرجوا منها حملانا .

وكان مولد الثورة هادئاً سلميا ، ولكن حياتها كانت حياة عاصفة مليئة بالأحداث . فقد كان ليوان شى — كاى وهو سياسى من الطراز القديم جيش قادر على مقاومة الثورة . وطلب أن يكون ثمن تأييده إياها أن يتولى رياسة الجمهورية ، وأجابه صون يات — صن إلى ما طلب واعتزل الحياة العامة فى كرم وعزة نفس ، وكان قد بدأ منذ قليل يستمتع بمنصبه الجديد . وأخذ يوان يعد العدة لأن يجعل نفسه إمبراطوراً وينشئ أسرة حاكمة جديدة مستعيناً فى عمله هذا بجماعات مالية قوية أجنبية ووطنية ؛ وحجته فى هذا أن الإمبراطورية هى السبيل الوحيدة لمنع تدهور الصين وتفككها . واتهمه صون يات — صن بالخيانة وأهاب بأتباعه أن يجددوا عهد الثورة ، ولكن يوان مرض ومات قبل أن يصل الأمر إلى امتشاق الحسام .

ولم تعرف الصين النظام والوحدة من ذلك الحين . فقد تبين أن صون يات — صن رجل أحلام يسبح فى بيداء الخيال ، وأنه خطيب مفوه ولكنه سياسى عاجز عن تولى زمام الحكم وقيادة الأمة إلى بر السلام ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة ومن نظرية إلى أخرى ، أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى بما أظهره من ميل إلى الشيوعية ، وانتهى أمره بالانزواء فى كانتون ليعلم شبابها ويبث فيهم روحه ،

ويحكم أهلها فى بعض الأحيان(*) . وحرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها ، ومن ملكية كانت رمز وحدتها ، ونبذت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها ؛ وهى من بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التى تربط النفس بالوطن كله لا بالإقليم الذى تعيش فيه ، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الجنوب والشمال تارة ، وبين طائفة وطائفة تارة أخرى ، ثم بين السراة والجياع ، وبين الشيوخ والشبان . وقام المغامرون يجيشون الجيوش ، ويفرضون سلطانهم على الولايات النائية ، يجبون منها الضرائب ويزرعون الأفيون[١٥] ، ويخرجون بجنودهم من حين إلى حين ليضموا ضحايا جدداً إلى رعاياهم المساكين . واضطربت أحوال الصناعة والتجارة واضمحلت لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد . وأخذ اللصوص وقطاع الطريق يفرضون الإتاوات ، وينهبون ويقتلون ، لأنهم لا يجدون قوة منظمة تقف فى وجههم وتضرب على أيديهم . ووجد الناس فى التلصص والجندية وقاية لهم من الهلاك جوعاً ، وكثيراً ما كان هذا القائد أو ذاك المنسر من اللصوص يداهم أسرة مقتصدة فيسلبها ما ادخرته طول حياتها من المال أو ما جمعته من المتاع . وحسبنا تصويراً لهذه الحال أن عدد قطاع الطريق فى ولاية هونان وحدها قد بلغ فى عام ١٩٣١ — ٤٠٠ر٠٠٠[١٦] أو يزيدون .

وبينا كانت هذه الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد أرسلت الروسيا فى عام ١٩٢٢ اثنين من أقدر ساستها هما كرخان وچف ليضما الصين إلى نطاق الثورة الشيوعية . ومهد كرخان لعمله هذا بنزول الروسيا عمالها من امتيازات فى الصين ، وبتوقيع معاهدة تعترف فيها بشرعية حكومة الثورة وبمركزها الدولى . ولم يجد چف الداهية صعوبة ما فى أن يستميل صون يات — صن إلى الشيوعية لأن جميع السلطات الأخرى كانت قد نبذته ، ولم يمض إلا وقت قصير حتى تكون جيش وطنى جديد ودرب بمعونة سبعين من الضابط السوفيت . وزحف هذا

(*) ومات پيكين عام ١٩٢٥ فى أحسن الفرص التى أتيحت لأعدائه المحافظين .

الجيش من كانتون إلى الشمال تحت إمرة چيانج كاى — شك أمين سر صون يات — صن السابق ، ويقوده عمليا المستشار الروسى برودين ، يخضع بلدة فى إثر بلدة حتى استقر أخيراً فى پيكين(*) . ولكن المنتصرين انقسموا على أنفسهم فى ساعة النصر فخرج چيان كاى — شك على الحركة الشيوعية وأقام دكتاتورية عسكرية إجابة لرغبات رجال الأعمال والمال(**) .

إن الأمم كالأفراد من العسير عليها ألا تفيد من مصائب جيرانها . ومصداق ذلك أن اليابان ، التى كان يبغى صون يات — صن أن تكون صديقة الصين وحليفتها على الأمم الغربية ، والتى شجعت الثورة الصينية بنجاحها السريع فى السير على النظم الأوربية فى الصناعة والسياسة والحرب ، نقول إن اليابان وجدت فى الفوضى التى تردت فيها معلمتها القديمة فرصة سانحة لحل المشكلة التى أثارها نجاحها هى وتقدمها السريع . ذلك أن اليابان لم يكن فى وسعها أن تحد من عدد سكانها دون أن تعرض سلامتها للخطر الشديد بعجزها عن صد من تحدثه نفسه بالإغارة عليها ؛ ولم يكن فى وسعها كذلك أن تمون سكانها المتزايدين إلا إذا زادت مواردها بتشجيع الصناعة والتجارة ؛ وليس فى وسعها أن تشجع الصناعة والتجارة من غير أن تستورد الحديد والفحم وغيرهما من المواد الأولية التى لا تجدها فى بلادها ، وليس فى وسعها كذلك أن تنمى تجارتها وأن تفيد منها أكبر فائدة دون أن يكون لها نصيب موفور فى السوق العظيمة الوحيدة التى لا تزال خارجة عن نطاق الاستعمار الأوربى الذى شمل الكرة الأرضية كلها . وكانت الصين

(*) وتغير اسم تلك المدينة من ذلك الوقت فسميت پيپنج أى الشمال المهدأ بدل پيكنج (العاصمة الشمالية) ، واتخذت الحكومة الوطنية مقرها فى نانكنج « العاصمة الجنوبية » لتكون قريبة من مواردها المالية فى شنغهاى .

(**) أما الحوادث التى تلت هذا فلا تزال ماثلة فى الأذهان ، فقد اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وهزمت اليابان ، وزحف الشيوعيون بجيوشهم على الجنوب تعاونهم روسيا السوفيتية وانتصروا على چيان كاى — شك ، وهزموا جيوش الحكومة الوطنية ، وأصبحت الصين كلها تقريبا دولة شيوعية . (المترجم)

مشهورة بكثرة ما فيها من الحديد والفحم ، ويرجى منها أن تكون فى المستقبل أعظم الأسواق العالمية . وهى إلى ذلك أقرب الأسواق إلى اليابان . وهل فى العالم أمة يبدو لها أن فى مقدورها أن تختار بين العودة إلى الزراعة والفاقة والمذلة ، وبين التقدم فى الصناعة والفتح والاستعمار ، ثم تستطيع أن تقاوم الميل الشديد إلى اختطاف جزء من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال فى الوقت الذى كانت فيه النسور الأوربية يقطع بعضها أشلاء بعض فى ميدان فرنسا(*) ؟

من أجل هذا أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وانقضت على إقليم چياو چو وهو الإقليم الذى كانت ألمانيا قد استأجرته من الصين قبل ذلك الوقت بستة عشر عاما ، ثم قدمت إلى حكومة يوان شى كاى « واحداً وعشرين مطلبا » لو أجابتها الصين لأصبحت مستعمرة سياسية واقتصادية لليابان ، ولولا احتجاج الولايات المتحدة ومقاطعة الصينيين بزعامة طلابها الغضاب للبضائع اليابانية لنفذت هذه المطالب قوة واقتداراً . ذلك أن الطلاب انطلقوا فى شوارع المدن الصينية يبكون أو يقتلون أنفسهم لأنهم يستحون أن يرى الناس وجوههم بعد هذا الإذلال الذى حاق ببلادهم[١٧] .

وكان اليابانيون يستمعون وهم ساخرون إلى غضب أوربا واحتجاجها وهى التى ظلت تنخر فى عظام الصين خمسين سنة أو تزيد . وارتدت اليابان دون أن تصل إلى أهدافها ولكنها ظلت تتحين فرصة أخرى تحقق فيها أطماعها . ولاحت لها هذه الفرصة حين كانت أوربا وأمريكا تتردّيان فى عواقب خططهما الصناعية الاستعمارية التى كانت تعتمد على الأسواق الأجنبية لاستيعاب « الفائض » من محصولاتها التى لا يستطيع منتجوها أن يبتاعوها . وزحفت اليابان على منشوريا وأقامت پو يى إمبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو التى أنشأتها فى ربوعها ثم نصبته بعدئذ إمبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً

(*) يشير المؤلف بهذا القول إلى الحرب العالمية الأولى (المترجم)

سياسيا ، ثم تغلغلت فيها اقتصاديا ، وسيطرت عليها عسكريا ، وجعلت لنفسها بهذه الوسائل فيها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية ، واستخدام أهلها ، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية . وانضمت الدول الأوربية التى كانت قد اتفقت فيما بينهما على وقف غارات التلصص زمنا ما بعد أن جمعت كل ما تستطيع أن تجمعه من الأسلاب ، انضمت هذه الدول إلى أمريكا ، ووجهت احتجاجا ضعيفا إلى اليابان على هذا النهب الصريح ؛ ولكنها كانت فى هذه المرة كما هى عادتها فى جميع الأحوال على استعداد لأن تعد النصر مبرراً للغاية .

كانت آخر مذلة لحقت بأوربا وأمريكا هى ما أقدمت عليه اليابان فى شنغهاى . ذلك أن اليابان ثار ثائرها لما أصاب تجارتها من جراء المقاطعة الصينية ، فأنزلت جيوشها المنتصرة فى أغنى ثغور الصين ، واحتلت حى چاپاى ودمرته ، وأنذرت الحكومة الصينية بأن توقف أعمال جمعيات المقاطعة . ودافع الصينيون عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وقاوم جيش الطريق التاسع عشر القادم من كانتون قوى اليابان التى كانت تفوقه عدة ونظاما ، ووقف وحده تقريبا فى وجهها شهرين كاملين . ثم عرضت حكومة نانكنج على اليابان أن تتراضى وإياها على حل وسط ، وانسحبت اليابان من شنغهاى ، وعادت الصين تضمد جراحها ، فاعتزمت أن تضع لنفسها أساس حضارة جديدة أقوى من حضارتها السابقة وأمتن منها دعامة تستطيع أن تدفع بها العالم النهم وترد مطامعه .

الفصل الثالث

بداية عهد جديد

التغيير فى القرية — وفى المدينة — المصانع — التجارة — اتحادات العمال — الأجور — الحكومة الجديدة — القومية واتباع الأساليب الغربية — إنزال كنفوشيوس عن عرشه — مناهضة الدين — المبادئ الخلقية الجديدة — التحول فى نظام الزواج — تحديد النسل — التعليم المشترك بين الذكور والإناث — « التيار الجديد » فى الأدب والفلسفة — لغة الأدب الجديدة — هوشى — عناصر التدمير — عناصر التجديد

كان كل شىء فى الماضى يتغير ما عدا الشرق ، أما الآن فليس شىء فى الشرق لا يتغير ، وأصحت أشد الأمم استمساكا بالقديم أكثرها تطرفا بعد الروسيا ، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل . فليس الأمر الآن مقصوراً على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث فى عام ١٦٤٤ بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة .

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله فى القرية ، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد ، والجيل الجديد نفسه لا بد له أن يزرع أولا ثم يحصد ما زرعه فيما بعد . وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصينى ، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع ، رغم ما أصابها من الدمار فى خلال الفوضى وسوء الإدارة اللذين داما عشرات السنين ، ورغم ما تحملته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة . فى هذه القرى يرى السائح كثيراً من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين ، ومصابيح الكيروسين ، وعيدان الثقاب ، ولفافات التبغ ؛ بل يرى فيها القمح الأمريكى نفسه . ولعل القارئ يظن أن وجود هذه البضائع والسلع فى داخل البلاد أمر عادى غير جدير بالذكر ؛ والحق أن

نقلها إليها من أصعب الأمور لأن البلاد لا تزال جد فقيرة فى وسائل النقل ، حتى أن نقل البضائع بين الأقاليم الداخلية والمقاطعات الساحلية يتطلب من النفقات أكثر مما يتطلبه نقلها إلى ثغور الصين من أستراليا أو الولايات المتحدة . ولقد تبين لأهل البلاد أن نمو الحضارة من الناحية الاقتصادية موقوف على سهولة سبل النقل ووسائل الاتصال . من أجل ذلك أنشئت طرق برية يبلغ طولها نحو عشرين ألف ميل تسير عليها ستة آلاف مركبة حافلة سيراً غير منتظم مملوءة على الدوام بالركاب . فإذا ما ارتبطت هذه القرى التى يخطئها الحصر بالسيارات السريعة فإن ذلك يحدث فى الصين أعظم تغيير شهدته فى تاريخها الطويل وهو القضاء حتى على القحط الذى طالما هددها وأفنى الكثيرين من أهلها .

هذا فى القرى أما فى الحواضر فإن انتصار الأساليب الغربية يسير بخطى أسرع وأيسر ، فالحرف اليدوية أخذت فى الزوال بتأثير منافسة السلع الرخيصة السهلة النقل المستوردة من خارج البلاد . وقد تعطل لهذا السبب آلاف من الصناع ، ولكن المصانع الآلية التى أنشئت على طول السواحل بمعونة رءوس الأموال الأجنبية والوطنية تبتلعهم ابتلاعا سريعا . وقد سكت صوت الأنوال اليدوية فى المدن وإن كانت لا تزال تدور فى الريف ، وغمر القطن والمنسوجات القطنية أسواق البلاد ، وشيدت مصانع النسيج لتجعل من فقراء الصين عبيداً مسخرين للآلات ، وأقيمت فى هانجتشاو أفران لصهر المعادن لا تقل ضخامة وروعة عن مثيلاتها فى البلاد الغربية ، ووضعت مشروعات هائلة لإنشاء مخابز ومصانع لحفظ الطعام ولصنع الأسمنت والورق والصابون والشمع وتكرير السكر ، وهى تعمل رويداً رويداً على تحويل العامل الصينى اليدوى إلى صانع ومشرف على الآلات . لكن الصناعات الجديدة يعوق نموها السريع تردد أصحاب رءوس الأموال فى أن يستثمروها فى بلاد لا تنقطع فيها الثورات ، ويلاقون فيها صعابا جمة من جراء نقص وسائل النقل وكثرة نفقاتها وقلة المواد فى داخل

البلاد ، ومن جراء تمسك الصينيين بتلك العادة الجميلة عادة الولاء للأسرة قبل الولاء لكل ما عداها من الجماعات ، والتي تجعل كل مكتب من مكاتب الموظفين وكل مصنع معششاً للأقارب والعاجزين عن أداء عمل من الأعمال [١٩] . والتجارة يعوقها فضلا عن هذا ما يفرض عليها من الضرائب في داخل البلاد ومن الرسوم الجمركية والرشا وضروب الاغتصاب ، وإن كانت مع ذلك تنمو أسرع من نمو الصناعة وتضطلع بدور خطير في تحوّل الصين الاقتصادي [*] .

وقد قضت الصناعات الجديدة على نقابات أرباب الحرف القديمة وأحدثت كثيراً من الاضطراب والفوضى بين العمال وأرباب الأعمال . ذلك أن هذه النقابات كانت تعيش بفضل ما تبذله من الجهود لتحديد أجور العمال وأثمان البضائع بالتوفيق بين الملاك والمنتجين الذين لم يكن لمنتجاتهم ما ينافسها في التجارة المحلية . فلما أن اتسع نطاق التجارة بزيادة وسائل النقل ، وجاءت البضائع من البلاد البعيدة تنافس في جميع المدن بضائع النقابات المصنوعة باليد ، تبين لها أن ليس في استطاعتها أن تشرف على الأسعار أو تحدد الأجور من غير أن تخضع في ذلك إلى أوامر المتنافسين الأجانب وإلى رءوس الأموال الأجنبية . ومن أجل هذا تفككت النقابات وتقسمت إلى غرف تجارية من جهة وإلى اتحادات للعمال من جهة أخرى . فالغرف تعنى بالنظام والولاء لأصحاب الأعمال وبالحرية الاقتصادية ، والعمال يعنون بأجورهم المنخفضة التي تكاد تميتهم جوعا . وقد كثر الإضراب والمقاطعة ولكن هذين قد أفلحا في إرغام أرباب الأعمال من الأجانب على التسليم للحكومة الصينية ببعض الامتيازات أكثر مما أفلحا في رفع

(*) كانت بريطانيا العظمى في وقت من الأوقات هي المسيطرة على تجارة الواردات ، أما الآن فإن لها فيها نحو ١٤ ٪ وللولايات المتحدة ١٧ ٪ ولليابان ٢٧ ٪ ، ولا يزال مركز اليابان في هذه التجارة يقوى عاماً بعد عام . وقد تضاعفت تجارة الصين فيما بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ فبلغت ٦٠٠ ٪ وتقدر قيمتها بما يقرب من نصف بليون من الدولارات . غير أن الحرب العالمية الأخيرة وهزيمة اليابان قد بدلتا من مركزها في هذه التجارة .

أجور العمال . وقد قدرت مصلحة الشئون الاجتماعية التابعة لبلدية شنغهاى الصينية متوسط الأجر الأسبوعى لعمال مصانع النسيج بين ٧٣ر١ ، ٧٦ر٢ دولار للرجل ، وما بين ١٠ر١ ، ٧٨ر٢ دولار للمرأة . وكان متوسط الأجور الأسبوعية للرجال فى المطاحن والمصانع ٩٦ر١ دولار وفى مصانع الأسمنت ٧٢ر١ دولار ، وفى مصانع الزجاج ٨٤ر١ ، وفى مصانع الكبريت ١١ر٢ ؛ وكان متوسط أجر العمال المهرة فى المصانع الكهربائية ١٠ر٣ وفى مصانع الآلات ٢٤ر٣ و بين عمال المطابع ٥٥ر٤[٢٣] .

وما من شك فى أن الزيادة الكبيرة فى أجور عمال المطابع إنما ترجع إلى حسن تنظيمهم وإلى الصعوبة التى يعانيها أصحاب المطابع فى استبدال غيرهم بهم إذا توقفوا عن العمل فجأة . وتألفت أولى اتحادات العمال فى عام ١٩١٩ وزاد عددها وقوتها حتى طالبت فى أيام برودين أن تتولى هى حكم الصين ؛ ولكن چيانج كاى — شك كبح جماحها من غير رحمة بعد نزاعه مع الروسيا ، وقد سنت لمقاومتها فى هذه الأيام قوانين غاية فى الصرامة ، ولكن عددها مع ذلك أخذ فى الازدياد بسرعة لأنها الملجأ الوحيد للعمال من عنت النظام الصناعى الذى لم يعمل حتى الآن أكثر من أن يبدأ بوضع التشريع الخاص بالعمال ، ولم يبدأ قط فى تنفيذه[٢٤] . وإن ما يعانيه صعاليك المدن فى هذه الأيام من فقر مدقع وكدح يدوم اثنتى عشرة ساعة فى اليوم بأجور لا تكاد تمسك الروح بالجسم ، يهددهم الموت جوعاً إذا لم يجدوا عملا فى يوم من الأيام ، إن ما يعانيه هؤلاء الصعاليك فى هذه الأيام لأسوأ مما كان يعانيه فقراء القرى فى الأيام الخالية حيث لم يكن يسمح للفقراء أن يروا الأغنياء ، وحيث كانوا يرضون بما قسم لهم منذ الأزل .

ولعله كان من المستطاع تجنب هذه الشرور لو أن تبدل الأحوال فى شرق الصين لم يتم بغير ما تم به من السرعة ولم يبلغ ما بلغه من الكمال . إذن لكان فى مقدور كبار الموظفين الصينيين ، وإن فقدوا ما كان لهم من حيوية وتلوثت أيديهم بالرشوة ، أن يكبحوا جماح القوى الصناعية الجديدة حتى تتأهب الصين

لقبولها من غير أن تقع فى براثن الفوضى والعبودية ؛ وإذن لنشأت من نمو الصناعة عاماً بعد عام طبقة جديدة من السكان لعلها كانت تستطيع أن تخطو بسلام إلى ميدان السلطة السياسية ، كما خطا الصناع إليها فى إنجلترا وحلوا محل كبار ملاك الأراضى الزراعية .

ولكن الحكومة الجديدة ألفت نفسها بلا جيش ، ولا زعماء مجرّبين ، ولا مال ؛ ووجد الكومنتانج ، أى حزب الشعب الذى أنشئ لتحرير الأمة ، أن لابد له أن يقف موقف العاجز وهو يرى الأمة تخضع لرءوس الأموال الأجنبية والوطنية . وكان هذا الحزب قد ولد فى مهاد الدمقراطية ونشأ فى أحضان الشيوعية ، ثم أضحى جل اعتماده على مصارف شنغهاى المالية ، فترك الدمقراطية وانحاز إلى الدكتاتورية وحاول أن يقضى على اتحادات الصناع(*) . ذلك أن الحزب يعتمد على الجيش ، ولا بد للجيش من مال ، والمال لا يأتى إلا من القروض ؛ وإلى أن يكون للجيش من القوة ما يمكنه من إخضاع الصين فإن الحكومة ستظل عاجزة عن فرض الضرائب على الصين ، وإلى أن تستطيع الحكومة فرض الضرائب على الصين ستظل تتلقى النصح والإرشاد من حيث تتلقى المال . على إنها مع هذا كله قد أنجزت الشىء الكثير ؛ فقد أعادت إلى الصين إشرافها التام على التعريفة الجمركية وعلى صناعاتها — داخل نطاق قوة المال العالمية — وأنشأت ودرّبت وجهزت جيشاً قد يستخدم فى يوم من الأيام لقتال غير الصينيين ؛ ووسعت رقعة الأقاليم التى تعترف بسلطة الحكومة ، وقللت فى هذه الرقعة من قوة قطاع الطرق الذين كانوا يجثمون على أنفاس الأمة ويكادون يقضون على حياتها الاقتصادية . وهى تسير فى هذا سيراً بطيئاً لأن إشعال نار الثورة مستطاع فى يوم وليلة ولكن إقامة حكومة ثابتة يحتاج إلى جيل

(*) وقد أعدم فى عام ١٩١٧ وحدها آلاف مؤلفة من العمال لانضمامهم إلى هذه الاتحادات .

وليس تفكك الصين وانفصام عرى وحدتها إلا مظهراً مما في النفس الصينية من انقسام ونتيجة لازمة له . إن أقوى ما في الصين من مشاعر في هذه الأيام هو شعور الكراهية للأجانب ، وأقوى التيارات التي تجتاح الصين هو تيار محاكاة الأجانب . والصين تعترف أن الغرب لا يستحق أن تتملقه وتحاكيه ؛ ولكن الصين يضطرها روح الأيام ودوافعها القوية إلى تملق الغرب ومحاكاته لأن الأمم في هذا العصر لا بد لها أن تختار بين التصنيع والاسترقاق ولا ثالث لهما . ومن أجل هذا نرى الصينيين في المدن الشرقية يهجرون الحقول إلى المصانع ، والثياب الفضفاضة إلى السراويل الضيقة ، ونغمات الماضي البسيطة الشجية إلى موسيقى الغرب المعقدة ، ويتخلون عن ذوقهم الجميل في الثياب والأثاث والفن ، ويزينون جدرانهم بالصور الأوربية ، ويشيدون دور الحكومة ومكاتب الأعمال على أقبح الطرز الأمريكية . وقد تخلت نساء الصين عن عادة ضغط أقدامهن من الأمام إلى الخلف وأخذن يضغطنها من اليمين إلى اليسار على آخر طراز غربي(*) ، وأخذ فلاسفتها يتخلون عن مبادئ كنفوشيوس المعتدلة القنوعة الظريفة ويهرعون إلى مبادئ موسكو ولندن وبرلين وباريس ونيويورك الشرسة الخصيمة ، ويتلقونها بنفس الحماسة التي كان الأوربيون يتلقون بها مبادئ النهضة في أواخر العصر الوسيط .

لقد ثلّ عرش كنفوشيوس وكان في الطريقة التي ثل بها شيء من سمات عصر النهضة وعصر الاستنارة ؛ ولقد كان نبذا لأرسطو الصين والآلهة التي عبدها الشعب من أقدم الأزمنة . وأتى على الدولة حين من الدهر اضطهدت فيه البوذية وطوائف الرهبان في الأديرة ، ذلك أن ثوار الصين كانوا كثوار فرنسا ملاحدة لا يخفون عن الناس إلحادهم ، ويجهرون بعدائهم للدين ، ولا يعبدون غير

(*) تعمد بعض الصينيات في هذه الأيام إلى وضع وسادات في أحذيتهن ليخفين عن الناس أن أقدامهن قد ضغطت في صغرهن(٢٦) .

العقل . ولعل الـكنفوشية كانت تترك الناس أحراراً فى عقائدهم الدينية لأنها تفترض أن الآلهة ستبقى ما بقى الفقر ؛ أما الثورة فـكانت تظن أن فى وسعها أن تقضى على الفقر ولذلك لم تر حاجة إلى الآلهة ؛ وكانت الـكنفوشية ترى أن الزراعة والأسرة هما نظام الحياة العملية والاجتماعية الطبيعية ولذلك شادتْ صرحاً للأخلاق يهدف إلى حفظ النظام وإشاعة القناعة فى نطاق دائرة البيت والحقل ؛ أما الثورة فوجْهتها الصناعة وهى فى حاجة إلى أخلاق جديدة تتفق مع الحياة الفردية فى الحواضر . وقد بقيت الـكنفوشية لأن الوصول إلى المناصب السياسية والمهن العلمية كان يتطلب معرفة مبادئها والأخذ بها ؛ أما الآن فنَظام الامتحانات قد انقضى عهده وحلت العلوم الطبيعية فى المدارس محل الفلسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وأصبح الرجل لا يصاغ للحكم بل يصاغ للصناعة ؛ وكانت الـكنفوشية محافظة تكبح بحذر الشيوخ مُثُل الشباب العليا ؛ أما الثورة فروحها من أنفاس الشباب ولا تقبل أن يفرض عليها شيء من هذه القيود ، وهى تسخر من الشيوخ إذا رفعوا عقيرتهم محذرين : « إن الذين يظنون أن الجسور القديمة عديمة النفع ويحطمونها تحطيما سيصيبهم الدمار ويغرقهم تيار المياه الجارف »(*)(٢٧) .

وقضت الثورة بطبيعة الحال على دين البلاد الرسمى ولم تعد تقرّب القرابين الآن من مذبح السماء إلى التّيّان الصامت المجرد . وتجيز الحـكومة عبادة الأسلاف ولـكن هذه العبادة آخذة هى الأخرى فى الانقراض ، وينزع الرجال إلى تركها شيئاً فشيئاً للنساء وقد كانوا يظنونهن من قبل غير خليقات بهذه الطقوس المقدسة . ولقد تلقى نصف زعماء الثورة تعليمهم فى المدارس المسيحية ، ولـكن الثورة رغم انتماء چيانج كاى شك إلى الطائفة المسيحية النظامية (Methodism) لا تميل إلى دين يؤمن بخوارق الطبيعة وتصبغ كتبها المدرسية بالصبغة الإلحادية(٢٩) . أما

(*) انظر ص ٦٣ . وتحاول الآن حركة « الحياة الجديدة » التى يتزعمها چيانج كاى — شك أن تعيد الكنفوشية وقد نجحت فى ذلك بعض النجاح .

الدين الجديد الذى يحاول أن يسد الفراغ العاطفى الناشئ من فراق الآلهة فهو دين الوطنية ، كما أن الدين الجديد فى الروسيا هو الشيوعية . ولكن هذه العقيدة فى الوقت الحاضر لا ترضى كافة الناس ، ولهذا ترى الكثيرين من صعاليك المدن يعمدون إلى العرافين والمتنبئين والوسطاء ليجدوا عندهم ملجأ من كدح الحياة اليومية الرتيب الذى لا لذة فيه ولا طرافة . ولا يزال القرويون يجدون بعض ما يسليهم عن فقرهم ويفرج عنهم كربهم فى سكون المزارات القديمة . والقانون الأخلاقى القديم الذى كان الناس منذ جيل واحد يظنونه قانوناً سرمدياً لا يتبدل آخذ فى التفكك والانحلال بسرعة تتضاعف ثم تتضاعف على مدى الأيام بعد أن فقد حماية الحكومة والدين والحياة الاقتصادية . وأهم ما طرأ على الصين من تبدل فى هذه الأيام ، إذا استثنينا ما أحدثه فيها الغزو الصناعى ، هو تحطيم نظام الأسرة القديمة لتحل محله نزعة فردية تترك كل إنسان حراً يواجه العالم بمفرده ، وقد استبدل الولاء للدولة من الوجهة النظرية بالولاء للأسرة .

وإذ كان هذا الولاء الجديد لم ينتقل الآن من طور الأقوال والنظريات إلى طور الأعمال فإن المجتمع الجديد يعوزه الأساس الخلقى الذى يستند إليه . إن الزراعة يلائمها نظام الأسرة لأن الأرض ، قبل انتشار الآلات ، كانت تستغل أحسن استغلال على أيدى جماعة من الناس تربطهم رابطة الدين والسلطة الأبوية . أما الصناعة فتمزق الأسرة لأنها تعطى العمل والجزاء عليه للأفراد لا للجماعات ، ولا تعطيهم هذا الجزاء دائماً فى مكان معين ، ولا تعترف بأن للضعفاء حقاً فى مال الأقوياء ، ولا يجد التعاون والتراحم الطبيعيين القائمين بين الأسرة سنداً من التنافس المرير الذى هو من طبيعة الصناعة والتجارة ؛ وترى الجديد الذى ينفر على الدوام من سلطان الشيوخ يهرع عن عمد إلى المدينة وفردية المصنع ، ولعل سلطان الأب القوى فى الزمن الماضى قد عجل بالانقلاب لأن الرجعية هى التى يرجع إليها على الدوام إسراف المتطرفين . وهكذا انتزعت الصين نفسها من ماضيها واستأصلت

جذوره ، وما من أحد يدرى هل تستطيع أن تمد لها جذوراً جديدة فى وقت يمكنها من أن تنجى بها حياتها الثقافية .

وكذلك أخذت أساليب الزواج القديم تزول بزوال سلطان الاسرة . نعم إن معظم الزيجات لاتزال ينظمها الآباء ، ولكن الزواج بالاختيار الحر بين الفتيان والفتيات آخذ فى الانتشار فى الحواضر ؛ فالشاب لا يكتفى الآن بأن يرى نفسه حرًّا فى أن يتزوج من يشاء ، بل هو يجرى تجارب فى الزواج قد يرتاع لها أبناء الغرب أنفسهم ، وهذا القول نفسه ينطبق على الفتيات كما ينطبق على الفتيان . لقد كان نتشه يرى أن آسية على حق فيما تعامل به النساء ، ويرى أن إخضاعهن لرجال هو العاصم الوحيد من سيطرتهن عليهم سيطرة لاتقف عند حد ، ولكن آسية قد اختارت أساليب أوربا لا أساليب نتشه فى معاملة النساء . وتعدد الزوجات آخذ فى النقصان لأن الزوجة الجديدة تعارض فيه وتعارض فى التسرى . والطلاق قليل غير عادى ، ولكن السبيل إليه أوسع مما كانت فى الأيام الماضية(*) . والتعليم المشترك هو القاعدة المتبعة فى الجامعات ، واختلاط الجنسين اختلاطا حرًّا أمر عادى فى المدن ، وقد سنت النساء لهن قوانينهن الخاصة بهن وأنشأن مدارسهن الطبية ، بل سرن إلى أبعد من هذا فأنشأن مصرفا ماليًا خاصا بهن(٣١) . واللائى انضممن إلى الحزب من النساء منحن حق الانتخاب ، وقد وجدت لهن وظائف فى أرقى لجان الحزب والحكومة على السواء(٣٢) . ولقد نبذن عادة قتل الأطفال

(*) تجيز الثورة الطلاق إذا طلبه الطرفان ، ولكن إذا كان الزوج أقل من ثلاثين سنة أو الزوجة أقل من خمس وعشرين فإن الطلاق يتطلب رضاء الأبوين . ولا تزال الأسباب القديمة التى كانت تجيز للزوج أن يطلق زوجته معمولا بها — وهذه الأسباب هى العقم ، والخيانة الزوجية ، وإهمال الواجب ، والثرثرة ، والسرقه ، والغيرة ، والأمراض الخطيرة ؛ ولكن هذه الأسباب لا يعمل بها إذا كانت الزوجة قد حزنت ثلاث سنين على والدى زوجها ، أو لم تكن لها أسرة تعود إليها ، وكانت وفية لزوجها فى أثناء ارتفاعه من الفقر إلى الغنى(٣٠) .

وأخذن يزاولن عادة تحديد النسل(*)، ولم يزد عدد السكان زيادة ملحوظة منذ قيام الثورة ولعل تيار السكان الصينيين الجارف قد أخذ الآن يتراجع(٣٣) .

ومع هذا فإن خمسين ألف صيني جديد يولدون فى كل يوم(٣٤). وسيكونون فى مستقبل أيامهم جُدداً من كل الوجوه ، جدداً فى تفصيل ملابسهم وترجيل شعرهم ، جدداً فى تعليمهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وفلسفتهم ، لقد اختفى ذيل ملابسهم الطويل واختفى معه ما كان فى الأيام الخالية من ظرف ورقة ، وخشنت أحقاد الثورة روح الأهلين ، وأضحى من أصعب الأمور على المتطرفين أن يجاملوا المحافظين(٣٥) . وها هو ذا تيار الصناعة السريع يبدل ما كان يتصف به الشعب الصينى القديم من تواكل وعدم مبالاة إلى صفات أخرى أكثر دلالة على طبيعتهم . إن هذه الوجوه البليدة لتخفى تحتها نفوسا نشيطة سريعة الاهتياج ، وإن النزعة السلمية التى أشربتها نفوس الصينيين بعد حروب دامت عدة قرون لآخذة فى الزوال من طول تفكيرهم فى هزائمهم القومية وتقطيع أوصال بلادهم ؛ والمدارس تعد الآن كل طالب لأن يكون جنديا ، وعاد القوم مرة أخرى يرون القائد بطلا .

وتبدل نظام التعليم من أوله إلى آخره فألقت المدارس بكنفوشيوس من النافذة وأحلت العلوم الطبيعية والرياضية محله ، وإن لم يكن من الضرورى أن تتخلى عنه لتحل العلوم محله لأن تعاليم كنفشيوس لا تتعارض مطلقاً مع روح العلم . ولكن التاريخ كله لحمته وسداه يتكون فى جميع مراحله من غلبة الإحساسات النفسية على العقائد المنطقية . فدراسة الرياضيات والميكانيكا واسعة الانتشار لأنهما يعينان على صناعة الآلات ، والآلات تعين على جمع الثروة وعلى صناعة المدافع ، والمدافع قد تحفظ الحرية . ودراسة الطب فى الصين آخذة فى

(*) إن الإعلانات الصريحة عن وسائل موانع الحمل فى مخازن الأدوية الصينية لمما يوحى إلى الغرب بوسيلة يلجأ إليها لينجو بها من « الخطر الأصفر » .

الانتشار ، والفضل فى انتشارها راجع معظمه إلى هبات المحسن ركفلر(*) . وقد تضاعف عدد المدارس الجديدة والمدارس العليا والكليات بسرعة فائقة على الرغم من فقر البلاد ، والصين الحديثة تأمل ألا يمضى إلا القليل من الوقت حتى يستطيع كل طفل أن يتعلم من غير أجر وأن يسودها النظام لدمقراطى بفضل انتشار التعليم .

وقد حدث فى الأدب الصينى والفلسفة الصينية انقلاب شبيه بما حدث فى عهد النهضة . ذلك أن دخول الكتب الغربية كان له من الأثر المنتج ما كان للمخطوطات اليونانية من أثر فى عقول الإيطاليين ؛ وكما أن إيطاليا فى إبان نهضتها قد هجرت اللغة اللاتينية لتكتب بالإيطالية فكذلك فعلت الصين بزعامة هوشى إذ حولت اللهجة الأرستقراطية القديمة إلى لغة أدبية هى المعروفة بالپاى هوا ، وأقدم هوشى على عمل خطير جازف فيه بمصيره الأدبى فكتب بهذه « اللغة البسيطة » تاريخ الفلسفة الصينية فى عام ١٩١٩ ؛ وكانت شجاعته سبباً فى فوزه العظيم ، فاتخذت خمسمائة صحيفة دورية الپاى هوا لغة لها ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى كانت لغة الكتابة الرسمية فى المدارس . وقامت فى الوقت نفسه « حركة الحروف الألف » لإنقاص رموز الكتابة الصينية من ٤٠٠٠٠ رمز وهو العدد الذى كان يستخدمه العلماء فى كتاباتهم إلى ١٫٣٠٠ تكفى للاستعمال العادى . وبهذه الطريقة أخذت لهجة المندرين تذيع بسرعة فى الأقاليم الصينية ، وقد لا ينتهى هذا القرن حتى تكون للصين كلها لغة واحدة وحتى تقترب من الوحدة الثقافية .

والأدب الصينى آخذ فى الانتشار مدفوعا بهذه اللغة الشعبية وبحماسة الأهلين ، وقد أضحى عدد الروايات والقصائد والتمثيليات لا يقل عن عدد الصينيين أنفسهم ، وانتشرت الصحف والمجلات فى كل مكان ، وأخذ الصينيون يترجمون آداب الغرب

(*) فى عام ١٩٣٢ فتحت كلية طب الاتحاد للطلاب والطالبات بفضل الهبة التى قدمها جون . و . ركفلر الصغير والبالغ مقدارها خمسة ملايين من الدولارات ، وتنفق اللجنة الطبية الصينية التى تمدها بالمال مؤسسة ركفلر على تسعة عشر مستشفى وثلاث مدارس للطب وتهب فى كل عام خمسا وستين جائزة تعليمية(٣٦) .

بالجملة ، كما أخذت أشرطة الخيالة الأمريكية ، يشرحها مترجم صيني يقف إلى جانب الشاشة البيضاء ، تبعث البهجة فى نفوس الصينيين العلماء منهم والسذج . وكذلك عادت الفلسفة إلى عظماء الفلاسفة الأقدمين الملحدين ، وأخذت تعيد دراستهم وتفسيرهم على نمط جديد بعزيمة واندفاع لا يقلان عن عزيمة أوربا ونشاطها فى القرن السادس عشر ، وكما أن إيطاليا بعد أن تحررت من القيود الكنسية قد راعتها العقلية اليونانية اللادينية وأثارت إعجابها ، كذلك أخذت الصين الجديدة تستمع بشغف ليس كمثله شغف إلى أقوال مفكرى الغرب أمثال چون ديوى وبرتراند رسل وأمثالهم من العلماء المستقلين فى تفكيرهم استقلالا تاما عن جميع الأديان ، والذين يعظمون التجارب ويعتقدون أنها وحدها هى المنطق الواجب الاتباع ، والذين تتفق فلسفتهم لهذا السبب مع مزاج أمة تحاول أن تجمع الإصلاح الدينى ، وإحياء العلوم والاستنارة والنهضة والثورة فى جيل واحد(*) وإذا ما امتدح أحدنا الآن ما لآسية من « قيم روحية » سخر منه هوشى وقال إنه يجد فى إصلاح نظم الصناعة والحكم إصلاحا يعين على استئصال العوز من البلاد قيما أخلاقية أعظم من كل ما فى « حكمة الشرق » ، وهو يلقب كنفوشيوس « بالشيخ الطاعن فى السن » ويقول إن التفكير الصينى ليظهر على حقيقته إذا ما وضعت مدارس الملحدين التى كانت قائمة فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى مكانها الصحيح من تاريخ الصين(٣٨) .

بيد أنه وهو فى وسط هذا « التيار الجديد » الجارف وهذه الحركة الفكرية الجديدة التى كان من أنشط زعمائها قد أوتى من الحكمة ما جعله يدرك ما للشيوخ أنفسهم من قيمة ، وقد صاغ مشكلة بلاده أكمل صياغة فى الفقرة الآتية :

(*) لقد ضعف فى الأيام الأخيرة هذا الميل الشديد إلى تقليد المثل الغربية فى الأمور العقلية بتأثير حركة الحياة الجديدة التى يتزعمها چيانج كاى — شك . وأخذت الصين واليابان تخترعان لها أشرطة خيالية خاصة بهما ؛ وعاد الاستمساك بالقديم يحل تدريجاً محل التطرف ، كما أخذت الصين تميل إلى الانضمام إلى اليابان فى الثورة على أفكار أوربا وأمريكا وأساليبهما .

« إن الجنس البشرى بأجمعه لتصيبه أكبر خسارة إذا ما استبدلت الحضارة الجديدة بالحضارة القديمة استبدالا سريعاً مفاجئاً يمحوها من الوجود بدل أن تمتصها البلاد امتصاصاً بطيئاً وتمثلها كما يمثل الغذاء الصالح . وعلى هذا فإن المشكلة التى تواجهنا يمكن أن تصاغ على النحو الآتى . كيف نستطيع أن نهضم الحضارة الجديدة ونمثلها بحيث نجعلها متجانسة مؤتلفة مع الحضارة التى أنشأناها نحن فى أيامنا الحالية ؟ »[٣٠] .

ويخيل إلى كل من يشهد ظواهر الأمور الخارجية السائدة فى الصين الآن أنها لن تستطيع حل هذه المشكلة . ذلك أن الإنسان إذا ما فكر فيما يخيم على الحقول الصينية من وحشة ، وما حاق بها من خراب ، وما ينتابها من جدب تارة وفيضان جارف تارة أخرى ، وما أصاب أشجارها من تقطيع وتدمير ، وفيما أصيب به زراعها من إنهاك وخمول ، وفى الموت الذى يحصد أطفالها حصداً ، وفى عمالها الذين يكدحون فى المصانع كالعبيد كدحاً يضعفهم ويهد قواهم ، وفى مدنها القذرة التى تتفشى فيها الأمراض ، وتفرض على بيوتها أفدح الضرائب ، وفى الرشوة المنتشرة فى تجارتها ، وفى صناعاتها التى يسيطر الأجانب عليها ، وفى فساد حكومتها ، وضعف وسائل الدفاع عن بلادها ، وفى أهلها الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً وامتلأت قلوبهم غلا وحقداً ، إذا ما فكر فى هذا كله هاله الأمر فلا يدرى هل تستطيع الصين أن تستعيد عظمتها الماضية ، وهل فى مقدورها أن تمتص مرة أخرى فاتحيها وتمثلهم فى جسمها الضخم ، وتحيا من جديد حياتها النشيطة المبدعة ؟ ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية عوامل النقاهة والتجديد فأراضيها الواسعة الرقعة المختلفة الأنواع غنية بمعادنها الكفيلة بأن تجعلها بلداً صناعياً عظيما ، وقد لا يكون فيها من الثروة المعدنية ما قدره رختوفن ، ولكن فيها بلا ريب أكثر مما كشفت عنه البحوث التجريبية فى هذه الأيام . وإذا ما تسربت الصناعة إلى داخل البلاد فستكشف عن خامات ومواد للوقود لا يتصور الناس

الآن أنها توجد فيها ، كما لم يكن أحد يتصور منذ قرن واحد ما فى أمريكا من ثروة معدنية ومن وقود . أما عن قواها المعنوية فإن هذه الأمة التى مرت عليها ثلاثة آلاف عام سمت فيها إلى المجد تارة وتردت فى مهاوى الشقاء تارة أخرى ، وتوالت عليها فترات موت وبعث ، إن هذه الأمة لتظهر فيها اليوم كل دلائل الحيوية المادية والمعنوية التى تذبينها فى أكثر عهودها إبداعا وإنتاجا . وليس فى العالم كله شعب أكثر من هذا الشعب نشاطا وذكاء ، وليس فيه شعب يماثله فى قدرته على التكيف حسب ما يواجهه من الظروف ، وفى مقاومته للأمراض ، وفى انتعاشه بعد الكوارث والآلام ، شعب علّمه تاريخه الطويل الصبر على الأرزاء والخروج منها سالما على مر الأيام . وليس فى الخيال أن يتصور ما يخبئه المستقبل لحضارة تمتزج فيها الموارد المادية والطاقة البشرية والعقلية لهذا الشعب والوسائل والأدوات الفنية التى أوجدتها الصناعة الحديثة .

وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة ما لم تنتجه قارة من القارات حتى أمريكا نفسها ، وأن الصين ستتزعم العالم فى نعيم الحياة وفنها كما تزعمته مراراً فى الزمن القديم فى التنعم وفى فنون الحياة .

ذلك أن الهزائم الحربية واستبداد الأموال الأجنبية مهما قست لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية فى مواردها وفى حيويتها ، بل سيخسر المغير عليها ماله وينفد صبره قبل أن تستنفد البلاد قدرتها على التكاثر ؛ ولن يمضى قرن واحد من الزمان حتى تكون الصين قد امتصت فاتحيها وهضمتهم وحضرتهم بحضارتها ، وتعلمت جميع الفنون التى سيطلق عليها إلى وقت قصير اسم الصناعة الحديثة . وسوف توحّد الطرق وسبل الاتصال أجزاءها ، وتمدها أساليب الاقتصاد والادخار بحاجتها من المال ، وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام . ويقيننا أن الفوضى مهما اشتدت ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى الزوال ، ثم يتوازن

الاضطراب آخر الأمر مع الطغيان ويتعادلان ، وحينئذ تُكتسح العوائق القديمة وتنمو البلاد نماء حُرًّا جديداً . إن الثورة كالموت هي اكتساح الأقذار ، وبتر الذي لا نفع فيه ؛ وهي لا تقوم إلا إذا كان في البلد الذي تقوم به أشياء كثيرة في دور الاحتضار . ولقد ماتت الصين مراراً من قبل ، ثم عادت وولدت من جديد .

(انتهى)

المراجع +

الباب الثالث والعشرون

1. I am Indebted for this quotation from the *Book of Rites* to Upton Close. Cf. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 60; Hirth, F., *Ancient History of China*, 155.

1a. Reichwein, A., China and Europe: *Intellectual and Artistic Contacts in the Eighteenth century*, 92.

2. Ibid., 89f; Voltaire, Works, New York, 1927, xiii, 19.

3. Keyserling, *Creative Understanding*, 122, 203; *Travel Diary*, ii, 67, 58, 50, 57, 48, 68.

4. Lippert, 91; Keyserling, Travel Diary, ii, 58.

5. Smith, A.H., *Chinese Characteristics*, 98.

6. Giles, H., *Gems of Chinese Literature Prose*, 119.

7. Williams, S. Wells, *Middle Kingdom*, i, 5; Brinkley, Capt. F., *China : Its History, Arts and Literature*, x, 3.

8. Ibid., 2; Hall, J. W., *Eminent Asians*, 41.

10, Pitjard, 397: Buxton, 158; Granet, *Chinese Civilization*, New York, 1930, 68; Latourette, K.S., *The Chinese: Their History andculture*, 35-6; New York *Times*, Feb, 15. 1933,

11. Lowie, 182; Fergusson, J., *History of Indian and Eastren Architecture*. ii, 468; Legendre, A. F., *Modern ChineseCivilization*, 234; Granet, 64.

12. Ibid., 215, 280.

13. Gowen and Hall, 26-7.

14. Coufncuis (?) *Book of History*, rendered and compiled by W. G. Old, 20-1.

15. Giles, *Gems*, 72.

16. Hirth, 40.

17. Ibid., 53-7.

18. Willhelm. R., *Short Histopy of Chinese Civilization*, 124; Cranet, 86.

19. Ibid., 87.

20. Confucius, *Analects*, XIV, xviii, 2, in Legge, Jas, *Chinese Classics, Vol, I : Life and Teachings of Confucius*.

21. Legge, 213n

22. Airth, 107-8, Latourette, i, 57, Gowen and Hall, 64; Schneider, H., ii, 796-8.

23. Cranen, 78.

23. Cranet, 78.

24. Ibid., 32-3; Hu Shih, *Development of the Logical Method in Ancient China*, 22, Latourette, ii, 52.

25. Ibid, 58-9; Granet, 87-8; Hirth,

(+) سنثبت اسم الكتاب كاملا عند أول وروده فى هذه القائمة ثم نكتفى بعد ذلك بذكره مختصراً

110.

26. Giles, H.A., *History of Chinese Literature*, 5

27. *Book of Odes*, I, x,8, and xii, 10, in Hu Shih, Pt. I, p. 4.

28. Cranmer - Byng, L., *The Book of Odes*, 51.

29. Tr. by Helen Waddell in Van Dorren, *Anthology of World Poetry*, 1.

30. In Yang Chu's *Garden of Pleasure*, 64.

31. Fenollosa E.F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, 14, Hirth, 59-62; Hu Shih, 28f; Suzuki, D. T., *Brief History of Early Chinese Philosophy*, 14; Murdoch, Jas., *History of Japan*, iii, 108.

32. Hu Shih, 12

33. Legge, 75n.

34. In Hu Shih, 12.

35. Ibid., 13.

36. Ibid., 12.

37. Giles, *History*, 57; Legge, Jas., *The Text of Taosim*, i, 4-5.

38. Gilse, *History*, 67, Giles *Gems*, 55.

39. Legge, *Texts of Taoism*, i, 4f.

40. II, lxxxi, 3, I, lxv, 1-2.

41. In Suzuki, 81.

42. II, lvii, 2-3, lxxx, Parenthetica-passages, in this and other quota tions, are usually explanatory interpolations, nearly always of the translatior.

43. Yang Chu, 16, 19, Schlender, ii, 810; Hu Shih, 14, Wilelm, *Short History*, 247.

44. I, xvi 1-2.

45. I, xiiii, 1; xlix, 2 : lxi, 2, lxiii, 1, lxxviii, I, lxxxi, 1, Giles, *History*, 73.

46. II, lxi, 2.

47. II, lvi, 1-2.

48. Granet, 55,

49. II, lvi, 2.

50. I, xvi, I, II, lvi, 3, Parmelee. 43.

51. Legge, *Texts of Taoism*, 34, *Life and Teachings of Confucius*, 64.

61. Legge, *Texts*, 34,

62. Ibid.

63. Szuma Ch'inn in Legge, *Life*, 58n.

64. Ibid.

65. Legge, *Life*, 55-8, Wilhelm, R., *Soul af China*, 104.

66. Hirth, 229.

67. *Analects*, VII, xiii.

68. VIII, viii.

69. XV, xv.

70. VII, viii.

71. VII, xii,

72. VI, ii, XI, iii.

73. XVII, xvii, XIV, xivi.

74. Legge, *Life*, 65.

75. Ibid., 79.

76. V, xxvii.

77. VII. xxxii.

78. XIII, x.

79. IX, iv.

80. VII, i.

81. IV, xiv.

82. Legge, *Life*, 67.

83. XII, xi

84. Legge, *Life*, 68.

85. Ibid., 72.

86. Ibid., 75.

87. IX, xvii.

88. Legg, 83.

89. Ibid. 82.

90. XV, xviii.

91. II, iv.

92. Legge, 82.

93. Mencius. *Works of*, tr. by Legge, III, 1, iv, 13.

94. Wilhelm, *Short History*, 148, Legge, *Life*, 16.
95. Ibid., 267, 27, Hu Shih, 4.
96. XV, 40.
97. II, xvii.
98. XIII. iii,
99. III, xiii, 2.
100. IX, xv.
101. Legge, *Life*, 101, Giles, *History*, 83, Suzuki, 20.
102. Legge, 101.
103. XI, xi.
104. VI, 20.
105. VII. 20.
106. Giles, *History*, 69.
107. XV, ii.
108. *Great Learning*, I, 4-5, in Legge, *Life*, 266. I have ventured to change " illustrate illustrious vitrue" in Legge's translation, to "illustrate the highest virtue", and the words "own selves" have been substitituted for "Persons," since "the cultivation of the person" has now a misleading connotation.
109. XIV, xiv.
110. XV, xxxi, II, xiv, XIII, iii, 7.
111. VI, xvi.
112. *Doctrine of the Mean*, XII, 4, in Legee.
113. *Analects*, II, xii.
114. *Doctrine of the Mean*, XIV, 5.
115. XV, xviii-xx.
116. XIV, xxix, XI, xiii, 3, *D. of M.*, XXXIII, 2.
117. Ibid., XI, 8.
118. *Li-chi*, XVII, i, 11-2.
119. Spinoza, *Ethics*, Bk. III, ProP. 59.
120. *D. of M.*, XXIX, tr. by Suzuki, 64.
121. Suzuki, 68.
122. *Analects*, XII, ii, V, xvi.
123. XV, xxiii,
124. XIV, xxxvi, 1-2.
124a. IV, xvii.
124b. XII, vi.
125. XIII, xxiii.
126. *D. of M.*, XIV, 3.
127. IV, xxiv, V, iii, 2, XVII, vi, XV, xxi.
128. V, xvi, XVI, iii, 5.
129. XVI. 10.
130. I, ii, 2, Legge, *Life*, 106.
131. IV, xviii, *Li-Chi*, XII, i. 15, Brown, B., *Story of Confucius*, 183.
132. *Great Learniug*, X, 5.
133. *Analects*, XII, vii.
134. XII, xix, II, ii, xx.
135. XII, xxiii, 3.
136. *D. of M.*, XX, 4.
137. *Analects*, XIII, x-xii.
138. *Great Learning*, X, 9.
139. *Analects*, XII, xix, XV, xxxviii,
140. *Li chi*, XVII, i, 28, iii. 23, Brown, *Story of Confucius*, 181.
141. *Analects*, XX, iii, 3.
142 *Li-Chi*, XXVII, 33, XXIII, 7-8.
143. Ibid., VII, i, 2-3, quoted in Dowson, *Ethics of Confucius*, 299, from Chen Heang-chang. *The Economic Principles of Confucius and School.*
144. Latourette, i, 80-1.
145. Legge, *Life*, 106.
146. *D. of M.*, XXX-XXXI.
147. Hu Shih 109, f.
148. Hirth, 807.
149. Mencus, VII, i, 26, in Hu Shih, 58.
150. Hu Shih, 72.
151. Ibid., 57, 75, Latourette, i, 78.

152. In Hirth. 281.
153. Hu Shih, 69-70.
154. Thomas. E. D., *Chinese political Thought*, 29-30.
155. Hu Shih, 58.
156. Mencius, Introd., 111.
157. Withelm *Short History*, 150, Hu Shih 110.
158. Hu Shih, 62.
159. Mencius. Introd., 93.
160. Yang Chu, 10, 51, Latourette, i, 80.
161. Mencius, Introd., 95, Yang Chu, 57.
162. Mencius, Introd., 96-8.
163. Hirth, 27-9.
164. Mencius, III, ii, 9.
165. Mencius, Intrd., 14-18.
166. Ibid., 42.
167. Ibid., I, ii 8, II, 5; pp. 156, 162.
168. Ibid., 12.
169. VI, I, 7.
170. I, i, 7.
171. III, i, 3.
172. I, i, 3.
173. II, i, 5.
174. Thomas, E.D., 87, Williams, S. Wells, i, 670.
175. IV, ii, 19.
176. Mencius, Introd., 30-1.
177. VI, ii, 4.
178. VII, ii, 4.
179. Quoted in Thomas, E. D., 87.
180. I, i, 3.
181. II, ii, 4.
182. VII, ii, 14.
183. V, ii, 9, I, ii, 6-8.
184. Mencius., Introd., 84.
185. Ibid., 79-80.
186. Ibid., 86.
187. In Hu Shih, 152.
188. Legge, Texts of Taoism, V, 5.
189. Ibid., Introd., 87.
190. XVII, 11.
191. I Thomas, E. D., 100.
192. XI, 1.
193. XVI, 2, IX, 2.
194. XII, 11.
195. XII, 2.
196. II, 2, XX, 7, Giles, *Gems*, 32.
197. II, 7, XXII, 5.
198. VI, 7.
199. In Suzuki, 36.
200. XVII, 4, Hu Shih, 146.
201. XVIII, 6.
202. II, 11, tr. by Giles, *History* 63
203. VI, 10, tr. by Suzuki, 181-2.
204. In Giles, *History*, 68.
205. In Reichwein 79f.
206. Ibid.
207. Ibid., 84.
208. Wilheim, *Soul of China*, 233.
209. Thomas, E.D., 25.
210. Voltaire, *Works*, iv, 82.
211. Reichwein, 181, Hirth, xii.

الباب الرابع والعشرون

1. Giles, *Gems*, 33.
2. Granet, 87, Gowen and Hall, 84, Giles, *History*, 78.
3. Granet, 41.
4. Voltaire, *Works*, iv. 82.
5. Granet, 87, 97-8, 101-3, Boulger, D. C., *History, of China*, i, 68-70 Wilhelm, *Short History*, 157.
6. Boulger, i, 71.
7. Granet, 38.

8 Ibid.
9. Ibid., 103; Schneider ii, 790; Wilhelm, *Short History*, 160-1; Lautourette i, 96.
10. Gowen and Hall,. 84f, Giles, *History*, 78.
11. Hall J. W., *Emiu nt Asians*, 6.
12. Boulger, i, 64.
13. Ibid., 62, Latourette, i, 99.
14. Granet; 38-40, Boulger i, 77. Giles in G(owen) & H (all), 92.
15. Boulger, i, 106, Granet, 44.
16. Szuma Ch'ien in Granet, 113.
17. Ibid.
18. Granet, 112-3.
19. Ibid., 118.
20. Fenollosa, i, 77.
21. Walley, Arther *Introduction to the Study of chinese Paining*, 27, G.H. 102.
22. Granet, 113-5.
23. Wilhelm, *Short History*, 186,194.
24. Lautourette, i, 121.
25. Ibid., 120-2.
26. Ibid., 122.
27. G & H, 118.
28. Ibid., 117-21.
29. Fenollosa, i, 117.
30. Voltaire, *Works*, xiii, 26.
31. Tu Fu, *Poems*, tr. by Edna W. Under-wood, xli
32. Li-Po, *Works*, done into English Verse by Shigeyoshi Obata, 91.
33. Tu Fu, xlvii.
34. In Li-Po. 1.
35. In Tu Fu, xii.
36. Murdoch, *History of Japan*, i, 146.
37. Waley. *Chinese Paninting*, 142.
38. Ibid., 97.
39. William, *Short History*, 234.
40. Williams, S. Wells, i, 696f.
41. Li-Po, 20.
42. Ibid., 95.
43. Ibid., 30.
44. Williams, S. Wells, i, 697.
45. Li-Po, 31.
46. G & H, 113.
47. Li-Po, 100.
48. Ibid., 84.
49. 138.
50. 191.
51. 71.
52. 55.
53. Ibid., ii.
54. Ibid.,
55. Ibid., 25.
56. Giles, *History*, 50.
57. Translations by Arthur Waley Amy Lowell and Florence Ayscough, in Van Deren, *Anthology*, 18-20.
58. Waley, Arthur, 170 *Chinese Poems*, 106-8.
59. Ibid, 126.
60. Ibid., 168.
61. In Van Doren, 24.
62. Giles, *History*, 156; Ayscogh, Florence, *Tu Fu: The Autobiography of a Chinese Poet.*, 105.
63. Ibid., 75.
64. Tu Fu, *Poems*, 118, 184, 154.
65. Ibid., 95,
66. 30, 7, 132.
67. 137.
68. 72, 133, and introd.
69. Williams, S. Wells, i, 602,
70. Giles, *History*, 276.
71. Ibid., 102.
72. Ibid.
73. Thomas, E. D, 5.
74. Giles, *History*, 224.
75. Ibid., 160.
76. G & H, 156.
77. Wilhelm, *Short History*, 256; Giles,

History, 258,

78. William, S. Wells, i, 870; Latourette, ii, 220.

79. Ibid.,

80. William, 141.

81. Pratt, *History of Music*, 32-5.

82. Giles, *Gems*, 117.

الباب الخامس والعشرون

1. G & H, 142.
2. Ibid., 141.
3. Ibid., 140-3; Latourette, i, 252-7; Wilhelm, 237-8; Murdoch, iii, 106; Fenollosa, ii, ii, 33, 57.
4. G & H, 133, quoting Walter T. Swingle, Librarian of the U.S. Dept. of Agriculture.
5. Carter, *Invention of printing* 2.
6. Ibid., 3.
7. Ibid., 96.
8. Sarton, 369.
9. Carter; 25.
10. Ibid., 145; Sarton, 512.
11. Carter, 41.
12. Ibid., 43, 181.
13. G & H, 183.
14. Carter, 250.
15. Ibid., 178, 171.
16. Ibid. 177-8; Sarton, 663.
17. Ibid.; G & H, 164; Giles, *History* 296.
18. Chu Hsi, *Philosophy of Human Nature*, 75; Bryan, J. J, *Literature of Japan*, 122; Latourtte, i, 262-3; Williams, S. Wells, i, 683; Wilhelm, *Short History*, 249-50, Aston, W.G., *History of Japanese Literature*, 226-7.
19. Chu Hsi, 68.
20. Wilhelm, 2249-50.
21. Wang Yang-ming, *Pihilosophy* tr. by Fredk, G. Henke, 117-8.
22. Armstrong, R.C., *Light from the East: Studies in Japanese Confucianism*, 121, Brinkley, Cadt. F., *Japan : Its History, Arts and Literature*, iv, 125.
23. Wang Yang-Ming, 8, 12, 50, 59.
24. Brinkely, *Japan*, iv, 125.
25. Wang Yang-Ming, 106, 52.
26. Ibid., 115-6.
27. Hobson, R. L., *Chinese Art*, 14.
28. *Encyc, Brit.*, xiii, 575.
29. Cf. the imperial marriage table in Hobson, R.L., Pl. LXXXIII.
30. Ibid., XCI.
31. Illustrated in *Encyc, Brit.*, xiii, f. p. 576.
32. Ferguson. J. C, *Outlines of Chinese Art*, 67.
33. Hobson, R. L., LXXXVIII.
34. Ibid., LXXVII, 1.
35. Lorenz, *Round the World Traveler*, 197.
36. *Encyc, Brit.*, xii, 864.
37. Fry. R.E., *Chinese Art*, 31, Granet, 37, *Encyc, Brit.*, iv, 245.
38. *Chinese Art*, 33.
39. Fischer, Otto, 374.
40. *Encyc, Brit.*, Pl. XIV, f. p. 246, collection of Mr. Warren E. Cox.
41. *Chinese Art*, 47.
42. Faure, *History, of Art*, ii, 55.
43. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 581.
44. Siren, O, in *Encyc, Brit.*, v. 581, *Chinese Art*, 48.
45. Stein, Sir Aurel, *Innermost Asia*,

Vol. i, Plates VIII, XI, XIX and XXIV.
46. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 586, Plate X, 2, Fischer, 866.
47. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 584, Pl. VI, 4§
48. Ibid., f. p. 585, Pl. VIII, 2.
49. Ibid., f. p. 586. Pl. XI '2 and 3.
40. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architecture*, ii, 454.
51. Fergusson, Jas., in William, S. Wells, i. 727.
52. Cf the decorative design reproduced in Stein air, A., *Innermost Asia*, Vol. iii, Pl. XXV, and the patiently carved and ornamental ceiling shown in Pelliot, Vol. iv Pl CCXXV.
53. Fergusson, op. cit., ii, 464.
54, Coomarswamy, *History*, 152.
55. Williams, S. Wells, i, 744.
56. Lorenz, 203.
57. Cook's, *Guide to Peking*, 28, 30.
58. Fergusson, ii, 481.
59. Legendre, 79.
60. Ibid., 166.
61. Smith, *Chinese Characteristics*, 134.
62. Watey, *Chinese Painting*, 69-70.
63. Siren Osvald, *Chinese Paintings In American Collectiohs*, i, 36.
64. Giles, H. A., *Introduction to the History of Chinese Pictorial Art*, 2.
65. Wilhelm, *Short History*, 38.
66. Giles, *Pictorial Art*, 3.
67. Ibid., Waley, *Chinese Painting*, 32.
68. Fenollosa, ii, p. xxx.
69. Wally, *Chinese Painting*, 45.
70. *Encyc. Brit.*, art. on "Chinese Painting." Pl. II, 6.
71. Fischer, 325-31.
72. Waley, 49.
73. Ibid., 51.
74. Giles, *Pictorial Art*, 21
75. Tu Fu, 97, cf. 175 and 187.
76. Giles, *Pictorial Art*, 79.
77. Wilhelm, 244.
78. Waley, 183.
79. Fenollosa, i, f. p. 120, Fischer, 490.
80. Ibid. 424.
81. Giles, 47-8.
82. Ibid., 50, Binyon, Li, *Fligh of the Dragon*, 43.
83. Giles, 47.
84. Croce, Bene tt *Esthetic*, 50.
85. in Weley, 119.
86. Binyon, 111.
87. Siren, i, Plates 5-8 *Encys. Brit.*, Chinese Painting," Pl. II, 4.
88. Ftnollosa, ii, 27.
89. Waley, 177.
90. G & H, 146.
91. A Chinese writer in Giles, *Pictorial Art*, 115.
92. Fischer, 492.
93, E. g, Fenollosa, ii, 42.
95. Ibid, 62.
96. Gulland, W. G., *Chinese Porcelain*, i, 16
97. *Chinese Art*, 11.
98. Ibid., 2.
99. Hsieh Ho in Coomaraswamy, *Dance of Sive*, 43.
100. Binyon, 65-8, *China Art*, 47.
101. In Okakura-Kakuso, *The Book of Tea*, 108
102. Gulland, i, 3.
103. *Encyc Brit.*, xviii, 361.
104. Ibid., Legendre, 233.
105. *Encyc.Brit.*, xviii,'362,Carter,93.

106. Ibid., I c.
107. Brinkly, *China*, ix, 299.
108. Ibid., 62.
109. Ibtd., 87, Gulland, 139.
110. Brinkley, 75.
111. G & H, 165.
112. Brinkley, *China*, ix, 256.
113. *Encync. Brit.*, viii, 419.
114. Brinkley, *China* iv, 210, 215.
115. Ibid., 376, 554, *Encyc.*, *Brit.*, art. "Ceramtcsl'.

الباب السادس والعشرون

1. polo, Travels, 78, 188.
2. Ibid., v-vii,a perfect introduction, to which the perstnt account is much indebted.
3. Polo, 232-4.
4. 152.
5. 129.
6. G & H, 135f.
7. Giles, *History*, 248-9.
8. Polo, 172.
9. Giles, 147.
10. Polo, 158.
11. Ibid., 125.
12. 149.
13. P.xxiv of Komroff's introduction.
14. G & H. 172.
15. Ibid.
16. Latourette, i,330, Wilheim, *Short History*, 260, G & H, 195, Giles, *History*, 291, Gulland, W. G., ii, 288.
17. G & H, 209.
18. Ibid., 227.
19. Quoled in Parmelec, 218, and in Bisland, Eizabeth *Three Wise Men of the East*, 125.
20. Wilhelm, 204, Latourette, i, 208, G & H. 286, Brinkley, *China*, x. 4.
21. Latourette, i 289.
22. Brinkley, l.c., 12.
23. Williams, S. Wells, i, 770.
24. Ibid., 762.
25. Wilhelm in Keyserling, *Book of Marriage*, 183, Waley, *Chinese Painting*, 165.
26. Legendre, 23.
27 Ibid., 75, Park, No Yong, *Making a New China*, 122.
28. Smith, *Chinese*, *Characteristics*, 127.
29. Polo, 286.
30. Pitkin. *Short Introduction*, 182.
32. Wilhelm, *Short History*, 64.
33. Mason, *Art of Writing*, 154-76.
34. Legendre, 76. 113.
35. Okakura, 3, 36.
36. Granet. 144-5.
37. Legendre, 114.
38. Wilhelm, *Soul of China*, 339.
40. Smith, *Characeristics*, 21, Park, No Yong, 123, Legendre, 86, Williams, S. Wells, i, 775-80.
41. Latourrette, i, 225.
42. Park, 121, Smith, *Characteristics*, 19.
43. Eudy, Sherwood, *Challenge of the East*, 81.
44. Giles, *Gems*. 285.
45. Murdoch, iii, 262.
46. Sarton, 452.
47. NationalGeographical Magazine, April. 1932, p. 511.
48. Sumner and Keller, iii, 2095.

49. Wilhelm, *Short History*, 134, Wilhelm, *Soul of China*, 361-2, G & H, 59.
50. Polo, 236.
51. Peffer, N., *China : the Collapse of a Civilization*, 25-32, Parmelce, 101, Legendre, 57.
52. Williams, S. Wells, i. 413, Wilhelm. *Short History*, 11.
53. Park, 85, G & H, 290.
54. Park, 67.
55. Latourette, ii, 206, G & H, 2-3.
56. Renard, 161.
57. Park, 92.
58. Summer, *Folkways*, 153, Latourette, i, 63.
59. Ibid., 252.
60. Polo, 159, Carter, 77.
61. Carter, 92.
62. Hirth, 126f.
63. Ibid.,
64. Darter, 93.
65. Polo, 170n.
66. Legendre, 107-10.
67. Sarton, 371, 676, Schneider, ii, 360.
68. Sarton, 183, 410.
69. Waley, *Chinese Painting*, 30.
70. Schneider, ii, 337.
71. Voltaire, *Works*, iv, 82, Hirth, 119, Wilhelm, *Soul*, 306.
72. Garrison, 73, Schneider, ii, 359, Sarton, 310, 325, 342.
73. Ibid., 436, 481, Garrison, 73.
74. Latourette, 813, Garrison, 75.
75. Williams, S. Wells, 785, Legendre, 56.
76. Wilhelm *Short History*, 79, 81; Smith, *Characteristics*, 290, 297; Spengler, O., *Decline of the West*, ii, 286, Granet, 168, Latourette, ii, 168-5.
77. Smith, *Characteristics*, 392, Suzuki, 47, 112, 139, Wilhelm, *Short History*, 69.
78. Hirth, 81.
79. Ibid., 118, Smith, 164, 331.
80. Garent, 321.
81. Wilhelm, *Soul*, 125.
82. Legge, *Tests of Taoism*, i, 41.
83. Suzuki, 72, Wilhelm, *Short History*, 248.
84. Waley, *Chinese Planting*, 28.
85. Potter, Chas, F. *History of Religion*, 198.
86. Wilhelm, *Soul*, 357, Murnoch, iii, 104, Waley, 33-4, 79, Sarton, 470, Latourette, i, 171, 214, ii, 154-5, G & H, 104, Schneider, ii, 303.
87. Smith, *Characteristics*., 89, Latourette, ii, 129, Patmelee, 81
88. Smith, 304, Legendre, 197.
89. Wilhelm, *Short History*, 234, Lorenz, 202.
90. G & H, 118, 527.
91. Fenollosa, ii, 149.
92. Voltaire. *Works*, xiii, 29.
93. Quoted by Wilhelm in Keyserling *Book of Marriage*, 137.
94. Mencius, IV, I, 26.
95. Latourette, ii. 197, Garnet, 321, Williams, S. Wells, i, 336, Legendre, 26.
96. WilkelM, in Keyeserling, 137, Wilhelm, *Soul*, 22, Wilhelm, *Short History*, 104, Smith. 213,
97. Granet, 345, Williams, S. Wells, i, 336, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 462, Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vol, ii, *Sexual Inversion*, 6f.
98. Briffault, iii, 346.

99. Ibid., Wilhelm in Keyserling, 126.
100. Williams, S. Wells, i, 834.
101. Brinkley, *China*, x, 101.
102. Polo, 134, 152, 235.
103. Parmelee, 182; Brifault, ii, 333.
104. Li-Po, 152.
105. Waley, 170 *Chinese Poems*, 19; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 97.
106. Hirih, 116.
107. Williams, S. Wells, 785.
108. Ibid., 787-90.
109. Wilhelm, in Keyserling, *Book of Marriage*, 134.
110. Briifault, ii, 263.
111. Williams, S. Wells i, 407-8.
112. Park, 133.
113. Wilhelm, *Short History*, 59; Wilhelm, in Keyserling, 128; Briifautt, i, 362f.
114. Thomas, E.D, 134; Briifault, i, 368.
115. Granet, 43.
116. Briffauli, ii, ii, 331.
117. Granmer-Byng, *The Book of Odes* 11; Gils, *History*, 108, 274,
118. Smith, 194, Sumner and Keller, iii, 1754, Legendre, 18.
119. *Li-Chi*, IX, iii, 7; Smith, 215; Sumner and Keller, ii, 1844.
120. In Briffault, ii, 331.
121. Waley, 170 *Chinese Poems*, 94.
122. Armstrong, 56.
123. Williams, S. Wells, i. 825.
124. Westermark, *Moral Ideas*, i. 89. Keyserling, *Travel Diary*, ii, 65, Smith, 192, Legender, 122.
125. Wilhelm, *Soul*, 309.
126. Voltaire, *Works*, xiii, 19.
127. Brinkley, *China*, x, 37, 44, 49.
128. Smith, 225.
129. Thomas, E. D., 236, Williams, S. Wells, i, 504, Latourette, ii, 46.
130. Garrison, 75.
131. Williams, i, 391-2, Latorette, ii, 46.
132. Williams, ii, 512, Hirth, 125, Wilhelm, *Soul*, 19.
133. Brinkely, i.c., 3.
134. Ibid., 78.
136. Ibid., 92.
137. Williams, i, 544.
138. Legendre, 158, Hall, J. W., *Eminent Asinns*, 35.
139. Williams, i, 569.
140. Latourette ii, 21; Brinkley, *China*, x, 86.

الباب السابع والعشرون

1. Latourette, i, 313.
2. Lorenz, 248.
3. Latourette, i, 314.
4. Lorenz, 248, G & H, 233.
5. Norton, H. K., *China and the Powers*, 55, Latourette. i, 367, Poffer, 57,
6. Latourette, i, 376, Norton, 56.
7. Park, 149.
8. Peffer, 88f, Latourette, i, 413.
9. G & H, 306.
10. Hall, *Eminent Asians*, 17, Peffer, 151.
11. Latourette, i, 411.

12. Hall, 33.
13. Peffer, 98
14. G & H, 314.
15. N.Y. *Times*, Feb, 11, 1934.
16. Eddy, *Challenge of the East*, 73.
18. Park, 86.
19. Latourette, ii, 93-6.
20. Eddy, 74.
21. Park, 89.
22. Eddy, 89.
23. Peffer, 241.
24. Peffer, 251.
25. *Modern Review*, Calcutta, May 1, 1931.
26. Peffer, 185.
27. Latourette, ii, 174.
29. Ibid., 176.
30. Parmelee 94.
31. Park, 135, Lorenz, 192.
32. Wu, Chao-chu, *The Nationalist Program for China*, 28.
33. Legendre, 240.
34. Park, 114.
35. Close,Upton, *Revolt of Asia*,245.
36. Lorenz, 250.
38. Hu Shih, 8.
39. Ibid., 7

فهرس الأعــلام

* هذه العلامة تدل على أن الاسم فى هامش الصفحة
إذا لم يذكر لفظ قبل الميلاد مع التاريخ فمعنى هذا أنه بعد الميلاد

(ا)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ن)

(هـ)

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

